محمد الرميحى

سقوط الأوهام

العروبة بعد غزو العراق للكويت

الناشر : مدبولى الصغير

سقوط الأوهام

مكتبة مدبولي الصغير

الطبعة الأولى ١٩٩٧م

مقدمة الكتاب

تفتح وعيى السياسى والثقافى على مشهد القومية العربية تحقق انتصاراتها فى معارك التحرير العربية، وقد تحولت من حلم لا يتجاوز الكلمات على الورق إلى أفعال وشعارات سياسية. ومثلما عشت حلاوة هذا الحلم جنيت أيضاً مرارة الفشل، ولم أكن أنا الوحيد فى ذلك، فإن جيلا كاملاً من أترابى أبناء الخليج العربى قد شبوا على ذلك. كانت ذكريات طفولتنا هى معارك متتابعة بدءاً من تأميم قناة السويس المصرية، العدوان الثلاثى، المقاومة الفلسطينية، الثورة الجزائرية، محاربة الاستعمار الفرنسى فى الشمال العربى الإفريقى، وغير ذلك من محطات الصراع مع الآخر (الاستعمار).

وبرغم كل ذلك فإن معارك التحرر من الاستعمار فى الخليج العربى لم تحظ بكثير من الاهتمام والعناية وأكاد

أقول حتى من أبناء الخليج، وبالتأكيد من الرأى العام العربى، ولكنها كانت معركة طويلة ومعقدة يجهل بعض خفاياها الكثيرون اليوم. لقد كانت معركة طويلة بمعنى أنها بدأت مع بداية الاستعمار الحديث نفسه أى فى بداية القرن التاسع عشر الميلادى واستمرت حتى ما بعد النصف الثانى من القرن العشرين، لقد كانت معركة شرسة منذ أن بدأ الاستعمار يجد موطئ قدم له فى هذه البحار والأراضى الهادئة والقاحلة فى آن.

لقد قدم حكام الخليج وأبناؤه التضحيات الجسام من أجل الدفاع عن أوطانهم، وقضى بعضهم نحبه إما فى سجون السلطة البريطانية فى الهند، أو مشردا خارج وطنه وبعيداً عن أهله وعشيرته، خاصة فى وسط القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، وهناك

قصص وحكايات بطولية لم يكتب عنها باستفاضة، القليل منها منشور ولكن أغلبها مازال طى أضابير التقارير البريطانية أو فى قلوب الرجال والنساء بعد أن تحولت لشبه أساطير وحكايات شعبية.

وعندما تدفقت الثروة النفطية فى هذه البلاد العربية، ورحل الاستعمار كان الوصال العربى صافياً، ومتدفقاً تدفق ثروة الأرض وحرارة قلوب الرجال، فوقف أبناء الخليج مع إخوان لهم فى العروبة والإسلام موقفاً صافياً وصلباً فى السراء والضراء دون منة أو رجاء، لم يكن ذلك بالمشاركة فى المال والثروة فقط؛ فقد كان ذلك أهون الأمور وأيسرها، بل احتضان حقيقى لكل القضايا المصيرية وعلى رأسها ميلاد المقاومة الفلسطينية، وحماية قواعد تمويلها وخطوط اتصالها، ودافعوا عن القضايا العربية التى كانت دوماً قضاياهم من على منابر المنظمات الدولية، وامتزجت فوق ذلك كله دماء جنودهم بدماء جنود

العرب على كل الجبهات العربية من حرب المقاومة فى فلسطين سنة ١٩٣٦ إلى حرب أكتوبر ١٩٧٣ . كنا جميعاً جزءاً من كل. ننبض معهم بنفس نبضات الفرح، ونتألم معهم فى أى جرح يصيب الجسد العربى. لذلك لم يكن مستغرباًعلى جيلى أن يشب وهو يملك شعوراً عربياً صافياً كما هى منابع العروبة الصافية التى دعا إليها الآباء والمؤسسون، ولم يكن مستغرباً أن يدافع جيلى عن ويمتزج بهاالقضايا العربية.

وفجأة وفى الثانى من أغسطس ١٩٩٠، تحولت البندقية العربيه التى كثيراً ما كنا نعتقد أننا نعدها للدفاع عن العرب إلى صدر العرب، إلى بلد وشعب مسالم وكانت بذلك وبكل صلافة ونكران للجميل تغتال حلم جيلى من المؤمنين بكل شعارات القومية العربية والتى ساهم فى إطلاق العديد منها النظام العراقى نفسه، فالجيوش العراقية لم تجتح الأراضى الكويتية ولم تروع سكانها

وتحرق آبار نفطها فقط ولكنها اجتاحت وعى التضام
العربى وروّعت كل مفكرى القومية والعروبة، وأحرقت ك
أحلام الأخوة والتاريخ الواحد والمصير الواحد والهدف
الواحد أيضاً. على وجه البسيطة، ينظرون بأم أعينهم إل
أى مكان قادهم ذلك الشعور الذى أحسوا بضرورته وه
تقديم المساعدة لجيش عربى جار. وكان هذا الجيش
نفسه هو الذى جار عليهم ووجه إلى صدورهم رصاصا
ربما كانوا هم الذين دفعوا ثمن شرائها.

ولأن الصدمات هى التى تفتح الوعى، فقد تكفلت هذ
الصدمة بأن تنتج لدينا وعياً جديداً، وعيا يرى أن الخط
لم يهدد فكرة العروبة فى صبيحة يوم ٢ أغسطس ٩٩٠
فقط بل إن الخطر الحقيقى كان قد بدأ قبل ذلك التاري
بكثير، كان قد بدأ فى اللحظة التى تم فيها اغتيال حر
الشعب العراقى نفسه تحت وطأة دكتاتورية صدام حسي
والطغمة الفاسدة التى حكمت العراق معه، وأن لحظ

الدفاع عن فكرة العروبة الصحيحة كان يجب أن تبدأ من لحظة اغتيال حرية الشعب العراقى ذاته وأن الوعى بضرورة المحافظة على الحرية فى كل وطن عربى هى صمام الأمان للمحافظة على فكرة العروبة الصحيحة، وعلى سلامة الوطن العربى كله.

وهكذا تأكد لنا أن ما قام به النظام العراقى فى صبيحة الثانى من أغسطس ١٩٩٠ لم يكن أكثر من أنه أسقط الأوهام والشعارات الجوفاء التى كان يرددها هو حول فكرة العروبة فحول شعارات التحرير والاستقلال والوعد بحياة أفضل للجماهير إلى مبررات للتشبث بالسلطة بغض النظر عما يعانيه الشعب العراقى المغلوب على أمره من ضنك ومعاناة لا تتصل فقط باحتياجاته المادية بل باحتياجاته الروحية لحرية القول والمشاركة فى اتخاذ القرار. إن الأفكار العربية الصحيحة لم تسقط أبداً ولكن الذى سقط هو الشعارات الجوفاء التى لا تطعم خبزاً

ولا تحقق كرامة ولا تسمح بحرية ولا تبنى مجتمعاً ولا تقيم دولة.

العروبة الحقة هى التى تحفظ الجوار وتحفظ الأهل وتقدم الرخاء الحقيقى لشعوبها وفوق ذلك كله تحفظ حرية القول والتفكير لأن مجتمع العبيد لا ينتج إلا عبيداً.

ومع سقوط الأوهام لابد من إعادة النظر فى الشعارات والممارسات، لذلك يجئ هذا الكتاب بمجموع مقالاته، وهى مقالات كان دافع الكتابة فيها البحث الجاد عن مسار جديد يؤكد الثوابت ويدين الممارسات الشاذة، مسار لا يسقط الغايات الكلية، ولكن يحرص على الوسائل الموضوعية، دون إفراط أو تفريط.

أ.د محمد الرميحى

الكويت - أغسطس ١٩٩٦

١

سقوط الأوهام!

مـالنا نحن العـرب نكاد نراوح فـى مكاننا، بينمـا الآخـرون يتقدمون، بل إن بعضـنا يحاول أن يرجع عقارب السـاعـة إلى الوراء، ويود لـو يوقف مـسـيـرة التـاريـخ. تحـدثنا عن نهـضـة عربية، منذ مطلع هذا القرن، ولكن هذه النهضـة بقيت أسـيرة العـبـارات والألفـاظ المعـادة والمكررة، وتابعنا الغـرق فـى هذا «البيات الشـتوى»، وعللنا النفس بأن هذه النهـضـة فى حـالة كمون، وهـى آتيـة لا ريب فـيهـا، ومع ذلك، وبخـلاف غـيرنا من الأمم تابعنا وبشـغف شـديد إدمان الحديث والسـجع والابتعاد عن الفعل والعمل والمعرفة.

من حولنا عالم يشيخ ويتهاوى إلى غير رجعة، وعالـم جديد يبزغ بالفعل، له قواعده ونظمه، والتاريخ من حولنا يتسـارع، والكتل الدولية القديمة تتشكل بصيغ جديدة، ويبرز فى الميدان الدولى لاعبون جـدد، برهانات جديدة وبقواعد للعبة جديدة، وبعـضـنا لايزال يحـفظ عن ظهـر قلب قـواعـد اللعـبـة التى تكسرت.

هل يمكن أن نفـيق على أن الحـرب البـاردة، بين مـا كنا نسـمـيـهمـا «جبارين» على المسرح الدولى، قد انتهت، وختم فصلها الأخير عندما سقطت مؤامرات «عصابة الثمانية» فى الاتحاد السوفييتى فى الأسبوع الأخير من شـهـر أغسطس الماضى؟(*)

(*) نشر هذا المقال فى مجلة العربى ـ العدد ٣٩٥ أكتوبر ١٩٩١

وهل يمكن أن نستوعب أن الرهانات الجديدة هى على قوى السوق والتفاعل الحر الخلاق بين الأمم والدول، لا منطق القوة ولا مركزية التخطيط الاقتصادى؟ هل يمكن أن نعرف الآن أن أداة التنمية فى المجتمع الإنسانى وعلى المستويين المحلى والدولى هى التنظيم الاقتصادى القائم على حرية التبادل السلعى ونظام المال، لا على القوى ولا على المقدس؟!

يبدو أننا حتى الآن غير قادرين على استيعاب كل هذه المتغيرات الجديدة، لأن بعضنا إما غير واع لهذه المتغيرات أو غير معترف بوجودها، وآخرين يحاولون فقط أن يخفضوا رءوسهم حتى تمر العاصفة!، والعاصفة تزمجر من حولنا بقوة وبعنف.

والنظام العربى القديم:

لنعترف أن النظام العربى القديم قد استنفد أغراضه، ربما لم يحقق أياً من الأهداف التى قام لتحقيقها، ربما كانت تلك الأهداف محدودة، ولكنه نظام عفا عليه الزمن، هو نظام اللانظام. وعندما نلقى نظرة على الواقع العربى منذ ثلاثة عقود أو أربعة نجد أن غالبية هذه السنوات كانت سنوات صراع عنيف لتحقيق أوهام مستحيلة، وهذا الصراع أخذ شكل الحروب الأهلية والحروب بين دولتين عربيتين أو أكثر، هل نذكّر بحربين أهليتين فى لبنان وفى السودان، هل نذكر

بحروب فى شمال القارة الأفريقية العربية مع الجيران العرب أو الجيران الأفارقة، هل نذكر بحروب اليمن شماله وجنوبه، هل نذكر بحرب العراق ضد إيران، تلك بعضها فقط، وهل نذكر بعملية اجتياح العراق للكويت التى أنفذت المسمار الأخير فى نعش النظام العربى القديم المتهاوى؟

المشكلة أن كثيرين حاولوا أن يدافعوا عن هذا النظام المتهاوى، أو اللانظام، وكأنه الأمثل والأبقى، وخلقوا أوهاما غير عقلانية ومعادية للواقع المعيش. والأوهام غير الأحلام، فنحن نستطيع أن نحلم بتحقيق شيء نافع لنا على المستوى الوطنى أو القومى أو الإسلامى، ولكننا لا نستطيع أن نعيش أبدا على الأوهام.

الأوهام تلك حَقَنَّا شعوبنا بها وجماهيرنا، وأرضعنا أطفالنا وطلابنا بشعاراتها حتى أصبحت قيدا علينا. اليوم يضيق الخناق على واقعنا ومستقبلنا، وهذه الأوهام عديدة:

الوحدة العربية:

لعل ذلك هو الوهم الكبير، لم يكن حلما، لأن الحلم يمكن تحقيقه. والاختلاف هنا أن الوحدة العربية التى رفعنا شعارها لم يكن لها برنامج محدد ولا هدف محدد، وراوحنا بين (التوحد الكامل) و(الخصوصية الكاملة) وأضعنا الاثنين معا. وعندما نتحدث اليوم عن الوحدة العربية فإننا نسترجع

كل تلك العثرات والأخطاء، بل والخطايا التى ارتكبت باسم الوحدة العربية، فتارة كانت اتحادا بين قطرين سرعان ما ينفصل، وتارة وحدة ثلاثية تنفصم قبل أن يجف مداد التوقيع على وثائقها، ثم جاءت محاولة ابتلاع الكويت وطمس هوية شعبها من النظام العراقى لتصدمنا جميعا، خاصة من عانى فترة الاحتلال من الكويتيين فى الداخل، ومن كوته نار التشريد والغربة وكابد اللجوء من غير هوية فى الخارج. هذه المحاولة للابتلاع أراد البعض أن يمررها ويفسرها ويفلسفها تحت شعار (الوحدة)، فكان علينا أن نطالب بتحديد واضح لهذا الشعار الذى رفعناه، أى وحدة، وكيف تقوم، وما هو برنامجها؟

هل الوحدة تعنى الإلغاء والابتلاع فى عصر يتجه فيه العالم لتدعيم حقوق الشعوب والأفراد واحترام رغباتها ووضع الإنسان وحقوقه فى موضع الأولوية المطلقة؟ وكيف يمكن لنا أن نؤمن بوحدة تغيِّب دور الناس وتحولهم إلى ديكور، وتفشل فى برامج التنمية وتخلق فى تراثنا السياسى (أدب التناقض)، فهى تدعو إلى شىء وتفعل شيئا آخر؟

إن أدب التناقض السياسى ظاهر جلى فى حياتنا العربية السياسية. ففى الوقت الذى تنص فيه كل مواثيق الجامعة العربية على «احترام سيادة الدول العربية» وعلى «عدم

التدخل فى الشئون الداخلية» وعلى «عدم جواز استخدام القوة لتسوية النزاعات بين أى دولتين من دول الجامعة» يظهر أدب التناقض السياسى فى الشعارات المرفوعة والممارسات السياسية الناتجة عن تلك الشعارات. إن الأفكار تفقد علاقتها بالواقع وكذلك اللغة.

والتنمية العربية:

اعتمدت شعارات التنمية العربية، أول ما اعتمدت على هوامش الفكر الاشتراكى العالمى، واجتهد بعضهم فى محاولة لفلسفة هذا المنحى وخلصنا إلى أن نأخذ كل ما فى النظامين العالميين إبان الحرب الباردة من مساوىء، فاعتمدت (اشتراكيتنا) على الإفقار والقمع وتهميش قطاعات واسعة من المجتمع، وعلى الإرهاب السياسى، بمعنى تكميم الأفواه ومحاولات النقد، كل ذلك تحت شعار عدم منح العدو فرصة للاستفادة من خلافاتنا. وفى المحاولات القليلة التى رفضت بعض الدول العربية فكرة الشمولية الاقتصادية، لم نتبن الاقتصاد الحر بكل عناصره، إنما مزجنا هجينا بين الفكرتين، مع الاستعاضة عن الشمولية الاقتصادية بالشمولية السياسية، فعاشت محاولات التنمية الاقتصادية فى معظم أوطاننا العربية حالات من وهم التنمية والإنتاج، وتدهور الوضع الاقتصادى العربى من سيىء إلى أسوأ، وهرب

المبـادرون واخـتـفى رأس المال المنتج، رغم كل المحـاولات للنهوض، وأصبح غنانا فقط هو فيما نقوله عن أنفسنا فى الكتب والصحف من أننا نملك مصادر ثروة هائلة من الأرض والمياه والطاقة البشرية والمعادن، وفى الأماكن القليلة من أوطاننا العربية التى استطاعت أن تسخر ثروتها الطبيعية والبشرية تسخيرا معقولا لصالح التنمية الشاملة أصبحت هذه الأوطان مستهدفة بحروب، إما أهلية أو حروب اجتياح كما حدث للكويت فى صيف ١٩٩٠، واختفى التفكير الاقتصادى الجاد لنهرب إلى تفكير وفعل سياسى له علاقة مباشرة بخطاب التناقض العربى.

وحقوق الإنسان العربى:

نتيجة لكل ذلك فقد ضاعت فى خضم هذا الصراع حقوق الإنسان العربى، وأصبح العربى المسكين من أواخر شعوب الأرض التى يحق لها التمتع بمكانة إنسانية رغم ميراثنا الحضارى الضخم، والتى من ضمنها - من المنطق النظرى - دين عظيم هو الإسلام، وحضارة عظيمة. فأصبح الإنسان على أرضنا المنكوبة أرخص سلعة لدينا فى أوطاننا العربية، يُقتل فلا يسأل عنه أحد، يؤسر فتنساه حكومته ومجتمعه، يموت من الجوع والحاجة والمرض، فلا يلتفت إليه أحد ويُحرم من العلم والعلاج.

بل إن حرمان الإنسان من حقوقه فى معظم دولنا العربية فاق ما يحرم منه الإنسان الإفريقى وفى معظم دول العالم الثالث، فهو متهم حتى تثبت براءته، فى المطارات وعلى الحدود. وفى الوقت الذى يعانى فيه الإنسان العربى كل ما يعانيه من نقص مرضى فى حقوقه العامة والإنسانية، تتصاعد أصوات «التناقض العربى» لتحدثنا فى وسائل الإعلام عن الكرامة العربية والعنفوان العربى ومقاومة الضيم، وكلها إلغاء كامل لكل الممارسات الواقعية وبناء «أوهام» على الورق عن حقوق ليس لها وجود فى الواقع، بل صار المجتمع ككل والكتل البشرية الكبيرة مندمجة فى شخص الزعيم الذى تنفخ وسائل إعلامه فى دعوى زعامة فارغة ليل نهار، بينما يعامل الإنسان فى بلاده كرقم وليس كإنسان يمكن أن يشطب فى أى وقت يقرره الزبانية.

النظام العربى والأمن القومى:

النظام العربى كما نعرفه اليوم هو على فراش الموت، والجامعة العربية جثة تحتاج إلى من يدفنها وليست مريضا يحتاج إلى علاج، فقد ولدت بعد الهزيمة العربية الأولى فى فلسطين التى ضاعت منذ ١٩٤٨ وبدأت رقعة الضياع تتسع، ونساعد نحن على اتساعها برفع أصواتنا الجهورة وضم أيدينا إلى صدورنا، نطلق الشعارات تلو الشعارات، ونفوت

الفرص تلو الفرص، ونعتقد أن العالم يخاف من الأصوات العالية والتشنجات أكثر مما يخاف من الموضوعية والعلمية. وعندما انعقد مجلس الجامعة العربية فى ١٣ أبريل (نيسان) ١٩٥٠ ليصدق على معاهدة الدفاع العربى المشترك والتعاون الاقتصادى لم ير أيٌّ من بنود تلك الاتفاقية النور ولا الاتفاقيات العربية الكثيرة التى كرت فى مسبحتها، ولم تستطع كل تلك المعاهدات والاتفاقات العربية ـ العربية توفير العناصر الأساسية اللازمة لحماية الأمن (القومى) أو التعامل مع التحديات التى واجهها العرب. أكثر من ذلك، وفى ظروف الانقسام والتربص العربى والشك المتبادل، تراجعت اعتبارات الأمن القومى إلى تأمين امتيازات لبلد على بلد آخر، وكانت فتنة الثانى من أغسطس ١٩٩٠ التى هزت العرب وقسمتهم، بعد أن كانت تجربة هذه الفتنة الأولى فى حرب إيران، وحروب لبنان.

وأثبت النظام العربى القائم عجزه وفشله للمرة الأخيرة عندما فشل بجهده الذاتى فى رفع الظلم ورد المعتدى. وتشرذم العرب، وبقى نظامهم الإقليمى فى مهب الريح.

النظام العالمى الجديد:

يتخلق اليوم نظام عالمى جديد له قواعد ونظم ومؤسسات وأهداف، ويصر العرب على التخلف عن هذا النظام. هذا

النظام الجديد له قوانين مازال بعضنا يرفضها بعنف، ولعل المفارقة أن نجد بعضنا يسارع إلى (تهنئة) الانقلابيين فى الاتحاد السوفييتى متوهما عودة النظام القديم، لعله يعزز من مواقعه وحروبه مع طواحين الهواء. وعشية حرب تحرير الكويت وما بعدها نجد أن مجموعة من المفاهيم قد ولدت، من بينها سقوط الأيديولوجيا بأشكالها المختلفة وخاصة الشمولية واندحارها وبزوغ النظام العالمى الجديد والاعتراف بالتعددية وعصر حقوق الإنسان وانتصار الليبرالية والديمقراطية على الشمولية والقطعية، وصعود مفاهيم العلم والتقنية والاتصال.

ومن هروب منغستو هايلى مريام إلى عودة غورباتشوف إلى السلطة مرورا بملحمة تحرير الكويت، تؤكد الثوابت الجديدة نفسها، وتتشكل فى الوقت نفسه التكتلات الجديدة وأبرزها التكتل الأوروبى (الوحدة الكاملة ١٩٩٢) والثقل الأمريكى ودائرتا جنوب شرق آسيا والصين، وهى عوالم تتطور بسرعة وتأخذ مكانها على المسرح الدولى . هذا النظام العالمى الجديد أكد ترابط الاجتماعى بالسياسى بالاقتصادى، فلا توحد من دون إبداع، كما يقول جاك أتالى، المستشار الموهوب للرئيس ميتران، ولا إبداع من دون ديمقراطية، الإبداع هو البديل العقلانى للعنف، ولا إبداع وديمقراطية من دون تطوير للمعارف التى تساعد البشر على حل مشكلاتهم، إنه العلم

بمعناه الواسع - لا الضيق - والعلم هو الذى ساهم مساهمة جادة فى معركة تحرير الكويت.

العلم هو الذى يحسن لنا وسائل الصحة والإنتاج ويسهل لنا المواصلات والاتصالات . والعرب بدلا من الاندفاع إلى الأمام للقبض على ناصية العلم ينكصون إلى الخلف مسترشدين بالخرافة.

أليست الخرافة أن يدعى صدام حسين أن الراعى فى البرية يستطيع أن يرى طائرة الشبح ويرميها بكف تراب؟! أليست الخرافة أن يدعى دجال مثله بنسبه إلى الرسول العظيم؟! أليست الخرافة أن نزعم تحقيق التنمية دون عمل وعلم؟! أليست الخرافة أن نؤمن بأننا يمكن أن ندحر الأعداء بالتهديد والوعيد والابتزاز والإرهاب؟!

تلك كلها خرافات وأوهام سقطت من عالم يتشكل اليوم حولنا معتمدا على العلم والتقنية.

العلم ليس هو الإبداع والابتكار فقط وإنما أيضا التطوير، لقد اخترعت الآلة البخارية خارج بريطانيا ولكنها طورت هناك، كما اخترعت التكنولوجيا الدقيقة خارج اليابان ولكنها طورت هناك، الاختراعات والعلم والتطوير هى (الزمن) الذى يعيش فيه النظام العالمى الجديد فى شقه المتقدم، ويبدو أننا كعرب مازلنا خارج ذاك (الزمن).

ويعمل النشاط الحر والليبرالية السياسية والمبادرة الفردية والنظام المالى المفتوح (كمسرّع) هائل لتلاحم الكتل الدولية فى إطار هذا النظام الجديد، إلى درجة أن كتلة مثل الاتحاد السوفييتى تتسارع فيها التغيرات بوتيرة غير مسبوقة باتجاه تبنى تلك الأدوات، ونبقى نحن العرب، فى معظمنا خارج هذا (المسرّع). والمطلوب منا نحن العرب كما يقول المفكر العربى سعد الدين إبراهيم، الخروج من (زقاق) التاريخ إلى طريق الإنسانية السريع، ولا تحتاج مواصفات سعد الدين إبراهيم للخروج إلى طريق الإنسانية السريع أكثر مما ذكرنا من سقوط الأوهام وتبنى بدائل لها.

إن الانغلاق يؤدى إلى نبذ أى جهد لاكتشاف القوانين التى تتحكم فى الظواهر الطبيعية، وهنا يقفل علينا الطريق الفسيح إلى ساحة العلم والاجتهاد العلمى، هذا الانغلاق حثت عليه أيديولوجيات تبناها بعضنا لفترة طويلة، ويكرّس هذا الموروث الثقافى الانغلاق فى صورة إهدار لقيم العمل المنتج اليدوى والذهنى، أما النكوص إلى الماضى فهو مريح لبعضنا لأنه يفتش فيه عن حلول لمشاكل اليوم فيما مر بالآخرين أمس.

الانغلاق والنكوص ظاهرتان لازمتا تيارنا الفكرى الغالب.

وفى نظرة فى العمق لتيارات فكرنا العربى المعاصر نجد أن الانغلاق والنكوص هما قطبا الاستقطاب بدلا من الانفتاح

والنظر إلى الأمام. لذلك فإننا نواجه، ليس خطر عدم الفهم الدقيق للنظام العالمى الجديد، بل ما هو أخطر من ذلك وهو تهميش العرب وتقليل إسهاماتهم فى عالم جديد يتشكل.

وسائل الاتصال:

تواترت الاجتهادات أنه منذ حرب تحرير الكويت وحتى الاستغناء عن خدمات الحزب الشيوعى السوفييتى بعد محاولة الانقلاب فى شهر أغسطس الماضى، تواترت هذه الاجتهادات على أن وسائل الاتصال لعبت دورا أساسيا فى ربط العالم والتأثير على الأحداث. فالهاتف و(التلفاكس) والكابلات والأقمار الصناعية، هذه الوسائل التى بين أيدينا اليوم، تسمح بنقل الرسومات والمخطوطات والرسائل والصور والبرامج والمعلومات الضرورية للصناعة والإنتاج والاقتصاد والسياسة، للاستهلاك العام أو الخاص. ومازال بعض أشكال هذه الأدوات يعامل (كممنوعات) فى بعض بلداننا، ولن نستطيع أن نمارس هذا الانغلاق لفترة أطول، لقد سقطت الحدود المانعة لوسائل الاتصال هذه كما سقطت (الأسرار).

وأصبحت وسائل الاتصال جزءا أساسيا من النظام الجديد الذى ما عاد الفرد فيه كماً مهملا، إن وسائل الإعلام مؤهلة لتوضيح المشاكل والتأثير على الجماهير، بل وإشعال الثورات وتغيير المجتمعات، إنها - إن صح التعبير - «الأيديولوجيا

الجديدة»، فكما أوحى علم الميكانيكا بالنظرية الليبرالية، وعلم الديناميكا الحرارية بالنظرية الماركسية، يقوم اليوم التحليل الاجتماعى على نظرية المعلوماتية، وهذه النظرية تقول إنه ما من شكل اجتماعى يمكن أن يوجد إلا إذا كانت هناك عناصر تتبادل (الاتصال) فيما بينها، وفيما بينها وبين العالم. ورغم وجود الاتصال منذ الخليقة إلا أن زمنه قد تقلص، مما يؤكد الأثر الدرامى على نتائج ذاك الاتصال.

التحدى:

إن التحدى الذى يواجهنا كعرب هو فى مقاومة هذه الأوهام وإسقاطها، ونحن لا نبتعد عن الألف الثالثة للميلاد إلا بتسع سنوات فقط، والعالم من حولنا ـ معظم العالم ـ يستعد للعبور بمرح إلى المجتمع التجارى الديمقراطى المفتوح، بينما تكبر الهوة يوميا بيننا وبين ذاك العالم.

لقد علمنا التاريخ أن الأمم تتقدم وتقدم الجديد نتيجة رد فعل ثقافى على تحد جغرافى أو عجز مادى، وليس هناك أكبر ولا أعظم من التحدى الذى يواجهنا، فهو تحد داخلى فى التخلص من النظام المريض القديم وإسقاط كل تلك الشعارات، والتحكم بإرادة التغيير بشكل فعال وإيجابى، ومن هنا فإن (التغيير) المطلوب هو أعلى ما يجب أن نضعه على جدول أعمالنا.

٢

الطريق إلى السلام

أخطر النزاعات الإقليمية فى العالم هو النزاع العربى الإسرائيلى الذى استمر حتى الآن نَشِطاً ما يقارب نصف قرن من الزمن، وكانت له جذوره التاريخية قبل ذلك بما يساوى نصف قرن آخر.

أخطر النزاعات لأنه لم يقتصر على حروب عديدة بين إسرائيل وجيرانها العرب فقط - على الرغمِ من المعاناة والألم والخسائر البشرية والمادية التى تخلفها الحروب، وقد خلفت بالفعل من الألم الإنسانى ما ينوء شعب واحد بحمله - بل لأن تأثيره امتد فوق ذلك أيضا، ليؤثر فى البنية السياسية والاجتماعية والاقتصادية لبلدان قريبة وبعيدة من النزاع، فسقطت دول وتلاشت أنظمة وظهرت أنظمة جديدة وتعددت الاجتهادات وصُرفت بلايين الدولارات، وقُتل أو استشهد الآلاف من العرب وغيرهم فى أثناء تصاعد وتائر هذا الصراع، الذى اختلف فيه أهله بقدر ما اختلف عليه الغرباء. وامتد تأثيره ليدخل كعامل من عوامل التكوين الثقافى والاجتماعى فى العقل العربى طيلة أكثر من نصف قرن، كما تعدى هذا التأثير ليضغط على أفكار وتوجهات ويعيد صياغة رؤى ويسهم فى تكوين شرائح وقوى اجتماعية برزت أو تلاشت فى عديد من المجتمعات العربية.

وعند إيجاد بداية جسر لتسوية هذا النزاع فإن مستقبل

العلاقات الدولية، سواء أكانت بين العرب وغيرهم أو بين العرب وإسرائيل، أو بين إسرائيل وغيرها من الدول، سوف يتغير تغيرا جذريا لم يكن متوقعا أو محتملا حتى لسنوات قليلة ماضية، وستشهد المنطقة عصرا آخر مختلفا عن عصر نصف القرن الماضى.

وحيث إن النقلات التاريخية لا تأتى من فراغ فإن هناك أسبابا عديدة ومداخلات كثيرة أدت إلى الوصول إلى بوابة السلام فى المؤتمر الدولى الذى انعقد فى مدريد العاصمة الإسبانية التاريخية.

ومن مصادفات القدر أن تكون إسبانيا، التى شهدت أرضها منذ خمسة قرون مضت اضطهاد العرب المسلمين واليهود على حد سواء، بعد أن شهدت قمة التعاون الحضارى الإسلامى - اليهودى - المسيحى الذى استمر لعدة قرون، أن تكون من جديد ملتقى تاريخيا للعرب واليهود فى ظروف أخرى ولأسباب أخرى مختلفة.

قلنا إن هناك أسبابا ومداخلات عديدة أوصلت الأطراف المعنية بتسوية النزاع إلى مؤتمر السلام فى مدريد من بينها ما أعقب حرب أكتوبر ١٩٧٣ من خطوات سياسية قادتها وقتها مصر - السادات، فقد وجدت مصر بقيادة الرئيس محمد أنور السادات أن استمرار النزاع العربى الإسرائيلى

فى الظروف والمعطيات التاريخية السائدة غير مقبول أو ممكن، ونظرت إلى النصر النسبى الذى حققته الجيوش العربية المتحالفة فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ على أنه مرحلة جديدة يجب الاستفادة منها، حيث برهنت تلك الحرب على أن القوة الإسرائيلية غير مطلقة. وحيث إن العودة إلى حلقة جديدة من الصراع المسلح تعنى فيما تعنيه وضع المصادر الاقتصادية والبشرية والتنموية الشحيحة لبلدان المنطقة فى حالة حرب طويلة تستنزف البقية الباقية من احتمالات تمويل التنمية، وفى نفس الوقت لن يحقق استمرار الصراع المسلح فى المدى الزمنى المعقول أية نتائج إيجابية.

وقد انقسم العالم العربى بعد تلك الخطوات الأولى، فى طريق السلام المصرى/ الإسرائيلى، إلى قسمين : أحدهما مؤيد لتلك الخطوات عَالِم بدوافعها ومتفهم لتلك الدوافع، والقسم الآخر رافض لتلك الخطوات، مسبباً رفضهُ بأسباب كثيرة بعضها عاطفى.

إلا أن التاريخ اتخذ مجراه وجرت مياه كثيرة فى النهر العربى والدولى، فكانت للمفاوضات المصرية/ الإسرائيلية - رغم عسرها - نتائج ملموسة استطاعت مصر فى نهايتها أن تعيد شبه جزيرة سيناء إلى السيادة المصرية وتحررها من الاحتلال الإسرائيلى، ولم يكن ذاك الطريق سهلا أو ميسورا،

فقد كان على مصر أن تحارب باتجاهين: الأول هو ضد العناد والتسويف الإسرائيلي، وكانت قضية طابا أعلى مراحله وأشدها صعوبة. والاتجاه الثانى مع إخوة لها من العرب لم يستطيعوا وقتها فهم المسببات الموضوعية التى جعلت مصر تتخذ تلك الخطوات.

إلا أن نموذج المفاوضات المصرية/ الإسرائيلية ونتائجه وما تمخض عنه من دروس كان أحد الدوافع التى أدت فى النهاية لجلوس العرب وإسرائيل إلى مائدة المفاوضات فى مدريد فى الشهر الماضى . وكان أحد أهم الدروس المصرية هو أن السلام يعنى إنهاء حالة الحرب والتفرغ لحل مشكلات البناء والتنمية، ولا يعنى بالضرورة قبول التأثير الإسرائيلى أو القطيعة مع العرب. ومن الأسباب الأخرى التى قادت إلى مؤتمر السلام فى مدريد ما حدث فى السنوات الخمس الأخيرة فى الاتحاد السوفييتى، فقد أدت الإصلاحات السياسية التى تمت فى الاتحاد السوفييتى وفى أقطار أوروبا الشرقية إلى انحسار الالتزام السوفييتى السابق بقضايا الشرق الأوسط، وقد تصاعد هذا الالتزام لأسباب مصلحية وأيديولوجية فى إطار الحرب الباردة منذ صفقة السلاح المصرية/ التشيكية فى وسط الخمسينيات، مرورا بصفقات السلاح المباشرة بين الاتحاد السوفييتى وأقطار عربية محيطة

بإسرائيل وانتهاءً بالدعم العسكرى والسياسى المباشر.

إلا أن ما قام به جورباتشوف فى الاتحاد السوفييتى من إصلاحات سياسية واقتصادية وما رافقه وتلاه من سقوط «النظام القديم»؛ وهو التغير الجذرى فى حكومات دول أوروبا الشرقية، وقيام ألمانيا الموحدة، ثم سقوط المحاولة الأخيرة لوقف عجلة الإصلاحات عندما فشل الانقلاب فى موسكو فى أغسطس الماضى، كل ذلك أدى إلى تأكيد التيار الزاحف فى عالمنا الجديد وهو أنه لا عودة إلى الماضى، وليس من مصلحة العالم أن ينقسم إلى قسمين متعارضين لهدف التعارض.

وقد قابل ذلك من طرف آخر زيادة فى الالتزامات السياسية للولايات المتحدة. ومن الغريب أنه لسنوات قليلة مضت كان المحللون السياسيون يعتقدون أن عهد رونالد ريجان هو بمثابة نهاية عصر، ولكن تلك النهاية كان يُنظر إليها على أنها تدهور فى قوة الولايات المتحدة. وقد تناولت الصحافة الأمريكية وعدد من الكتاب والمفكرين الأمريكيين مظاهر هذا التدهور . والإشارة هنا يمكن أن تتجه إلى كتابين أحدهما كتاب إلين بلوم «انغلاق العقل الأمريكى» والثانى لبول كيندى «صعود وسقوط القوى العظمى» ، ولكن جاءت الوقائع لتؤكد نهاية عصر وبداية عصر جديد ولكنه عصر على عكس ما هو

متوقع، عصر جاء بالولايات المتحدة الأمريكية لتقود العالم بلا منازع ولكن بطريقة جديدة ومختلفة.

الفلسفة الجديدة:

يطيب للبعض أن يركن للمقارنة بين الحاضر والماضى فيتحدث مثلا عن واقع العلاقات مع الغرب مقارناً لها مع الموقف الصليبى التاريخى بالموقف اليوم، أو بمقارنة موقف الغرب اليوم بالموقف الاستعمارى فى السابق، وهى مقارنة غير تاريخية، فالتحولات الكبرى التى حدثت فى أوروبا وأمريكا بعد «العصر الاستعمارى»، وهى تحولات هيكلية فى الداخل وفى الخارج، هذه التحولات تعود فى جوهرها إلى حركة ديمقراطية واسعة وعميقة تطورت ونضجت فى النصف الثانى من القرن العشرين، وجعلت من اتصال الغرب فى مرحلتنا التاريخية مع الشرق الأوسط ليس اتصالا استعماريا بل اتصالا تنويريا يعتمد على قاعدة حقوق الإنسان والديمقراطية وتوازن المصالح. وبالتالى فإننا أمام تشكيلة تاريخية جديدة تختلف عن تلك التى أوجدت الاستعمار فى العصور الحديثة . وصعوبة اكتشاف هذا التحول لدى الكثيرين اليوم هو الذى يجعلهم لا يستطيعون فهم ما يجرى حولهم ويقفون مشدوهين أمام تسارع الأحداث.

وليس باليسير اكتشاف التحول فى العلاقة الجديدة بين

الغرب والشرق إلا بسبر أغوار المجتمعات الغربية اليوم، كيف تفكر وكيف تتفاعل، وفهم الأبعاد التاريخية لهذا التحول من السيطرة إلى السلم والتعاون.

ولقد ساهم أخيرا بعض العرب فى الوصول إلى مائدة المفاوضات فى مدريد عن طريق فهمهم الصحيح للتحولات الكبرى الجارية حولنا وفى العالم. كما لايزال البعض من العرب ينظرون من خلال المنظار القديم أو حتى الأقدم، وهم مشدوهون بما يحدث، نتيجة عقود من التثقيف الخاطىء والممارسات الخاطئة والمزايدات الكلامية.

مجموعة المداخلات التى وصفناها سابقا هى التى مهدت للوصول إلى مقاعد التفاوض العربى ـ الإسرائيلى فى مدريد.

العالم مع السلام :

الدعوة لمؤتمر السلام فى مدريد كانت دعوة مشتركة من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى لكل من سوريا ومصر ولبنان والفلسطينيين والأردن وإسرائيل. كما مثلت الأمم المتحدة والسوق الأوروبية المشتركة ومجلس التعاون الخليجى ومجلس التعاون المغاربى كمراقبين. الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى يعتقدان أن (هناك فرصة تاريخية من أجل دفع عجلة السلام فى منطقة الشرق الأوسط). توجيه الدعوة على هذا المستوى وبهذه الأهمية، وحضور الرجل الأول فى كل من

الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة لافتتاح المؤتمر ورعايته يعنى ـ ضمن ما يعنيه ـ تصميم العالم على هجر الصراع والبدء فى مرحلة الوفاق

وقد كانت إسرائيل منذ نشوئها تدّعى أنها (تتمنى) أن تتم مفاوضات مباشرة بينها وبين العرب، وكان العرب دائما (يتمنعون) فى الظاهر عن إجراء هذه المفاوضات، وعندما أوشكت هذه المفاوضات أن تحدث، كاد العكس تماما أن يحدث أيضا، فالعرب يقبلون وإسرائيل تضع شروطا قاسية، ولكن المجتمع الدولى كان قد قرر وانتهى الأمر. المحادثات المباشرة مبنية على قرارى مجلس الأمن الدولى ٢٤٢ و٣٣٨. القرار ٢٤٢ ـ الذى أصبح أشهر قرار فى تاريخ المنظمة الدولية، وكذلك فى تاريخ منطقة الشرق الأوسط المضطربة صدر فى سنة ١٩٦٧ بعد حرب يونيو (حزيران) من ذلك العام بين العرب وإسرائيل، وقتها احتلت إسرائيل أرضا عربية تعادل ثلاثة أضعاف مساحتها قبل تلك الحرب المشئومة، وقد كان المؤمل أن تتقلص مساحة إسرائيل عندما بدأت الحرب فزادت هذه المساحة بعد أن صمتت المدافع. القرار يطالب (بانسحاب القوات المسلحة الإسرائيلية من أرض محتلة) وكذلك يؤمن حقوق (كل الدول فى المنطقة أن تعيش بسلام فى حدود آمنة ومعترف بها).

العرب والإسرائيليون بعد ذلك لم يصلوا إلى اتفاق لتفسير ذاك القرار، خاصة فى نقطته الأولى، فنحن اعتبرنا معنى ذلك القرار أنه يعنى (كل الأراضى المحتلة) فى الحرب، وإسرائيل تصر على أنها (بعض الأراضى). المضحك أن مفهوم (كل) و(بعض) الأراضى تغير أيضا مع الزمن، فعندما طُلِب من الحكومة الإسرائيلية اليمينية تحديد ما تعنيه بمفهومها (بعض الأراضى) ردت أن (بعض) تعنى تلك الأراضى التى قد أرجعت إلى العرب وهى شبه جزيرة سيناء!

قرار مجلس الأمن ٣٣٨ اتخذ فى أثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣، وطالب هذا القرار بوقف إطلاق النار - وقتها - وبتطبيق قرار٢٤٢.

قرارات أخرى لمجلس الأمن خاصة بالنزاع العربى الإسرائيلى يعود تاريخها إلى الأربعينيات، فهناك على سبيل المثال قرار مجلس الأمن رقم ١٨١ الذى صدر فى نوفمبر ١٩٤٧، والذى وافق على خطة الأمم المتحدة لتقسيم فلسطين إلى دولتين مستقلتين عربية ويهودية، والذى نشير إليه دائما فى أدبياتنا بـ «قرار التقسيم».

وكذلك قرار مجلس الأمن رقم ٤٢٥ الذى أصدره المجلس فى مارس ١٩٧٨ والذى يطالب إسرائيل بوقف العمليات العسكرية ضد (الأراضى اللبنانية، وأن تسحب قواتها

العسكرية منها). تطبيق هذه القرارات من جانب الشرعية الدولية هو حقل اختبار لحالة صراع نموذجية بها من التعقيد والتداخل الكثير، كما يقاس بها مدى قدرة النظام العالمى الجديد ـ من خلال دور الأمم المتحدة وقيادة الولايات المتحدة ـ على النجاح أو الفشل.

النظام الدولى الجديد مبنى على قواعد محددة منها التطبيق الواضح والأكيد لقرارات اتخذها مجلس الأمن، وهذه القرارات مبنية بدورها على حقائق قانونية وتاريخية.

من هذه الحقائق عدم جواز الاحتفاظ بالأراضى التى اغتصبت عنوة بقوة السلاح، فالنظام الدولى يعطى من الحرمات للحدود الدولية ما لم يتوافر فى السابق. فالنظام الدولى السابق تغاضى مثلا، وبعضه اعترف بابتلاع جوزيف ستالين لدول البلطيق، كما كرس ذاك النظام منطقتى النفوذ السوفييتية والأمريكية فى كوريا على جانبى خط العرض ٣٨° كدولتين مستقلتين، ودخل ذاك النظام فى حرب عندما جرت محاولة لتعديل ذاك التقسيم فى كوريا فى سنة ١٩٥٠، كما تغاضى ذاك النظام عن دخول القوات السوفييتية إلى أفغانستان، بل وعدّ ذلك أمرا واقعا.

أما النظام العالمى الجديد فهو غير ذلك، لا يوافق على اختراق الحدود الدولية بقوة السلاح، حتى جمهوريات

البلطيق التى مضى على (دمجها) زمن طويل استطاعت أن تحصل على استقلالها، وكان المثال الأوفى والأوضح فى النظام الجديد رفضه القاطع لمغامرة صدام حسين ونظام بغداد عندما اجتاحت جحافله المدججة بالسلاح بلدا صغيرا وجارا مسالما هو الكويت.

الكويت وحل النزاع :

لن يستطيع كاتب أو محلل أو رجل تاريخ أو سياسة يتعرض لموضوع الصراع العربى الإسرائيلى منذ الآن وفى المستقبل أن يتجاهل دور الكويت وما حل بها وكيف عالجت الشرعية الدولية كارثة احتلالها وباختصار (مثالها) فى الموقف الدولى تجاه النزاع العربى الإسرائيلى.

لقد مهدت دماء شهداء الكويت ودموع نسائها الثكالى وحسرة شبابها وعذابات «شيبانها» طريق السلام فى الشرق الأوسط.

فقد امتحنت الشرعية الدولية فى موضوع الكويت كما لم تُمتحن قط من قبل، فعندما كان العالم يتجمع باتجاه إقامة نظام جديد، جاءت مغامرة نظام بغداد الآثمة لتسرع بهذا التجمع:

أولا: كى يقف أمام صلف نظام بغداد وعنته.

ثانيا: ليتولى تطبيق المبادىء الجديدة على جميع الدول بما فيها إسرائيل.

ومن المفارقات المؤلمة أن تكون الكويت هى أحد البلدان الرائدة فى دعم نضال الفلسطينيين وقضايا العرب المصيرية، فقد وقفت بقوة مع حركات التحرير العربية فى كل مكان من الجزائر إلى عدن، وكانت قضية الكويت الوحيدة فى المحافل الدولية هى القضية الفلسطينية، وقد تعاطف أهل الكويت مع حركة الانتفاضة الفلسطينية إلى أبعد الحدود فمدوها ليس بالدعم المعنوى والمادى فحسب، بل الإعلامى والبشرى أيضا.

وكان يدفعها فى كل ذلك انتماؤها العربى والإسلامى وإيمانها بالحق ورفع ميزان العدالة.

وما قامت به الدبلوماسية الكويتية فى هذا المقام يقصر عنه الحصر والوصف، فقد كانت سفارات الكويت فى الخارج لها قضية واحدة هى القضية الفلسطينية، وتعرضت من جراء هذا الموقف إلى ضغوط ومضايقات تحملتها بفخر دون مِنَّة، لأنها آمنت - كما أمن كل المخلصين من العرب - أن الموضوع الفلسطينى هو معيار الحق والعدل والسلام.

ومن المؤلم والمحزن أنه بعد كل تلك المواقف الصلبة والواضحة من الكويت وأبناء الخليج تأتى قيادة منظمة التحرير الفلسطينية كى تساعد وتدعو وتثير كل قواها السياسية والإعلامية وكوادرها النشيطة مع الباطل ومع نظام صدام حسين الذى عامل العراقيين معاملة دون مستوى

البشـر ثم انقض على الكويت والكويتيين ورَوَّع أمنـهم وشتت جمعهم وقتل رجالهم واختطف نساءهم.

وكان موقف قيادة منظمة التحرير الفلسطينية من هذا الأمر الجلل فجيعة ما بعدها فجيعة، فقد وقفت ضد كل ما طالبت وتطالب به سياسيا وإعلاميا لنصرة قضيتها، وبررت من الأعمال العراقية فى الكويت ما كنا وكانت تشجبه، من أعمال مثيلة تقوم بها إسرائيل فى الأرض العربية المحتلة، وكان موقف هذه القيادات هو قمة الاستهتار وقصر النظر عندما ضربت بالمبادىء العظيمة عرض الحائط.

ومع ذلك كله فقد فرقت الكويت بين المنظمة وقيادتها وبين الأخيرة والشعب الفلسطينى، ووقفت رغم جراحها وألمها وحزنها على أبناء بررة غيّبهم النظام العراقى فى سجونه، وقفت على المنابر العالمية تطالب بتحقيق العدالة للفلسطينيين، لأن العدالة لا تتجزأ.

الاستقرار:

إن الاستقرار هو حجر الزاوية فى النظام العالمى الجديد، والاستقرار مبنى على العدل، فإن فُقد العدل، فُقد الاستقرار. والتعايش بين الشعوب لابد أن يرسخ على قاعدة احترام الآخرين، والدروس التى خرج بها العالم من حرب تحرير الكويت من براثن نظام دكتاتورى بشع تصلح أن تُعمم. من

هذه الدروس أن القوة العمياء لا تُحِقُّ حقاً ولا تديم باطلا، وأن استقلال الدول والشعوب هو أمر مقدس يجب ألا يتطاول عليه أحد لأى سبب من الأسباب، وكذلك فإن حق الشعوب فى العيش فى أمان فى ظل احترام لحقوق الإنسان والكرامة الإنسانية هو أهم معالم طريق النظام الدولى الجديد.

ومهما كان طريق السلام طويلا وشاقا، فإنه يستحق كل العناء الذى يُبذل من أجله، لأن الخيارات الأخرى محدودة ونتائجها غير مضمونة وطريقها وعر ملىء بالألم والجثث والتعصب والقهر والفقر، وليس أمامنا خيار إلا طريق السلام.

٣

سنة التحرير..
وسنة البناء
فبراير ١٩٩١
فبراير ١٩٩٢

من لم يخض التجربة ويعرف الألم لا يستطيع أن يقدر، على وجه الدقة، الفرحة الكبرى التى تستقبلها الكويت هذا الشهر مواطنين ومقيمين، شعبا وشرعية، كبارا وصغارا، بمناسبة ذكرى حرب التحرير وعودة الكويت إلى أهلها، وعيدها الوطنى الواحد والثلاثين. ففى مثل هذا الشهر من العام الماضى، وعلى وجه التحديد فى السادس والعشرين منه، رفع علم الكويت الوطنى على أرض الكويت، وعادت الكويت كما كانت حرة، بعد أن رسفت تحت ظلم الاحتلال لفترة زمنية تقارب السبعة أشهر تعد لدى الكويتيين وكأنها سنون طوال.

لا يعرف فرحة عودة الأوطان إلا من ابتلى بفقد الوطن، وحتى لفترة طرفة عين . ولقد ابتليت الكويت وأهلها فى تلك الشهور السوداء بأفظع وأقسى ما يبتلى به شعب، لقد ظن النظام العراقى أن الباطل يمكن أن يصبح حقا بمجرد أن تنفخ أبواقه الدعائية بذلك، أو بمجرد أن يجد له مناصرين هنا وهناك يرفعون راية الظلم ويهتفون للغاصب، فجاء فى ليل أسود بجحافل كثيرة العدد والعدة تحت دعاوى عديدة ليحتل فى نهاية الأمر دولة الكويت الحرة المستقلة، ويطلق دعاواه واحدة تلو الأخرى للتمويه على مقاصده الشريرة. وكان النظام العراقى يعتقد أنه ـ عبر حملاته النفسية ـ يستطيع ترهيب العالم وتخويفه، كما اعتقد أنه ـ عبر المنتفعين بمغانمه

والصاغين لوعوده - يستطيع تحويل الرأى العام إلى صالحه، بل واعتقد أنه - عبر الاحتفاظ برهائن بشرية - يهدد العالم والشرعية الدولية، بل ويكف يدها عن أى فعل، وأخرج الحاوى كل ما فى جعبته من التهديد والتخويف والإرهاب، وقد فشلت كلها واحدة تلو الأخرى، وتحقق النصر المبين.

وعندما نتذكر تلك الأيام السوداء فإن العالم يقف مشدوها أمام أعمال نظام إرهابى استخدم أساليب الإرهاب بكل صورها وأشكالها دون رادع.

ولكن المأساة كانت تتجمع خيوطها فى داخل الكويت المنكوبة بالاحتلال.

لقد فرض ذاك الاحتلال على الكويت والكويتيين تعتيما إعلامياً بل لقد قال رئيسه دون حياء لإحدى شبكات التليفزيون العالمى: أنا لا أريدكم أن تذهبوا إلى الكويت لأنها ساحة معركة!!

وبالفعل كانت ساحة معركة، ولكن من نوع آخر، كانت ساحة معركة مقاومة شديدة الإيمان بالله وبوطنها الحر المستقل وبشرعيتها التى ارتضتها، فنظم الكويتيون أنفسهم أحسن تنظيم وتعاونوا أحسن تعاون.

بين المسجد والجمعية التعاونية :

نظم الكويتيون أنفسهم فى مناطق سكناهم بعفوية رائعة

لفتت نظر العدو قبل الصديق، وكان محور ذاك التنظيم الفذ، المسجد والجمعية التعاونية المحلية.

ففى المساجد تجمع الكويتيون للصلاة خمس مرات فى اليوم يتبادلون بعدها الأفكار والآراء والأخبار وخطط العمل.

ويطمئنون بعضهم على بعض، ويتفقدون المريض والمحتاج ويشدون أزر بعضهم بعضا ويؤكدون إيمانهم بالنصر بفضل الله وبفضل تكاتفهم ووقوف الخيرين مع قضيتهم فى كل مكان.

وأخذت الجمعية التعاونية المحلية دورا فى التنظيم المعاشى لأهل الحى، فتدفق إليها الشباب يحملون البضائع إلى المنازل، ويقسمون ما لديهم من مئونة على المحتاجين ويوزعون الأدوية على المرضى، يخبزون ويوزعون الماء ويطمسون أرقام الشوارع وأسماءها ويحملون الموتى إلى المقابر، وهم قبل ذلك وبعده يتناقلون الأخبار التى تأتيهم من الخارج ويدعمون روح المقاومة السلبية والإيجابية لدى بعضهم البعض.

من هذا التنظيم التلقائى العفوى الرائع نمت روح المقاومة الكويتية الصلبة للمحتل، ومنها أيضا خرجت كتائب المقاومة العسكرية والمعلوماتية، فكانت الأولى تقوم بالمقاومة الإيجابية، تتبع جنود المحتل وتصطادهم فرادى وجماعات، ونشط آخرون فى كتابة البيانات وتوزيعها من أجل المعلومات وشد الأزر والتواصى بالصبر والحيطة.

دعم كل ذلك خطة منسقة تولتها الشرعية الكويتية وأولو الأمر فى الطائف، ففتحت قنوات الإمداد المالى والمعنوى للأهل الرازحين تحت الاحتلال، وتكونت شبكة متسقة لتوزيع المال من الداخل والخارج لتصليب عود المقاومة ودعمها.

وصمدت حكومة الكويت فى الطائف بقيادة أمير الكويت الشيخ جابر الأحمد الصباح، وولى العهد رئيس مجلس الوزراء الشيخ سعد العبد الله السالم الصباح ومعهم كوكبة خيِّرة من إخوانهم تمتد سلسلتها من الطائف إلى الكويت، عبر مجموعات من الكويتيين والكويتيات البررة الذين آلوا على أنفسهم متابعة دعم مواطنيهم، مهما كانت المخاطرة عظيمة والتضحية شاملة، فالشأن جلل ولا مناص من المقاومة.

وتدفق الكويتيون فى أماكن وجودهم خارج وطنهم من كان منهم هناك، ففاجأه الغزو الأسود وأبعده عن داره وأهله ومحبيه، أو من فرض عليه جنود الغزو وطغيانه العسكرى أن يهجر بلده مضطرا لسبب أو لآخر على رأسه الإرهاب المنظم.

وكم كان الشعب الكويتى عظيما حيث تحمل أعباء جساما عجزت عن حملها شعوب أكثر منه عددا وعدة، تعرضت لأقل مما تعرض له من ظلم وعدوان.

تدفق الرجال والشباب والنساء فى المهاجر المؤقتة لينظموا أنفسهم أفضل تنظيم، وظهرت لجان (الكويت حرة) فى لندن

والرياض والمنامة والقاهرة وواشنطن والدوحة وأبوظبى ودمشق وأماكن أخرى عديدة، كلها تنظم فى سلسلة متراصة متكاتفة وعلى لسانها هتاف واحد: «الكويت حرة» ـ «لا بديل للشرعية» ـ و«لا قبول أو تنازل للمحتل ولا حتى عن بوصة مربعة واحدة من الأرض»، وقد ضرب أروع مثال للتضحية والمقاومة بعد تحرير الكويت، فتوارى أولئك الشجعان الذين كانوا العمود الفقرى للمقاومة، وتواروا وراء صنيعهم العظيم دون فخر ولا منة، وانخرطوا فى أعمالهم العادية دون ضجيج.

وذلك فعل إنسانى نادر يضع التضحية ونكران الذات للوطن فى قمة أولوياته.

الثقة بالنصر :

وكانت القيادة الشرعية الكويتية مؤمنة بتحقيق النصر، واثقة من قدرتها وشعبها على المقاومة، متأكدة من عودة الأهل والأحباب إلى الالتئام فى يوم موعود وساعة محددة هى يوم النصر وساعة رفع العلم الكويتى وعودة الشرعية، معتمدة على أشقاء وأصدقاء صدقوا الوعد وصمموا على المساندة، فبدأت الشرعية الكويتية منذ الساعات الأولى للاحتلال فى التنظيم والاتصال وتهيئة الأمور السياسية والاقتصادية للشعب الكويتى، وكان أن قدمت المملكة العربية السعودية ودول الخليج ومصر وسوريا الدعم الواضح الأكيد لقضية

الحق منذ اللحظات الأولى، وحملت الأولى عبء التصدى الإيجابى، فعلى أرضها تجمع العالم بقواته الدولية، ومن خلالها سمع العالم صوت الشجب والرفض، وتكاتفت الجهود الخيرة كلها لتدفع الظلم والظلمات عن أرض وشعب الكويت.

وقام أمير الكويت بعد أقل من شهرين من الاحتلال بجولة واسعة فى أنحاء العالم بدأها مخاطبا العالم كله على أعلى منبر دولى فى الأمم المتحدة، شارحا هول المصاب ووحشية المعتدى وفداحة العمل الذى قام به، وخروجه على القانون الدولى والمعاهدات الإقليمية والقيم السياسية والأخلاقية والدينية.

وانتقل أمير الكويت إلى لندن وباريس ثم إلى بكين، مخاطبا العالم وضميره الحى، شارحا بكل التفاصيل والوثائق قضية الكويت.

كما قام ولى العهد رئيس مجلس الوزراء الشيخ سعد العبد الله السالم الصباح بجولة عربية مخاطبا الإخوة العرب طالبا تفهمهم وعونهم.

ثم استقر الرأى بعد ذلك ـ ومن أجل إيصال صوت الشعب الكويتى إلى العالم ـ على دعوة قطاع واسع من الكويتيين فى الخارج لمؤتمر شعبى موسع تضافرت فيه الجهود باتجاهين: الأول رفض قاطع للاحتلال ونتائجه ودعم للشرعية والشعب.

والاتجاه الثانى هو التصميم على بناء دولة ومجتمع حديث بعد التحرير قوامه العقيدة السمحاء والعروبة الصافية وحقوق الإنسان الحر يُرفع فيه ميزان العدل والمساواة والشورى، وكان ذاك التجمع الكبير والديمقراطى حجر زاوية فى انطلاقة شعبية جديدة، فطافت اللجان الشعبية الكويتية المنبثقة من ذاك المؤتمر بدول عربية وأجنبية، على الرغم من أن بعض هذه الدول كان له مواقف سلبية تجاه القضية الكويتية برمتها، ولكن كانت الحكمة تدعو للمحاولة الجادة فى المحاورة على المستوى الشعبى لتحديد المواقف وجلى الغموض.

ولم يكن الموقف الرسمى لهذه الدول - خاصة العربية - مثار عقبة فى عدم الإقدام على الحوار الشعبى.

هكذا كانت حكمة الشعب الكويتى بعيدة النظر. ولقد استقبلت هذه الوفود استقبالا حارا فى بعض البلدان، وفى بعضها الآخر ببرود يصل أحيانا إلى العداء والاستفزاز، إلا أن النهايات حققت القول المأثور أن للباطل جولة وللحق جولات.

التحرير :

لقد لاحت بشائر النصر بدءا من الطلقة الأولى فى الحرب الجوية - وبدأ الحق يأخذ طريقه ليبدد الظلام، وتكللت جهود العالم فى الوقوف أمام شرعية الغاب التى أرادها النظام

العراقى أن تسود، ووجه أمير البلاد كلمة إلى الشعب الكويتى، قال فيها (لقد كنا نعتز ونفخر بكم لما عانيتهم وتعانون من قتل وتعذيب واعتقال وتشريد من المحتل البغيض، ونحن جميعا نعيش معكم صباح مساء فى محنتكم ونشعر بما تشعرون، وبمشيئة الله فقد بدأت عملية تحرير أرضنا العزيزة من المعتدين الغاصبين، وسنلتقى إن شاء الله فى وطننا العزيز ليلتئم شمل الكويتيين فى وطنهم الكويت).

وهكذا كان، فبعد السادس والعشرين من فبراير الماضى عادت الشرعية الكويتية مكللة بالنصر المبين، عادت إلى أرض الوطن، وعاد من كان خارج الكويت ليلتقى بالأحبة داخله، ولكن العودة كانت مؤلمة وحزينة، فقد دمر العدو البنى التحتية وحرق آبار النفط وسرق كل ما وقع تحت يده من منقولات.

ولم يكن التحرير ماديا، بمعنى دحر آلة العدو العسكرية وطرد جحافله إلى خارج أرض الكويت فقط، بل كان معنويا أيضا، فقد انتصر المعدن الأصيل لشعب الكويت الذى قاسى أتون الحرب الملتهبة وآلامها، فقد كان كيانه كله محورا لتلك الحرب.

الأشهر القليلة اللاحقة للتحرير كانت أشهرا عسرة، زاغت فيها بعض الأبصار هلعا وخوفا وتحوطا، إلا أن الكويت وأهلها كانوا مصممين على بدء مسيرة الإعمار بكل قوة،

وكانت قائمة الأولويات عديدة تبدأ عند توفير الخبز والماء، ولا تنتهى عند مشكلة إطفاء حوالى سبعمائة بئر فقط مشتعلة، تحيل نهار الكويت إلى ليل دامس، مرورا بمئات القضايا التى تحتاج إلى متابعة وحل.

وظهر معدن الشعب الكويتى من جديد وتصميم قيادته ليس إبان المحنة فقط بل فى مرحلة إعادة البناء والتصدى للمشكلات الكبرى التى واجهته معيشيا واقتصاديا.

وعندما تصمم قيادة مستنيرة وشعب قوى الشكيمة يكون التصدى لتحدى كل العقبات الضخمة أكبر وأعظم.

وكانت المهمة شاقة والآلام عميقة، كما كانت الآمال عريضة فى بناء مجتمع جديد متكافل.

وعادت الحياة الطبيعية من جديد إلى أرض الكويت، وفى وقت أقل بكثير مما قدر له حتى الخبراء، وكان رمز العودة والانتصار الداخلى هو إطفاء آبار النفط، التى شاركت فى عملياتها دول عديدة، بما فيها فريق كويتى مجاهد.

وكان يوم إطفاء آخر آبار النفط المحترقة، فى الأسبوع الأول من نوفمبر، هو يوم انتصار جديد للكويت وعلامة فارقة وواضحة لروح الاستجابة والتصميم التى تمسك بها الشعب وكرت سبحة المنجزات فى سرعة قياسية فى الداخل والخارج إنجازا بعد إنجاز.

الرهائن:

رغم إنجاز التحرير والتعمير فإن الكويت - تأسيسا على تراثها القديم وهو العناية بالإنسان سواء أكان فردا أم مجموعة، والتزاما بمبادىء دينية وأخلاقية سامية - مازالت تحمل هاجس الرهائن الذين احتجزهم نظام بغداد، وقبض عليهم ظلما وعدوانا وهم فى وطنهم ونقلهم عنوة إلى سجونه ومعتقلاته، لذلك فإنك اليوم فى الكويت لا تجد شارعا أو مسكنا أو محلا عاما أو خاصا إلا وعليه إشارة لهؤلاء الرهائن الكويتيين عند نظام بغداد، وتسمع دعاء (اللهم فك قيد أسرانا) على كل شفة.

وقد طاف أمير الكويت بالعالم مصحوبا ببعض أبناء الأسرى والمرتهنين فى إشارة واضحة إلى أن ابتلاءنا لم ينته بعد، ودعوتنا لكل الخيرين للضغط من أجل إطلاق المرتهنين مازالت قائمة.

وتمثل قضية الرهائن الكويتيين لدى نظام بغداد استثناء فى التوجه العالمى، الذى يحث على إنهاء الإرهاب بأشكاله المختلفة، وكان إطلاق الرهائن فى لبنان وغيرها مؤشرا مهما على أن عصر التهديد بالقوة، واختطاف الآمنين قد ولى. وهذه القضية من جانب آخر تؤكد ولوغ نظام بغداد فى الممارسات المرفوضة دوليا وقانونيا وإنسانيا.

ويحاول ذلك النظام أن يجعل من قضية الأسرى والمرتهنين الكويتيين عنده ورقة للضغط والابتزاز، واحتفاظه بالرهائن يعنى ضمن ما يعنيه أن نظام بغداد يضرب صفحاً عن تطبيق قرارات مجلس الأمن الواضحة والصريحة، وهو أيضا يجرح نصوص اتفاقات وقف إطلاق النار

وفوق ذلك كله يعبر هذا التصرف غير الإنسانى عن نظرة هذا النظام لحقوق الإنسان بل ولحياة الإنسان التى لا تعنى عنده شيئا، لا لحياة مواطنيه ولا غيره.

والإصرار الكويتى على إبقاء قضية الرهائن الكويتيين حية عربيا ودوليا، يعنى ضمن ما يعنيه أيضا حرص الكويت على حياة الإنسان التى يجب أن تحفظ وتصان.

ولا يقترب عربى، أو قارىء للعربية،من موضوع الرهائن إلا ويضع فى عقله وقلبه معاناة أبناء وزوجات وأهل هؤلاء الرهائن، الذين يسامون سوء العذاب ويحرمون من أدنى حقوق المدنية، يعذبون ويحرقون، تحقيقا لروح التشفى عند نظام متعصب.

التحرك الكبير :

بين فبراير ١٩٩١ وفبراير ١٩٩٢ شهدت الكويت نشاطا ضخما على الصعيد المحلى الداخلى، وعلى الصعيد الخارجى، فالإنجازات التى تمت داخليا واضحة ومشاهدة.

وعلى الصعيد الدولى تم التحرك الواسع من قبل أمير الكويت فقام بزيارات بعد التحرير إلى واشنطن والأمم المتحدة ولندن وباريس وبكين وموسكو وروما. بجانب دول الخليج العربية وكل من دمشق والقاهرة لحمل شكر الكويت حكومة وشعبا على المواقف الصلبة والمبدئية، التى وقفتها هذه الدول بجانب الحق الكويتى.

وما أن سلمت الكويت رئاسة المؤتمر الإسلامى فى داكار إلى عبده ضيوف رئيس الجمهورية السنغالية فى ديسمبر الماضى حتى تسلمت فى الشهر نفسه رئاسة مؤتمر القمة الخليجى الثانى عشر الذى عقد فى الكويت فى الشهر نفسه، والذى كان عقده فى حد ذاته اختبارا للإرادة الكويتية، تنظيما وأمنا ونتائج.

وقد تحدث جابر الأحمد فى افتتاح المؤتمر فقال: (إن انعقاد هذه القمة على أرض الكويت، وفى هذه الآونة بعد التحرير، يفصح عن مضامين عديدة من الوحدة بين بلداننا وشعوبنا، والروابط التى تربط بينها وبين أصولها العربية وانتمائها الإسلامى).

وأضاف :

(ولا يخالجنى أدنى شك فى أنكم جميعا تشعرون معى بأننا أمام معطيات جديدة كل الجدة، تولدت عن العدوان، وكانت

لها آثارها المباشرة على شعوبنا الخليجية التى مثلت بؤرة الأحداث، ومن ثم فهى تتطلع إلى أن ترى جديدا تؤمن به حاضرها، وتثق من خلاله فى مستقبلها).

ولقد تمخضت القمة لدول الخليج العربى عن قرارات عديدة على المستوى الإقليمى والعربى والدولى، كلها تصب فى دعم النظام الدولى الجديد وإقامة نظام عربى مبنى على العدالة والتعاون والواقعية. ونائيا عن الشعارات التى ضللت الجماهير ومازال بعضها يفعل.

المواقف المضادة:

وفى الوقت الذى تحتفل فيه الكويت بالعيد الأول للتحرير مازال الألم يعتصرنا من جراء مواقف بعض العرب الذين وقفوا بوضوح ودون خجل مع المعتدى، وبرروا تصرفاته، بل وحاول بعضهم فلسفتها وبيعها للجماهير.

وقد قامت حركات سياسية منظمة باتخاذ هذا الموقف، مبررة موقفها بالوقوف أمام (الأجنبى)، وحقيقتها أنها تريد تصفية حسابات داخلية عميقة فى بلدانها. وقد اتخذ بعضها موقف التأييد للعدوان وتهييج الرأى العام فى بلادها كمنطلق حسبته لإضعاف النظام الذى تعيش فى ظله.

وسقطت بسرعة لافتة الوقوف (ضد الأجنبى)، عندما دعت تلك الحركات السياسية إلى إرسال متطوعين والتبرع بالدم

وإرسـال الدعم المادى للنظام المعـتدى. الحـسـرة تكمن فى أن الكويت منذ أن تبوأت مكانها فى المجال العربى والدولى دائبة الدعم والنصـرة لكل مـا هـو خـيـر وطيب ويعـود بـالنفع على الشعوب العربية والإسلامية.

لقد كـان خطاب هذه الجماعات السياسية إلى الجمـهـور العـربى خطابا عـاطفيـا مـثـيرا للغـرائز الأولى دون تمحـيص وتدقـيق، وقـد كـان خطابا تغـيب فيـه العـقـلانية وتـهـتـز القـيم ويحوّل الصعاليك فيه إلى أبطال.

وتطرح قـضـيـة احتـلال الكويت وتحـريرها من هذا المنطلق أسئلة عميقة وشائكة حول الوعى السياسـى العربى الحاضـر، وفـيمـا إذا كـان قـادرا على تجـاوز الإثارة والتـضـليل وتـلوين المعلومات.

عيد التحرير :

ويطل علينا العيد الأول للتحـرير آخر هذا الشـهر. والكويت تعود أفضل مما كانت، فقد صهرت أهلها المحنة وطهرتـهم نار الحـرب من أدران السلبيـات السـابقـة، وولدت من جديد بلدا حـرا وشعـبا يتطلع إلى مسيرة يسـودها العدل والحـرية. وطنا يقدم الجـهود ولا يبخل، ويقدم التضـحية ولا يفـخـر، ويواصل دعم الحق ولا يخـشى، فـقـضـايا العـرب عديدة، وقـضـايا المسلمين كـثـيرة . والكويت، على الرغم من الجراح والمحنة، هـى كويت العرب والإسلام.

٤

نتسامح ولا ننسى

الهول المفاجىء الذى اجتاح الكويت وأهلها فى صبيحة الثانى من أغسطس (آب) ١٩٩٠ هول لايمكن أن يوصف بكلمات ولا تستطيع إلا العقول المريضة أن تجد له مبررا .

الهول ذاك كان فى الدوافع والمقدمات والأفعال والنتائج، حمل العالم كله على كف الخطر والمخاطرة، وسيبقى تاريخ العرب الحديث، يبحث عن جذور هذا الحدث الأعظم، يقدم التأويلات ويبحث عن الأسباب ويجدُّ فى سَبْر التفسير لهذه الكارثة التى تسبب فيها النظام العراقى، فكانت وبالا على العرب وعلى العالم أجمع ودفع ثمنها من أهلنا ضحايا مازالت قبورهم طرية .

قلنا إنه كارثة لأنه لم يحدث فى السابق - وليس من أحد منا إلا وقد قرأ التاريخ - أن عرف العالم له مثيلا، اعتداء أثيم من دولة عربية قدم لها العرب وقدمت لها الكويت على وجه الخصوص، كل عون فى ساعة العسرة، ينقلب حكامها على ذلك المعروف، وعلى قيم وقواعد القوانين الدولية، وعلى كل المواثيق العربية المكتوبة أو المتعارف عليها فتشن حملة احتلال دون إنذار على بلد آمن، وبمبررات تافهة صغيرة، ويعيث جيشها فى الأرض فسادا، وعلى مدى سبعة أشهر فى كل يوم وليلة يقتل الأطفال والنساء والرجال، كبارا وصغارا، لا لذنب جنوه إلا لحبهم لأرضهم وبلدهم، ونظامهم

الذى ارتضوه

نتائج هذه الكارثة مازالت تنزف ألماً وحسرةً وناراً فى القلوب وليس فقط فى آبار النفط المحترقة، وهى إهدار غير مسبوق لثروة وطنية، وتدمير غير مسبوق للبيئة العالمية.

المبررات والادعاءات التى ساقها النظام العراقى فى الطريق إلى الكارثة مبررات هى أكثر هشاشة من أن تعاد على مسامع الأذكياء من الناس، وقد تم تفنيدها فى أكثر من مكان، ولكن الأهم من ذلك أن كل المبررات التى ساقها النظام العراقى محاولا تبرير فعلته الشنيعة رجع بعد ذلك وسحبها هو نفسه، واحدة بعد أخرى، إما عن طريق تصريحات مضادة أو على شكل أفعال حقيقية على أرض الواقع، وذاك ما يكشف عن مدى العبث والخفة وغياب المسئولية فى نظام يفترض فيه أنه جزء من المنظومة الدولية.

لقد كانت النيات مبيتة والدوافع الراقية للعدوان جاهزة، وقد ظهرت بالتلميح تارة، وبالتصريح تارة أخرى.

الهدف كان التوسع العراقى، والدافع كان هو الفشل الذريع فى الحروب التى خاضها ذاك النظام، والفشل فى التنمية التى وعد بتحقيقها، إن هدف التوسع لدينا عليه شواهد وشواهد، منها هذه القصة، فقد سرد رئيس النظام العراقى

قبل أشهر من الغزو الآثم لأحد كبار المسئولين فى إحدى الدول الخليجية قصة فحواها، أن إمبراطورا ضاق ذرعا بالدول الصغيرة المحيطة به، فقرر أن يغزوها ويضمها إلى مملكته، وأمر قائد جيشه بتنفيذ ذلك، وقد تم، وعندما رجع قائد الجيش، سأله الإمبراطور: هل ضممتم بابل أيضا؟ فنفى القائد ذلك، فقال له الإمبراطور: عليكم ببابل فهى مفتاح إمبراطوريتي.

وعندما انتهى رئيس النظام العراقى من سرد تلك القصة، سأل ضيفه الكبير من تلك الدولة الخليجية العربية: هل تعرف من هى بابل فى عصرنا الحديث؟ وعندما أجاب الضيف بالنفى قال له: إنها النفط!

ذكرنى محدثى الكبير بتلك القصة بعد الغزو العراقى للكويت، وهو يقول: «لم يتبادر إلى ذهنى قط أن هذا النظام ورئيسه الذى وثقنا به وقدمنا له كل ما نستطيع من دعم كان يريد اجتثاثنا جميعا».

ولم تكن نوايا النظام العراقى فى السيطرة والتوسع تتوقف عند حدود الكويت وحدها، وقد ثبت ذلك بالنية وثبت بالدليل القاطع، فقد ترك الجيش العراقى الغازى من ضمن ما ترك عددا كبيرا من الوثائق والمستندات، من بينها شريط مسجل

للقاء تم بين رئيس النظام العراقى وضباطه الذين كانوا فى الكويت، وتاريخ ذاك الشريط هو النصف الثانى من نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٩٠، ولقد حمل هذا الشريط الذى وزع على نطاق واسع بعد التحرير إشارات أكيدة تبين نية التوسع العراقى تجاه المملكة العربية السعودية، كما أن رسالة صدام حسين التى كشفت عنها القيادة الإيرانية لا تترك مجالا للشك فى أن «بابل» كانت تضم كل دول الخليج العربية.

فإذا كان ذلك هو الهدف فما هى الدوافع..؟

دوافع العدوان:

أما دوافع ذاك العمل المشين، وهو غزو الكويت، وتشريد أهلها، فقد كان الفشل الذريع فى حروب النظام العراقى، والفشل الذريع فى تحقيق أى نوع من التنمية التى كان يرجوها المواطن العراقى المقهور. لقد انتهت الحرب العراقية الإيرانية دون أن يحقق النظام العراقى ما يريده من تلك الحرب، على الرغم مما دفع فيها من ثمن باهظ بشرى ومادى خلف عشرات الآلاف من القتلى والمعاقين وترك خزينة العراق خاوية من جراء الصرف العبثى على مشاريع تسليح وهمية وحوالى مليون مجند فى الجيش، وكان أمام النظام - والعالم يشهد انهيار الديكتاتورية فى أوروبا الشرقية، وتفكك الاتحاد

السوفييتي ـ كان عليه إما أن يسير نحو التعددية وإعطاء حقوق سياسية أكبر للشعب العراقى وإيجاد سبل العمل الشريف والمنتج لمئات الآلاف من المسرحين من جيش لم يعد فى حاجة إليه، أو المخاطرة بسقوط النظام واهترائه من الداخل إن لم يفعل ذلك، ولكن النظام العراقى اختار طريقا ثالثا هو طريق المغامرة ـ وهى من سماته الأساسية ـ فكان غزو الكويت، لعل ذلك فى نظره يخفف من الضغوط الداخلية، ويغرى الشعب العراقى، الذى غرر بمعظمه الإعلام اليومى المنظم القائم على تعظيمٍ وتأليهٍ لشخص الرئيس وتزيين صورته بمشاريع الضم والعدوان.

لا أستطيع أن أقول «لا»:

الحوادث والمؤشرات كثيرة ومتتابعة، وما فعلته القوات العراقية بالآمنين من الكويتيين تعجز الأقلام عن وصفه، ولكننى أستسمح القارىء قليلا لعرض وثيقة وصلت إلى يدى من بين مئات الوثائق التى تركتها القوات الغازية عند انسحابها على عجل من الكويت، هذه الوثيقة طريفة وجديدة، ولم تنشر أو يشر إليها أحد من قبل، وهى عبارة عن يوميات ضابط عراقى فى الكويت كتبها فى الخفاء فى أجندة تركها ـ كما يبدو ـ خلفه بعد الانسحاب على عجل.

تقول هذه الوثيقة من ضمن ما تقول وأنا أثبتها هنا حرفيا:
(اليوم الاثنين المصادف ١٠/٩/١٩٩٠ الساعة الثانية عشرة منتصف الليل، بعد قراءتي رواية «أنا لا أحب الغربة أبدا» راودتني كتابة بعض الكلمات التي ينبغي على كتابتها وأنا في بلد غريب، بلد جميل كل ما فيه منظم، بلد يعتز أهله بوطنيتهم وأرضهم، كنت أفكر أن هذا البلد قد انتهى وقد دمر، ولكن رغم كل الأحداث، وكل الأعمال الوحشية التي قام بها الكثير من المتخلفين الذين لا يفهمون ولا يدركون، إنهم ناس لا عقول لهم ولا ضمير لهم ولا روح لهم، إنهم وحوش كاسرة، وحوش لا تعرف معنى الإنسان ومما خلق، وأنا أقول إن هؤلاء ليس ذنبهم إنه ذنب التاريخ وذنب الطبيعة المتوحشة التي تربوا (عليها). هل أنا أنتمي لهذا الشعب الشقي الذي عرف بطبيعته وكرمه، بلد فيها النهرين اللذان لا يبخلان على أبنائه، كنت أسائل نفسي وأنا أقف على أعتاب الكثير من البيوت (في الكويت) والأطلال المدمرة والمنهوبة - أجلس في الغربة وأتأمل كل ما حولي وأنا أنظر إلى غرفة مليئة بألعاب الأطفال المكسورة والمطروحة أرضا . أنظر إليها وأحس أنها تقول لماذا دمروني ولماذا فعلوا بي هذا، هل هي عدالة الأرض التي وضعها الإسلام لهذه الأمة، كيف أنظر إليها ولا أستطيع أن

أقول حتى مع نفسى : لا؟).

هذا مقتطف مطول من صفحة واحدة فقط من يوميات ذاك الضابط العراقى فى الكويت، نقلتها كما هى دون تحوير أو تغيير حتى للأخطاء اللغوية، كى تقف شاهدا تاريخيا وعلى لسان ذاك الضابط فى الأرض الغريبة عليه التى يعترف فيها أنه لا يستطيع أن يقول حيال التدمير الذى رآه كلمة «لا».

المقـــدمـــات :

لقد كان فعل الغزو والاجتياح والتخريب دراميا من مبدئه إلى نهايته، فقد بدأت الشرارة المباشرة بمجموعة من التصريحات والإشارات، ففى منتصف يوليو (تموز) ١٩٩٠ ذهب وفد شعبى كويتى «ليهنىء الدولة الشقيقة بعيد الثورة!» فإذا به يفاجأ بأن وزير الإعلام العراقى السابق يستدعيه ويصب جام غضبه عليه - وهو الزائر - فى حديث قاس ومؤلم هدد فى نهايته باستخدام الكيماويات والصواريخ بعيدة المدى، وقال إن (الكاكى) مازال معلقا فى مكتبه - إشارة إلى استعداده لخوض حرب ضد الكويت - وهذا النوع الصبيانى من الإشارات استمر من رأس النظام إلى أصغر مسئول فيه طيلة الأسابيع اللاحقة. ولقد انصبت تلك التلميحات والتصريحات العراقية فى مسرحية سياسية غير مسبوقة على

ادعاءات عراقية على الكويت، ملخصة فى جملتها قصة الذئب والحمل المعروفة، فعندما اتهم الذئب الحمل عدة اتهامات عرف أنها غير موضوعية قال له الذئب فى نهاية الأمر إنى عزمت أن أفترسك لأنك عكرت على مياه النهر الجارى (!)، فكان الغزو.

باكورة المذكرات المشبعة بالتهديد هى مذكرة طارق حنا عزيز بتاريخ ١٩٩٠/٧/١٥ والتى وجهها إلى الأمين العام للجامعة العربية، وهى مذكرة طويلة ذات ديباجة كلامية سمجة، اتهم فيها الكويت بأنها (استغلت انشغال العراق كى تنفذ مخططا فى تصعيد وتيرة الزحف التدريجى والمبرمج باتجاه أرض العراق فصارت تقيم المنشآت العسكرية والمخافر والمنشآت النفطية والمزارع على أرض العراق) كما اتهمت المذكرة الكويت بأنها (تسرق النفط العراقى) فقد ادعت أن الكويت (قد نصبت فى الأراضى العراقية ـ مستغلة ظروف الحرب مع إيران ـ منشآت نفطية على الجزء الجنوبى من حقل الرميلة العراقى(!) وصارت تسحب النفط منه).

ثم أضافت المذكرة أن أسعار النفط المتدنية فى الأسواق العالمية سببها الكويت والإمارات، أما المساعدات التى قدمتها الكويت للعراق فهى مساعدات (لمعركة قومية تولى فيها

العراق الدفاع عن البوابة الشرقية)!

وقد تنازل النظام العراقى بعد أشهر قليلة عن كل ادعاءات له فى (البوابة الشرقية)!

كانت روح تلك المذكرة استفزازية إلى أبعد درجات الاستفزاز، وكان ظاهرها محاولة لخلق أسباب العدوان وإثارة الموضوع بحجم أكبر بكثير من حجمه الحقيقى.

وتدور الأيام وتقع الكارثة ويتم التحرير وتأتى لجنة محايدة من الأمم المتحدة لترسم الحدود بين العراق والكويت على أساس الاتفاقات والمعاهدات الدولية الموقعة بين البلدين، وتكتشف هذه اللجنة أن جزءا كبيرا من الأراضى الكويتية كان تحت السيطرة العراقية، بل إن مطارا عسكريا كبيرا دخل فى الحدود الدولية الكويتية لصالح الكويت وكذلك عدد من المنشآت والآبار النفطية، وأقرت اللجنة الدولية المحايدة كل ذلك كجزء من الأراضى الكويتية، بمن فيها العضو العراقى المسمى رسميا من نظامه. إحدى القواعد التى اعتمدت عليها اللجنة، بجانب الرسائل المتبادلة بين حكام الكويت والأنظمة العراقية المختلفة والاتفاقيات الموقعة بين الدولتين، خرائط قدمها العراق إلى عصبة الأمم عندما قدم أوراقه للانضمام إليها اعترف فيها بحدوده الجنوبية مع الكويت.

إذن فإن مخطط الزحف التدريجي والمبرمج كان من جانب العراق لا الكويت، وهو منسجم مع منطق الأشياء، إلا أن الادعاءات الكاذبة، والفُجْرَ الصريح كان ومازال من شيمة النظام العراقى.

تلك المذكرة تبعتها مذكرة أخرى فى ٢١ يوليو (تموز) ١٩٩٠ وأيضا للأمين العام للجامعة العربية وكانت كسابقتها وعلى السياق نفسه استفزازية، ترد بلهجة عدائية على المذكرة التى بعثتها الكويت استجابة للمذكرة الأولى، وكانت كما هو متوقع إصرارا من الجانب العراقى على تصعيد الموقف إلى درجة الانفجار.

الكـــارثة :

جيلنا الحالى فى الكويت بل والجيل العربى كله سيظل يذكر غزو العراق للكويت بكل تفاصيله، وسيذكر الكل أين كان صبيحة يوم الخميس الأسود الثانى من أغسطس (آب) ١٩٩٠، وسيذكر مسيرة السبعة أشهر الصعبة بين يوم الاحتلال ويوم التحرير فى ٢٦ فبراير (شباط) ١٩٩١، سيذكر المعاناة والبطش والتنكيل والإرهاب والملاحقة والقتل، ونادرا ما تعرض شعب لمثل هذه المعاناة الهائلة وفى هذا الوقت القصير من جار إئتمنه وركن إليه، كما تعرض شعب الكويت.

عيون النساء والأطفال والدمعة حائرة فى مآقيهم من هول المفاجأة سأظل أذكرها بتفاصيلها، رجال مقعدون على كراسيهم يشاركون فى مسيرات دعت إليها اللجان الشعبية الكويتية فى القاهرة ولندن والرياض وأماكن أخرى كثيرة احتجاجا واستنكارا للغزو. شهادات عن التعذيب والقمع يسردها أهلنا أمام لجان الكونغرس الأمريكى وأمام العالم أجمع، مسئولونا الكويتيون وهم يتنقلون بين مدينة ومدينة، وبلد وبلد، متابعين القرارات الدولية.

ضياع وحيرة وتشرد فى المنفى الذى كان يبدو للبعض ليلا ليس له آخر. المخاطرة التى تحملها أهلنا فى داخل الكويت وهم يقاومون بأشكال مختلفة من المقاومة، بما فيها العصيان المدنى الذى كان أوسعها انتشارا، أنت متهم لأنك كويتى، لأنك مواطن، تتابعك عيون الجيش والمخابرات العراقية، لا يغفو لك جفن وأنت فى منزلك، لا لأنك خائف على نفسك، ولكن لأنك لا تعرف متى يطرقون الباب عليك كى ينتزعوا من دفء بيتك فتاتك اليافعة، أو ابنك الشاب. لقد كان الموت - نعم الموت - أعذب وأحب إلى كثيرين من ذاك العذاب المقيم، رعب وإرهاب واغتصاب. كان مجرد وجود صورة الأمير - رمز الدولة - أو ولى العهد أو علم الكويت فى بيتك يعنى الإعدام دون مساءلة.

كان الجلادون يدخلون اى مؤسسة عامة أو بيت مصان ويفتعلون أى سبب، ويقتادون من قرروا تعذيبه إلى أقبيتهم وبعد أيام يصلبونه، وهو على الرمق الأخير، أمام منزله أو منزلها، ويطلقون عليه أو عليها الرصاص. مرّ أب، وهو ذاهب يصلى العشاء، على جثة فلم يتبين أنها لفلذة كبده إلا بعد أن عاد من الصلاة، وشك فى الأمر، ثم غسل وجه الجثة بالماء لإزالة الدماء التى غطته، فظهر له وجه ابنه الذى اقتاده القتلة منذ أيام بعيدة عن المنزل، كان أتفه سبب يدعو إلى الإعدام، وسارت كوكبة طويلة من الشهداء رجالا ونساء وفتيات فى عمر الزهور وشبابا غضا، إلى بارئها فداء لوطنها.

وعندما شعر المحتل بقرب خروجه من الكويت التى استعصت عليه، أطلق زبانيته فى شوراعها يجمع كل من كان فيها لسبب أو لآخر ويختطفهم، بل وقفت الشاحنات أمام المساجد تتلقف المصلين فى يوم جمعة لأخذهم أسرى ومعتقلين، ومازال المئات منهم هناك رهائن وراء سجون النظام العراقى، الذى يرفض حتى التبليغ عن أسمائهم وعددهم للمنظمات الإنسانية الدولية.

دفن الشهداء فى مقابر جماعية بلا اسم ولا هوية ولا حتى شعائر، ومات العشرات فى هجير الصحراء فى الأسابيع

الأولى هربا من الجحيم، ومات الرضع عطشا بين أيدى أمهاتهم عندما ضلت عشرات السيارات طريقها فى الصحراء متجهة إلى المملكة العربية السعودية.

على شاكلته :

كان المحتلون - مثل صدام نفسه - لا تعرف قلوبهم الشفقة أو الرحمة، وكم كان مثيرا للاشمئزاز ومروعا أن يغتال العربى أخاه العربى، دون سبب يذكر إلا الجشع وحب التوسع، لقد شهدت مستشفيات الكويت وبيوتها وشوارعها ضحايا التعذيب وتنفيذ أحكام الإعدام الفورية، إلا أن وحشية ذلك الاحتلال لم توهن عزيمة أهل الكويت، ولا رغبتهم العارمة فى التحرر من كابوسه، وعلى الرغم من قوة الجيش العراقى ومخابراته وأساليبه فى التصفية والملاحقة، المستمدة من أعتى مدارس الإرهاب التى راكمت خبرتها لسنوات طويلة فى العراق نفسه حتى ما عاد المواطن العراقى العادى يستطيع أن يستخدم كلمة لا! وعلى الرغم من كل ذلك فقد هب الكويتيون والكويتيات لنجدة وطنهم واستخدموا طرقا شتى للمقاومة، فسيروا المسيرات على الطرقات ومفارق الشوارع، ولعبت النساء الكويتيات دورا فى توصيل الرسائل وتهريب المتفجرات، بل اقتحمن مناطق تمركز الأعداء بالسيارات

المفخخة، ونشطت جمعيات النفع العام، ونظمت اللجان الشعبية للتكافل، ووزع المال على الأسر الكويتية المحتاجة وغيرها من الأسر الصامدة، ونظم العمل فى الجمعيات التعاونية، وعمل الكويتيون خبازين ومنظفى طرق وسواقين لسيارات القمامة، وعملت السيدات ممرضات، وساعدن الجهاز الطبى الصغير المكون من مجموعة كويتية صغيرة وإخوة عرب أبوا إلا أن يشاركوا الكويت صبرها ومقاومتها.

ولم ينقطع اتصال الكويت بالخارج فقد استخدمت التقنية الحديثة، خاصة الهواتف المتنقلة عبر الأقمار الصناعية والمرتبطة بالكمبيوتر لتوصيل المعلومات من الخارج إلى الداخل ومن الداخل إلى الخارج، ووفرت وسائل الاتصال هذه المعلومات الدقيقة وصورا قريبة للواقع عن الداخل، ومكان تمركز وحدات العدو حيث قدمت للحلفاء معلومات ذات قيمة استراتيجية عالية ساعدتهم فى وضع خططهم الناجحة لتحرير الكويت.

وتجلد الشعب الكويتى بالفن أيضا، فقد شاعت بين الكويتيين أشرطة تفيض أغانيها عذوبة بحب الوطن والتمسك بترابه، حتى صار المنشور والشريط فى نظر الغازى كالبندقية والمدفع، ودفعت المقاومة الكويتية التى انتشرت فى كل مكان

وجاءت من كل فئات المجتمع ومختلف مهنه ومستوياته، دفعت ثمنا باهظا لموقفها الوطنى، من التعذيب وحتى الموت والشهادة.

وفى خارج الوطن نظم الكويتيون أنفسهم بشكل دقيق فى لجان عديدة، وطفقوا يدعون لقضيتهم كل من يريد أن يسمع، ويشرحون لكل من يريد أن يرى شطط المحتل بكل القيم الإنسانية، ونشطت صحف الكويت فى القاهرة ولندن وجدة، وتجمع الكويتيون فى الخارج فى مؤتمر شعبى موسع فى منتصف أكتوبر (تشرين الأول) ١٩٩٠ فى مدينة جدة، وأعلنوا للعالم تمسكهم بشرعيتهم ووطنهم ووحدتهم وأهلهم فى الداخل.

وقامت الحكومة الكويتية التى اتخذت لنفسها مقرا مؤقتا فى الطائف بتنظيم أمور معيشة الكويتيين فى الداخل والخارج، ومهمة الاتصال الدبلوماسى على أوسع نطاق بدول العالم كافة فى مشارق الأرض ومغاربها، وكان الإصرار الكويتى على التحرير يهزم شيئا فشيئا شبح الديكتاتورية والفوضى والاحتلال.

العسف العراقى :

لقد هاجم الاحتلال العراقى كل شىء فى الكويت، هاجم

المجتمع بأسره، بكل مؤسساته، فتمت سرقة ونهب المؤسسات العلمية والبنوك ودور الصحف والمتاحف والمدارس، حتى الكتب لم تسلم من السرقة المنظمة، وكان من المضحك المبكى أن يخرج التليفزيون العراقى على الناس بإعلان - بعد نهب إحدى المؤسسات - يقول فيه إن هذه المؤسسة قد (تبرعت) بموجوداتها إلى مؤسسة مشابهة فى بغداد أو البصرة! لقد نهب العراقيون مجلة «العربى» وكان أرشيفها الغنى الذى جمع على امتداد خمس وثلاثين سنة فيه من الصور والمعلومات ما لا يقدر بثمن، ولقد نهب العراقيون موجودات المتحف الوطنى الكويتى الذى جمعت موجوداته من أنحاء العالم وهى أيضا لا تقدر بثمن، كذلك موجودات جامعة الكويت ومعهد الأبحاث العلمية ومعهد التخطيط ودور الصحف وكل شىء له علاقة بالعلم والثقافة والحضارة، وأحرق الغزاة العراقيون المدارس والمستشفيات والمستوصفات الطبية ودور العبادة والمبانى الحكومية ودور السكن الخاص، وخربوا مولدات الكهرباء ومحطات تنقية المياه، ومراكز شبكات الاتصالات الهاتفية، والمخازن العامة، والمصانع، والمحلات التجارية، ومبانى المطار وحظائر الطائرات، وسرقوا الأغذية والذهب، وكل شىء استطاعوا وضع يدهم عليه، ولو استطاعوا طى الشوارع والبيوت ونقلها

إلى بغداد لما ترددوا فى ذلك.

لقد نهبوا المدينة ثم أشعلوا فيها النار، ولكن التدمير الأكبر هو الذى وقع على نفسية الإنسان الكويتى، الذى آمن بالعروبة وعمل من أجل أهدافها، وبذل لها الغالى والنفيس، وكان له دور عربى وإسلامى مميز، كان هذا هو التدمير الذى استهدفه الغازى، والشعب الكويتى مصمم على أن يفشل هذا الهدف كما فشلت كل أهداف الغزو.

جريمة العصر :

كانت قمة الجرائم، بل جريمة العصر، هى تفجير جنود صدام المتعمد لأكثر من ألف رأس من رءوس آبار النفط عشية الانسحاب المهين للجيش الغازى، لقد بذل المهندسون والضباط والجنود العراقيون جل جهدهم فى تدمير منابع النفط، ومع أولى الصواعق التى تفجرت فى رءوس آبار النفط شب أكبر حريق عرفته البشرية حتى الآن وستظل آثار الكارثة غير المسبوقة فى حجم التدمير فى التاريخ الإنسانى تذكر بهمجية وبربرية الغازى. لقد قام العراقيون فى الوقت نفسه بسرقة المعدات الضرورية للعمل فى حقول الآبار النفطية خاصة مهمات مقاومة الحرائق، ونثروا أعدادا ضخمة من الألغام حول حقول النفط، وتدفقت ملايين الأطنان من النفط الخام حول تلك الحقول فشكلت بحيرات ضخمة تعرقل

وصول فرق الإطفاء لها.

لقد لوث هذا العمل التربة والمياه والهواء وتراكمت فى سماء الكويت وجيرانها طبقة كثيفة من الغيوم المكونة من الدخان وجزيئات الكربون حتى غدا النهار ليلا، ووصلت هذه الملوثات إلى أماكن بعيدة حيث تساقطت ثلوج سوداء على سفوح جبال الهملايا. إن النيران التى أشعلها طاغية بغداد فى الكويت، كما تقول التقارير الدولية، هى من (أكثر الكوارث البيئية التى تسبب فيها الإنسان خطورة فى التاريخ) كما أن آثار هذا التدمير، على البيئة وعلى صحة الإنسان وعلى الحياة عموما، خطيرة بمقدار ما هى مجهولة النتائج. لقد لوث - النظام العراقى - الجو والبحر والماء والتربة والإنسان، حاضرا ومستقبلا، واستحق عن جدارة لقب «مجرم العصر» إن لم يكن مجرم كل العصور.

شعبنا يتعافى:

وعلى الرغم من هذه الكارثة وآثارها المدمرة، معنويا وماديا وبيئيا، فإن شعبنا - شعب الكويت - يتعافى، فلقد وقفت معه فى ساعة محنته شعوب شقيقة وحكومات ملتزمة بالمبادىء والقيم العليا، ورجال ونساء جهروا بالحق فى كل مكان، وها هى ستة أشهر فقط تمر على يوم التحرير وتعود الكويت

تقريبا إلى سابق عهدها، نعم هى محملة بالألم ومثقلة بالجراح ولكنها أيضا مليئة بالأمل مستبشرة بالمستقبل، فقد عانت ما لم يعانه بلد فى العصر الحديث، ومر شعبها بتجربة مريرة صهرته وأظهرت معدنه الأصيل، ولقد كانت إرادة المقاومة لدى الكويت والكويتيين منذ اللحضة الأولى إرادة صلبة، فقد وجه أمير الكويت كلمة إلى الشعب الكويتى بعد العدوان قال فيها «إذا كان العدوان قد تمكن من احتلال أرضنا فإنه لن يتمكن أبدا من احتلال عزيمتنا، وإذا كان المعتدون قد استولوا على مرافقنا ومنشآتنا العامة فإنهم لن يستطيعوا أبدا الاستيلاء على إرادتنا» وتم ذلك بالفعل.

بهذه الإرادة والعزيمة نهضت الكويت كطائر الفينيق من رمادها كى تكون أحلى وأعز وأجمل، وحتى تبقى شاهدا على بربرية نظام حمل أحط القيم وأرذلها، ولوث تاريخ البشرية بأبشع الجرائم.

ويقدم الكويتيون اليوم المثل الرائع على التسامح، فليس المهم البكاء على ما فات، الأهم من ذلك كله هو بناء دولة قائمة على العدل والتنمية والتسامح وبناء علاقات عربية جديدة قائمة على التعاون والعدل والتآزر، ونبذ الإرهاب.

والتسامح هو قيمة من قيم الإنسان الأساسية وهو قيمة

إسلامية عظيمة، وقيمة حضارية دائمة، وأن نتسامح يعنى أن نغلّب المحبة على الحقد، وأن نغزو مساحات الضياء فى حياتنا على حساب مساحات الظلمة والظلام، وأن نساهم فى البناء وفى نشر العمل الطيب فى جميع أرجاء أمتنا العربية والإسلامية والعالم أجمع. ولكننا بالتأكيد نتسامح ولن ننسى، لا نحن ولا أجيالنا القادمة ولا كل الخيرين فى العالم، الفعل المتوحش الذى قام به النظام العراقى، ولن يهدأ للعالم بال إلا بعد سقوطه وهو ليس ببعيد.

٥

أربع سنوات مريرة
على أسرى الكويت..
بشر لا أرقّاء

فلأطلق عليها اسم «س..» لأن المأساة التى تعرضت لها والمهانات التى عانت منها لا تسمح لى بذكر اسمها الحقيقى. ولكن قصتها الحقيقية بكل تفاصيلها وإن قربت للخيال الجامح قد استولت على مشاعرى بعد أن سمعتها وأنا أستعد لخط هذه الكلمات، ربما لأنها تكشف عن الوجه القبيح المروع للأزمة التى نعانى منها جميعا حين يتحول البشر إلى أرقاء وحين يستفز المرء كل ما فى داخله من طاقات إنسانية ليحافظ فقط على وجوده كإنسان فى مواجهة العنف والإذلال.

«س» كانت فتاة فى بداية حياتها معلمة للأطفال مشرقة الوجه طافحة بالحيوية وفى الثانى من أغسطس عام ١٩٩٠ لم تفعل أكثر من أنها تناولت حقيبتها وكراسات تلميذاتها وتوجهت إلى المدرسة التى تعمل بها. وفى وسط زحمة مرور الصباح كانت تعتقد أن الجندى الذى يتحكم فى حركة السيارات هو أحد رجال الشرطة الكويتيين . ولكنها فوجئت به يوجه السلاح نحوها. وليست تدرى ما الذى أثاره فى منظرها فقد كانت ترتدى ثيابا بسيطة وحجابا يلف رأسها. لعلها نظرة البراءة والتساؤل فى عينيها هى التى أثارته ودفعته ليغرس فوهة بندقيته فى صدرها وهو يأمرها بالنزول..

كانت هناك حافلة «باص» تقف على جانب الطريق تمتلىء هى أيضا بأناس مذعورين من أجناس وأعمار مختلفة تم

القبض عليهم لأسباب لا يعرفونها.. موظفين ورجال عجائز وفتيات صغيرات مرتعدات مثلها - برغم الغيظ - من الخوف. وتوالت عمليات القبض العشوائية حتى امتلأ (الباص) عن آخره ثم سار بهم تحت حراسة الجنود المتجهمين إلى مقر القيادة فى أحد فنادق وسط المدينة. أنزلوهم وأنزلوها معهم فى الساحة الأمامية وصفوهم صفا واحدا وأمروهم أن يسيروا إلى الحائط ثم يستديروا جميعا.. وسمعت أحدهم يصرخ فى هستيريا «إعدام..» وصكت أذنيها أصوات قعقعة الأسلحة وهى تشرع... فتمتمت بالشهادتين..

بدا الأمر كأنه مسرحية مرعبة لإثارة أكبر قدر من الفزع فى نفوسهم. فقد جاء ضابط عراقى فى اللحظة الأخيرة وأمر الجنود بتنحية أسلحتهم وأمر الأسرى بأن يعتدلوا. وأخيرا وجدت الدموع طريقها إلى عينى «س» لم تسمع ما قاله الضابط من كلمات إنشائية عن أنهم أخوة ولا عداوة بينهم أو مشاكل.. لم تفهم ماذا يعنى.. كل ما أحست به أنهم قد اختطفوا روحها فى هذه اللحظة.. فأصبحت جسدا بلا روح، تتحرك دون طاقة.

لم يفرجوا عنهم.. وقال الضابط إنهم سيطلقون سراحهم بعد ساعة على الأكثر ولكن الساعة استطالت إلى يوم كامل، بلا طعام ولا ماء. ثم جاءت سيارات ضخمة وحشروهم جميعا

وبدأت السيارات سيرها الطويل.. سير وسط الشوارع المضيئة ثم وسط الظلام الدامس. توقف أحيانا للتزود بالوقود وأحيانا للتأكد من أن الحمولة البشرية مازالت على حالها ثم معاودة للسير من جديد.. أدركت بغريزتها أن هذه الرحلة الطويلة قد حملتها خارج حدود بلدها الكويت وأنها الآن فوق أرض أخرى كانت حتى الأمس تعتبرها أرضا عربية شقيقة ولم تتأكد من صدق حدسها إلا فى اليوم التالى عندما توقفت السيارة أخيرا لتجد نفسها فى مدينة.. البصرة.

لم يكن هناك معنى لأن تحس بالتعب والإنهاك.. الموتى لا يحسون بأى شىء ولا يموتون إلا مرة واحدة، وهى قد ماتت فى ساحة الفندق. لم تبال حين فصلوها عن بقية المعتقلين ولم تبال بنظرات الضابط العراقى وهو يدور حولها ويتأمل جسدها.. سار الضابط ودفعها الجنود حتى تسير خلفه، حملتها سيارة أخرى صغيرة، وحدها هذه المرة دون معتقلين.

لم تذهب إلى السجن، ذهبت إلى بيت الضابط الذى لم يكن يفترق كثيرا عن السجن فقد كان محاطا بالحراسة من كل جانب وأشار إليها أن تبدأ على الفور فى تنظيف البيت المتسخ. تحولت إلى خادمة.. وبدأت تمارس عملها الذى لم يقتصر على الطهو والغسل والتنظيف ولكنه امتد لأشياء أخرى مروعة.. كان جسدها يتعرض لإهانات يومية بمختلف

الوسائل هدفها الأساسى هو سحق روحها حتى لا تفكر فى أى خلاص.

لا تدرى كم يوما مر عليها وهى تدور فى هذه الحلقة الجهنمية. ولكن الذى كانت تقوم بخدمته وتتلقى إهاناته نقل إلى بغداد وأخذها معه. سيارة عسكرية أخرى حملتها عبر مسافات طويلة من الرمل والفراغ وصور الرئيس، وفى بغداد كانت أسرة الضابط وأولاده ولم تتحسن المعاملة كثيرا. بعض الإهانات الجسدية هى التى توقفت فقط، ولكنها ظلت خادمة، تمارس أعمالها فى صمت وبلا روح، وبدأوا يثقون فى أنها استسلمت لمصيرها فسمحوا لها بالخروج إلى السوق لشراء لوازم البيت وفى صحبتها أحد الجنود..

ثم بدت لمحة ضئيلة من الأمل ذات يوم. أحست فجأة بشهقة الحياة وهى فى طريقها للسوق والجندى خلفها حين لمحت الراية البيضاء المرسوم عليها صليب أحمر اللون. أدركت أنها قد رأت مبنى فرع اللجنة الدولية للصليب الأحمر. مبنى صغير ولكنه بالنسبة لها كان الملجأ الوحيد فى العالم الذى تتوق للوصول إليه. وبدأ ذهنها يعمل وأحاسيسها تتحرك للمرة الأولى منذ شهور طويلة، ولكنها أخفت كل هذه المشاعر وظلت تواصل رحلتها الرتيبة بنفس الدرجة من الكآبة.

ثم حانت اللحظة ذات يوم، كان الجندى قد تراخى قليلا عن

حراستها، اكتفى بأن يتركها تمارس الشراء وانشغل هو فى شرب «استكانة» شاى والحديث مع الباعة فأخذت تجرى.. وتجـــرى.. وضعت كل قوتها وكل الأمل وكل الخلاص فى ساقيها.. ولم تكتشف أنها مازالت تحمل كيس الخضروات إلا بعد أن اقتحمت الباب الأمامى للمبنى وارتمت أمام الموظفين الدوليين وهى تبكى وتهذى وتحكى حكايتها فى كلمات متقطعة وتكشف عن أماكن الجروح والحروق فى جسدها واحتضنها الموظفون وانتظرت أياما طويلة من المفاوضات حتى تتمكن قوة صغيرة من أخذها واجتياز الحدود وإعادتها إلى وطنها.

«س..» موجودة اليوم بيننا فى الكويت لا تريد أن تحكى قصتها علنا لأنها مثل عشرات من زميلاتها انتهكت اعراضهن إبان الاحتلال، ويمثل لهن الأمر غصة يخفينها خلف دموعهن.

بشر منسيون:

هذه قصة واحدة واقعية من مئات القصص للبشر المنسيين الذين نطلق عليهم منذ أربع سنوات طوال: أسرى ومفقودى حرب تحرير الكويت، تلك القصص التى تحولت إلى مجرد أرقام فى قائمة الإحصاءات الدولية، وخبر مكرور من أخبار الصحف ومجال لحرب التصريحات والمساومات السياسية

والتصريحات المضادة والتسويف. من يصدق أن أربع سنوات كاملة قد مضت على قضية هؤلاء البشر المنسيين الذين لا يعرف أحد حتى الآن شيئا محددا عن مصيرهم..؟

أجدني فجأة بعد مرور كل هذه السنوات أتحدث عن نفس القضية، ولا أدرى هل أصبح إيقاع الزمن أسرع من أن أدركه بالوعى المباشر، أم أن الأيام والشهور قد أصبحت تنسرب من بين الأصابع كذرات الرمل، إن عدم الإحساس بالزمن يعود بالدرجة الأولى إلى أن الأحداث والقضايا التى تحتل حيز هذا الزمن لم تتغير كثيرا. التصريحات هى والمواقف هى هى كأن ذلك الكائن الهلامى المسمى بالزمن العربى يشيخ وهو فى مكانه.

لا أريد هنا أن أكرر كلمات قلتها فى السنوات السابقة ولا أن أقف هنيهة على أطلال ما حدث متظاهرا بالتطلع إلى المستقبل وأنا غارق فى اجترار الماضى. لقد كنت أتمنى أن أتحدث عن أزمة الخليج العاصفة ـ التى أودت بآخر آمال الجيل الذى أمثله ـ بوصفها تجربة خطيرة من تجارب التاريخ العربى مهما بلغت درجة مرارتها، بمعنى أن يتحول الجرح المفتوح إلى ملف مغلق يوضع فى أدراج الذاكرة، نستقى منه الذكرى وليس الألم، العبرة لا الوجع. ولكن الجرح هنا يأبى الالتئام، فالنفوس الإنسانية التى ألهبتها نيران الحرب مازالت

تعانى. لقد رمم الكثير من آثار القصف سواء فى الكويت أو العراق. وتم إيقاف الجحيم الذى استعر من آبار النفط المدمرة. وحتى المقاطعة المفروضة على العراق قد تم اختراقها وبنيت عشرات القصور الباذخة فى بغداد وحولها.. ولكن من يزيل آثار القصف من أرواح البشر. ؟ ومن يخلص البشر من سجون الاعتقال والذل، ومن يخلص أهليهم وذويهم من طول الانتظار؟

لقد سقط ذكر أسرى الكويت أو الضحايا المنسيين وسط دمدمات القوى العظمى وتحفزات السلاح وصيحات التهديد. ومازال هناك ٦٢٥ أسيرا فى السجون العراقية يرفض النظام الحاكم الاعتراف بوجودهم، وهو أسلوب مألوف قد اتبعه من قبل فى إنكار وجود الأسرى الإيرانيين.

وقد يبدو هذا العدد صغيرا لمن لا يعرفون الكويت ولا تعداد شعبها ولا روح التكافل التى تسود بين أفراده. فهذه النسبة تصل إلى ٩,٦٪ من تعداد الشعب الكويتى الذى يقارب حوالى ٦٠٠ ألف نسمة . وتظهر فداحة هذه النسبة لو طبقتها - بالمقارنة - على بلد عربى كبير العدد مثل مصر حيث نجد أن هذه النسبة فيها يمكن أن تصل إلى ٦٢ ألف نسمة. وإذا طبقناها على وطننا العربى الذى يبلغ تعداد سكانه ٢٣٠ مليونا لوصل العدد إلى ٢٥٠ ألف أسير. وهكذا يمكننا أن

ندرك أن هذا العدد الذى قد يبدو صغيرا ظاهريا للبعض يمثل مأساة حقيقية لكل بيت كويتى تقريبا. وهى بيوت تعيش على حافة الأمل واليأس تنتظر عودة الآباء والأزواج والأبناء من الذين يلوحون لهم بمعلومات كاذبة أو مساع غامضة للإفراج عن الأسرى.

إن الأيام قد تثاقلت عليهم. والقصص التى تتناثر عن مصيرهم تثير الرعب. ومازال النظام العراقى مصرا على إنكار وجودهم برغم عشرات الشهود الذين رأوهم داخل السجون فى العراق، بالإضافة إلى الوثائق التى تركها العراقيون خلفهم.

ومعظم هؤلاء الأسرى ليسوا من العسكريين أو الذين شاركوا فى العمليات العسكرية كما قد يتبادر للذهن، ولكنهم أناس عاديون وجدوا فى المكان الخطأ فى اللحظة الخطأ فعندما كانت القوات العراقية تستعد للارتداد عن الكويت قامت بالقبض العشوائى على العشرات من المواطنين، من الشوارع والمساجد والأسواق، الأمر الذى وصفته مصادر الأمم المتحدة بأنه «أكبر عملية اختطاف فى التاريخ...» ويبدو أن هذا الأمر كان جزءا من سياسة الدروع البشرية التى كان النظام العراقى يخطط لها فيما لو حدث اقتحام لبغداد. ولكن مع توقف القتال عند حدوده فى الجنوب وبعد جهود مضنية

للوساطة قام بها الصليب الأحمر أعاد العراق بعض هؤلاء الأسرى سيرا على الأقدام من مدينة «صفوان» فى جنوب العراق، وأنكر وجود البعض الآخر. مرة يعترف بوجود ٤٩ أسيرا فقط ثم يعود ليسحب اعترافه. ومرة أخرى يعترف بـ ٥٦ أسيرا ثم يعاود المماطلة من جديد. كأن اللحم الإنسانى هو مادة صالحة للمساومة مهما كان نوع الصفقة. وكأن كل تلك العذابات تستأهل المناورات السياسية التى يقوم بها نظام لم يعترف بأى حق من حقوق الإنسان، لا بالنسبة لمواطنيه ولا لمواطنى الدول الأخرى.

ضد الاستعباد:

إن الحالة التى عرضتها بالتفصيل للأسيرة «س...» ليست فقط نموذجا لمحاولة تحويل البشر إلى أرقام، ولكنها محاولة لإيقاف التاريخ وإعادته إلى الوراء فقد ناضلت البشرية طويلا عبر مئات من الحروب والمعاناة من أجل الحفاظ على حياة الأسرى وعلى آدميتهم من أن يتحولوا ليكونوا هدفا لكل عوامل البغض والكراهية ونزعات الانتقام التى تولدها الحروب. أى أن الرغبة فى الحفاظ على الأسرى وكرامتهم كانت محاولة من البشرية للارتقاء قليلا فوق رغبات التسلط الوحشية التى تصيب المنتصر، وعدوانية القهر التى يصاب بها المنهزم.. انتهى ذلك العصر الذى كان الأسرى فيه

يتحولون إلى أرقاء تحت رحمة الآسر يتصرف فيهم كما يشاء قتلا أو استعبادا أو بيعا. وفى زمن الجاهلية كان الأسير مجرد سلعة يتصرف فيها شيخ القبيلة، يختار منهم ما يريد ليعملوا فى مراعيه أو يخصيهم قبل أن يدخلهم إلى نسائه، أو يبيع منهم من كان صالحا، ويقتل من يعتقد أنه ليس ذا فائدة.

وواجه الإسلام مشكلة الأسرى مع أول غزوة قام بها الرسول الكريم فى يوم «بدر» فقد وقع فى يده عتاة قريش الذين ساموه وأتباعه العذاب. ولم يبادر بقتلهم ولكنه - على حد رواية الطبرى - جلس بين أصحابه يشاورهم. فقال أبو بكر: هم بنو العشيرة نأخذ منهم فدية حتى تكون لنا قوة وعسى الله أن يهديهم إلى الإسلام.

وقال عمر بن الخطاب بحمسه وحزمه: بل تمكننا من رقابهم فإنها رقاب أئمة الكفر والشرك. ومال الرسول الكريم إلى الرأى الأول فأخذ الفدية، ومن لم يكن معه مال جعل فداءه أن يُعلم عددا من أولاد المسلمين القراءة والكتابة. وهكذا أصبح العفو والفداء هما القاعدة لا القتل والاسترقاق. ولكن الأمور لم تسر دائما على هذا المنوال. فما أقل الأتقياء وما أكثر الطغاة، خاصة إذا أخذوا سماتنا الشرقية المطلقة. فقد أعاد العثمانيون الأسرى إلى غنائم الحرب مرة أخرى وكانوا يأخذون الأطفال من المدن التى يفتحونها ويضعونهم فى

مستوطنات خاصة بعيدا عن أهاليهم ويلقنونهم المبادىء العسكرية الصارمة لينشأ منهم جيل من المحاربين «الإنكشارية» الذين لا يعرفون الرحمة.

وفى القرون الوسطى شاعت الفدية خاصة بالنسبة للملوك، وكان جمع المبالغ الباهظة من الناس يتطلب وقتا طويلا، وأشهرها كانت فدية الملك ريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا الذى وقع في أسر صلاح الدين فى الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩م) وفدية الملك لويس التاسع الذى قام بغزو مصر وأسر فى المنصورة وظل يأخذ (علقة) يومية فى سجن ابن لقمان حتى دفعت الفدية، وأيضاً فدية جان لوبون ملك فرنسا (١٣٥٠م) والذى وقع أسيرا خلال حرب المائة عام.

وفى القرن السابع عشر بدأ سن أول قوانين الحرب. وشرّع القانون الهولندى هوجو جروشيوس قانونا يرى أن «باستطاعة الآسر أثناء الحرب استعباد الأسير ولكن دون أن يقتله». وفى عام ١٦٤٨ عقدت معاهدة «وستفاليا» التى نصت على «تحرير الأسير دون دفع فدية» وكان هذا أول تشريع دولى يحاول إنهاء ذلك النوع من الاستعباد الذى لازم البشرية منذ تاريخها. لقد أضاءت كتابات مونتسكيو وجان جاك روسو حول مفهوم حق الحرية بالنسبة للإنسان أيا كان نوعه أو وضعه وفتحت الطريق لعدد من المعاهدات الدولية على حسن

معاملة الأسير. وقد نصت معاهدة جنيف فى عام (١٩٢٩م) على «أن على الآسر أن يعامل الأسير كما يعامل جنده، وألا يرغم الأسرى على القيام بأعمال إلا وفق إرادتهم ومقابل أجر».

ولكن النازية الصاعدة لم تعترف بهذه الاتفاقية فأقامت أفران الغاز ومعسكرات التجميع القاسية وابتكرت أساليب التعذيب الجسدى وغسل الدماغ. وتفوقت إسرائيل عل النازيين فى هذا الأمر فقد مارست تعذيب الأسرى منذ وقت مبكر من إنشائها وظهر ذلك من خلال التحقيقات التى أجرتها اللجان الدولية منذ عام ١٩٤٨م.

لقد نصت آخر اتفاقية من هذا النوع وهى اتفاقية جنيف الثالثة الموقعة فى ١٢ أغسطس (١٩٤٩م) على اعتبار أسرى الحرب تابعين لسلطة الدولة الآسرة وليس لسلطة الأفراد أو الوحدات العسكرية التى أسرتهم. وعلى هذه الدولة أن تعاملهم دون تمييز للون أو العنصر أو العقيدة الدينية أو السياسية، وألا تنزل بهم تعذيبا بدنيا أو معنويا وألا تجردهم من شاراتهم ورتبهم وأن تتوافر فى معسكراتهم الشروط الصحية اللازمة وأن يقدم لهم الغذاء واللباس اللازمان وأن يكون لكل معسكر مستوصف طبى للعلاج، كما يحق للأسرى ممارسة نشاطهم الفكرى والثقافى والرياضى ويسمح لهم

بإرسال البطاقات البريدية وتسلُّمها ولكن تحت الرقابة. ويحاكم أسرى الحرب أمام المحاكم العسكرية فقط. ولا يجوز إصدار حكم على أسير دون إعطائه فرصة للدفاع عن نفسه والاستعانة بمحام أو بمستشار قانونى. ويفرج عن أسرى الحرب ويعادون إلى أوطانهم لدى وقف الأعمال العدائية. فأين النظام العراقى من كل هذه الحقوق الإنسانية؟

العائدون من الجحيم :

إن العائدين من عذابات المعتقلات العراقية لنا يقدمون لنا شهادات مروعة عن الظروف المأساوية التى يعيش فيها البشر الذين أوقعهم سوء الحظ فى أيدى هذه السلطات، وبرغم اختلاف جنسياتهم فإن انطباعاتهم واحدة، والكلمات التى يصفون بها تجربتهم البشعة تكاد تكون واحدة أيضا. فالرهينة الأمريكى كينيث بيتى الذى قضى فى السجون العراقية ٢٠٥ أيام بعد أن تم أسره داخل حدود الكويت يقول: «كان الطعام قذرا جدا، وبرغم شدة الجوع كنت أخشى تناوله خوفا من أن يضعوا لى السم فيه كما أخبرنى بعض الحراس بذلك» .

ويصف الأسير المصرى فتحى عبد الستار وهو آخر من عاد من السجون العراقية تجربة اعتقاله أو بالأحرى اختطافه من على الحدود الكويتية ـ العراقية بأن المحكمة الصورية التى

عقدت لمحاكمته بتهمة التجسس طالب الادعاء فيها بحبسه سبع سنوات فحكم القاضى بثمانى سنوات واقتيد إلى سجن أبى غريب الشهير حيث وضع وسط كل حثالات البشر وبلغ السجن من الازدحام أن كل سجين كان ينام طوال الليل على جنب واحد ولا يستطيع التقلب إلى الجنب الآخر.

ويصف المهندس أحمد العدسانى، وكان يشغل منصب وزير الكهرباء والماء فى الكويت بعد التحرير، فترة أسره فى معتقل البصرة بأنه كان فى عنبر مظلم هو و٤٠٠ فرد من الكويتيين، كان من بينهم العجائز والصبية الصغار وتم حشرهم داخل هذا العنبر تحت وطأة القصف الجوى وأقفلت عليهم الأبواب لأيام طويلة بلا طعام ولا ماء اللهم إلا الماء الملىء بالأوحال وبقايا المطر.

ويحكى لنا الطبيب الكويتى بدر بورسلى، وهو متخصص فى الأمراض النفسية، عن الجنون الذى أصاب رجال النظام العراقى ورغبتهم العارمة فى تعذيب الأسرى، وهو يرى فى ذلك كله محصلة من التخلف الإنسانى أعراضها القسوة والغلظة وعدم احترام الإنسان. فبعد رحلة طويلة داخل المعتقلات قاساها هو وغيره من الأسرى من معتقلات الموصل.. إلى معتقل الرشيد فى بغداد إلى أن أعيدوا إلى الموصل مرة أخرى حيث البرد القارس. ولم تكن المعاملة

الطيبة للسجناء الكويتيين تتعدى حدود تبادل الكلام، بل إن إرادة الشر كانت مستمرة. فقد عرضوا على الدكتور بدر كميات كبيرة من أقراص «الفاليوم» ليهدىء بها من روع السجناء الكويتيين معه. لكنه كان يعرف مخاطر إدمان هذا الدواء ويدرك النوايا الشريرة وراء هذا السخاء، لهذا كان يعمل على منع تدواله بين زملائه ويتحاشى وصفه لهم. ثم إن الطعام السيىء القليل، والمياه الشحيحة والبرد، مع ندرة وجود الأغطية، ظل هو الشىء الثابت دون تغيير، حتى أن بعض السجناء وقد اكتشفوا نبات «الرشاد» ينمو تلقائيا بين جنبات السجن بعد أن وضع بذوره السجناء الإيرانيون الذين حلوا به من قبل، أخذوا تحت وطأة التجويع العراقى يأكلون ما يعثرون عليه من هذا النبات، برغم أنه كان مرتعا للأمراض الطفيلية إذ تتسرب إليه مياه الصرف فى سجن الموصل. وبدأت الطفيليات تفتك بأجساد السجناء الكويتيين، ولولا ستر الله لفنوا جميعا.

ويروى المقدم يعقوب الياسين أيضا تجربة أسره، وهو أحد العسكريين الكويتيين وقد كان يقضى إجازته فى لندن حين سمع أخبار الأزمة التى سبقت الاحتلال فقرر أن يعود إلى الوطن قبل الغزو بساعات محدودة وتم أسره عندما حاصرت القوات العراقية القاعدة التى يعمل فيها. وهو يروى فى

سخرية مريرة ذلك التخبط الذى كان فيه الآسر والفوضى التى لا تحكمها إلا غريزة العدوان. فقد بدا واضحا أن القائد العراقى لا يعرف ماذا يفعل بالضبط بما يحمله من شحنة أسرى بعد أن اجتاز بهم الحدود الكويتية إلى داخل العراق. لقد ذهب بهم من الزبير إلى البصرة ومن معسكر إلى آخر. ثلاثة معسكرات وكل مسئول عنها يقول «ما عندى أمر». ولما كان العطش قد بلغ بهم حدودا قاسية راح الضباط العراقيون يطلبون من الناس العاديين فى فترات التوقف أن يسقوهم - أى يسقوا العسكريين فقط - بلا مبالاة بالأسرى.

ويتذكر يعقوب الياسين مشهدا سأل فيه أحد الأسرى فتاتين عراقيتين فى ملابس ضافية أن يحضرا ماء للشرب «نحن كويتيون يا أختى نبغى ماء» وكان ردهما فى ذهول «يابا .. كويتيين» وذهبتا لتعودا بالماء ولكنه قبل أن يصل ليد الأسرى جرى الحارس العراقى يطارد الفتاتين بخيزرانته وهما تهربان مولولتين صائحتين «يابا دول مو إسرائيليين..»».

الحرية والأسر :

إنها حالة مؤلمة من حالات «افتقاد الحرية» بالنسبة للآسر والمأسور على السواء، وافتقاد الحرية هو أقصى عقاب يمكن أن يوقع بالإنسان، فهو انتزاع له من جذوره ومجتمعه وإحاطته بالأسوار المادية والمعنوية، وخلق حالة من الخوف

وعدم الثقة فى داخله. إن العراقيين الذين عاشوا طويلا تحت ظل نظام قمعى لا يتيح لهم أى بارقة أمل فى الحرية أصبحوا لا يعرفون قيمة الحرية بالنسبة للآخرين.

ومهما فعلت الأنظمة التسلطية التى كانت تملك أدوات وإمكانات أعتى من النظام العراقى فقد فشلت فى انتزاع حس النزوع إلى الحرية بالنسبة للأفراد، حتى أن القوانين الوضعية قد أصبحت فى الوقت الحاضر تدور فى فلك الشخصية الإنسانية. إن هناك إيمانا عاما بأن الإنسان يؤلف كائنا قائما بذاته متمتعا بشخصية خاصة به مستقلة عن غيره، ومن هذه الوحدانية التى يتصف بها تنبثق الحقوق والحريات المتصلة بذاتيته الإنسانية. هذه الذاتية لا تستطيع القوة الحاكمة أن تتجاوزها، أى مهمة القوانين الوضعية هى أن تصون الإنسان بكليته، كإنسان، وإنسان معنوى اقتصاديا واجتماعيا.

وإذا كان الكثير من هذه الحقوق مهدرا فى عالمنا العربى فإننى أزعم أنها ملغاة تماما خلف الأسلاك الشائكة التى يحيط بها النظام العراقى بلاده. وليس هذا استنتاجا شخصيا ولكنه معتمد على عشرات الشهادات والوثائق التى تفضح يوميا ممارسات هذا النظام. إن هناك «دياسبورا» عراقية حقيقية حيث يعيش الملايين من أبناء هذا الشعب فى

المنافى البعيدة يتنازعهم الشوق إلى أرض الوطن والخوف من الخطر القادم من الوطن. معارضون ومنشقون وطنيون فقدوا أمنهم من قسوة المطاردة التى تطالهم إلى كل مكان يذهبون إليه، فالنظام العراقى لا يتصرف وفق سمت الدولة المسئولة ولكن وفق سمت المنظمات الإرهابية السرية على حد تعبير المعارض العراقى حسن العلوى، وهو يقول فى مقدمة كتابه بذاك العنوان «العراقيون أسرى فى كل حال. أسرى فى الحرب وأسرى فى مواقف الباصات، وأسرى المنازل، والمقاهى خالية، والسفر ممنوع إلا فى حالتين أن ترمى عائلة عراقية وراء الحدود تنفيذا لقانون التهجير، أو أن يكون المسافر حاملا ورقة للتحويل الخارجى أو أمرا قياديا فى مهمة خاصة.. إن منظمة سرية كان يبشر بها طلاب حسنو النية تحولت إلى قوة سياسية ذات قدرة عالية على التخريب المنظم».

هذه الدولة أو المنظمة الإرهابية لا تستند إلا إلى قوانينها الخاصة ومصالح أعضائها الشخصية. وهى تمارس أكبر قدر من الإرهاب ضد من توقعه مجرد المصادفة فى طريقها. ولعل كتاب «القسوة» الذى كتبه عامر بدر حسون عن حالة أستاذة جامعية عراقية ألقى القبض عليها لمجرد الاشتباه فى أنها تحاول الخروج من العراق مثلما فعلت بقية عائلتها. وقد

تعرضت هذه الأستاذة التى أطلق عليها اسم «ليلى» لصنوف من التعذيب والانتهاك الوحشى ما يفوق تخيل أى عقل بشرى سادر فى القسوة المبالغ فيها.

وهو يقول فى نهاية كتابه ذاكرا وصية ليلى الأخيرة إليه «أنا ليلى أختكم. دخلت السجن فى العراق بإرادة شرطى وقضيت سنوات طويلة تحت الأرض لا أفرق بين الكاب البوليسية والكلاب البشرية التى تناوبت على تعذيبى، أنا ليلى أختكم .. كنت أهان وأضرب وأعذب كل يوم، استطعت الإفلات من السجن بمعجزة لكننى أعرف أن زينب وفاطمة وسعاد وكل صاحبات الأسماء التى تخطر ببالكم مازلن هناك يتعرضن للإذلال والأذى وأقصى درجات القسوة..».

وربما كان النظام العراقى هو النظام الوحيد فى العالم الذى يعلن عن عدائه لبعض الطوائف فى شعبه فى وضوح، بل ويكيل لهم الاتهامات السياسية والاجتماعية والدينية، بل وتصل لهجة الخطاب السياسى الرسمى إلى حد البذاءة أحيانا، فجريدة الثورة العراقية تهاجم سكان الأهوار وشيعة الجنوب العراقى الذين ثاوروا على سلطة حزب البعث فى مارس ١٩٩١ بأبشع الألفاظ وتنعتهم بأقذر الصفات. وتقول الجريدة الرسمية بتاريخ ٥ مارس عام ١٩٩١ «إن ما يتصل بالأهوار من شئون الحياة ومن العلاقة بين الرجل والمرأة لم

يتأثر بشعائر الدين الإسلامى كثيرا كما أن معايير الحلال والحرام فى الهور وأطرافه ليست معايير الحلال والحرام التى يفهمها أهل بغداد أو النجف أو القادسية سواء فى حقول الملكية أو العلاقة الجنسية أو الزواج. وغالبا ما نجد عند هؤلاء نمطا من الانحرافات تترك عند سماعها الفم فاغرا. ومن المعروف أن الكثير من الذين أعدموا بقرارات من محكمة الثورة جراء الزنا بالمحارم هم من بين هؤلاء الصنف من الناس. وعموما فإن بعض هذا الصنف فى أهوار العراق هم من أصول جاءت مع الجاموس الذى استورده القائد العربى محمد القاسم من الهند»!!

ولا أريد أن أسترسل فى المزيد من هذه الشهادات.. ولكنها تصل بنا جميعا إلى حالة الأسر والافتقاد إلى الحرية التى يعانى منها الشعب العراقى.. تماما كما يعانى منها بعض أبناء الشعب الكويتى المحتجزين فى العراق، وحين أحلم بالحرية فإننى أحلم بها للجميع ولا أستطيع أن أحس بالعافية مادام جارى مريضا مهما بلغ سوء أخلاق هذا الجار.

قبل النفق المظلم :

أمامى نتائج دراسة قام بها الدكتوران أحمد عبد الخالق وعويد سلطان المشعان من قسم علم النفس بجامعة الكويت حول إدراك الآثار النفسية للعدوان العراقى لدى طلاب

الجامعة الكويتيين وقد شملت العينة ٦٥٢ طالبا من الجنسين بعد عامين تقريبا من التحرير واحتوت قائمة هذه الآثار على ١٥١ عنصرا مؤثرا . وجاء فى مقدمة هذه الآثار «كراهية بعض الدول العربية - الشعور بعدم الأمان - زيادة الإيمان بالله - وعدم الاطمئنان للمستقبل السياسى - التفكير فى احتمال عودة الغزو - عدم الثقة بالعروبة...».

إن مبعث الخوف هنا أن هؤلاء الشبان يستعدون لدخول نفق مظلم لا نود أن يدخلوه، ولا نريد أن تتراكم هذه الآثار حتى تصبح موقفا من الجنس العربى الذى ينتمون إليه. ولا نريد أن يزرعوا فى أنفسهم أسوارا تعزلهم عن التفاعل مع مجتمعهم العربى. وما يزيد من خطورة الحالة هو إحساسهم بأن هذا الجار العدو مازال متصلبا مهددا متوعدا يقبض على جزء من أهاليهم ويحتجزهم رغما عنهم.

هل يمكن أن نعتبر إطلاق سراح الأسرى والمفقودين بداية لإغلاق ملف هذه الأزمة العربية الطاحنة؟. إنها خطوة لابد منها تفك الآسر والمأسور فى آن واحد. تخلصهم معا من آثار الضغينة والكراهية التى تخلفت عن آثار العدوان، وتتيح لهما معا أن يريا تاريخ الخلاص. وفى اعتقادى أن فك أسرى الكويت سوف يساهم فى التعجيل بفك أسر الشعب العراقى الأسير بأكمله.

لم أكتب هذا المقال كى أستعطف أحدا أو لأذرف الدمع على الماضى.. بل كتبته كى أوجهه لضمير كل عربى وكل قارىء ومثقف كى تصل إليه الرسالة بوضوح دون لبس، فلأول مرة فى تاريخنا الحديث يحتجز عربى عند عربى أسيرا مقهورا طوال هذه المدة . ومن يود إصلاح البين عله يتذكر دموع أهالى الأسرى ولوعتهم، وعله يتذكر كم من الظلم وقع ومازال يقع على بشر تحولوا من أحرار إلى أرقاء، ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين.. فهل أسمعت؟.. اللهم فاشهد .

٦

من صمت الحملان ،
إلى سحق الإنسان
تأملات فى أغوار
كارثة الغزو

مثل غيمة سوداء تقبل ذكرى يوم الغزو - الثانى من أغسطس عام ١٩٩٠ - فتتدافع إلى النفس صور مفزعة يستدعى بعضها بعضا

ولأن الشئ بالشئ يذكر، فإن الخطر يمتلئ بصور دامية شتى، من مصدرين متباعدين، لكنهما يلحان على البال - الآن - معا. أحدهما كتاب وثائقى مصور عن آثار التعذيب التى مارسها عسكر الغازى فى أجساد شعبنا. وثانيهما شريط سينمائى ذاع صيته أخيرا تحت اسم «صمت الحملان» ويتحدث عن المجرمين آكلى لحوم البشر. وإذا ألقينا نظرة هنا وأخرى هناك فإن الرعب المتشابه سيأخذ بألبابنا.. أجساد سلخت جلودها، وأطراف بشرية احترقت حتى العظام فى أحواض الأحماض الكاوية.. وجوه نهشتها أسنان وحوش بشرية. وعيون اقتلعتها مخالب بشر ليسوا كالبشر، بطون مشقوقة، وجماجم مثقوبة، وحروق أقطاب مكهربة.. وتصرخ النفس من هول ما ترى: كفى، كفى. فتنغلق العينان زهدا فى رؤية المزيد من صور الألم الإنسانى. لكن البال ينشغل بالانطباع الذى يصنعه كل ذلك الرعب والأسئلة التى تلقيها صور الشريط السينمائى على مغزى صور الكتاب. وتتشابك محاولات الإجابة.

فهل ندلف إلى شىء من التفصيل ؟

وحوش تحت جلود بشرية:

تحكى قصة فيلم «صمت الحملان» المأخوذ عن رواية للكاتب «توماس هاريس» عن شرطية تستدعيها رئاستها لتتولى محاولة فتح ثغرة فى لغز مجنون. طبيب نفسى مولع بأكل لحوم البشر، تم القبض عليه بعد جرائم اختطاف عديدة جرى فيها سلخ جلود الضحايا والتهام أجزاء من لحومهم. أودع الطبيب المجرم فى زنزانة مصفحة فى مبنى هو خليط من المصحة والسجن.. بوابات حديدية تتعاقب، وكاميرا مراقبة تلفزيونية، وحوائط من الصلب والزجاج المصفح. وأمام واجهة الزنزانة وقفت الشرطية الصغيرة مرتعدة تحاول - بمساعدة دراستها السابقة لعلم النفس - أن تحصل على أى شئ من الوحش يقود إلى وقف عمليات اختطاف متجددة يجرى فيها أكل لحوم الضحايا.

تواجه الشرطية الصغيرة مخلوقا مصقولا كأنه من صخر.. جسد مشدود، وجبهة عريضة عالية، ووجه أصم، وعينان لامعتان لايطرف لهما جفن. وبصوت عميق ثابت، ثباتا مخيفا، يبدأ الذكاء الشرير للطبيب الوحش فى الرد على أسئلة الشرطية الصغيرة.. يرد على السئوال بسئوال، وبدلا من فتح ثغرة فى بنيان جرائمه وما يشابهها من جرائم (يعرف عنها الكثير لأن مرتكبيها وحوش مرضى من مرضاه السابقين)..

بدلا من ذلك يفتح هو فى بنيانها النفسى الرقيق ثغرات وفجوات. فتستسلم لتحليله النفسى لها عبر الاعترافات، وسرد الأحلام، وفحص الرسوم التى تقدمها إليه طائعة مذعنة.

بذكائه المتوقد ومجموعة حواس مشحوذة تشبه حواس حيوان مفترس يعرف أى نوع من «الكريم» كانت تضعه على بشرتها منذ يومين مضيا، ويعرف هواجس نفسها، وأى نوع من الكوابيس تداهمها. ورغم أنها لاتفقد حماسها للحصول منه على مزيد من المعلومات عن مجرم وحش اختطف ابنة أحد أعضاء مجلس الشيوخ . ورغم دخولها فى مغامرة شجاعة للإمساك بالوحش الآخر الطليق مستخدمة ما جاد عليها به الوحش السجين من فتات المعلومات التى ينثرها نثر من يتسلى بضحية يرتب لذبحها والتهامها. رغم هذا كله إلا أن الشرطية الصغيرة تبدأ فى فتح عينيها بفزع على عالم من الشك فى نوازع السلوك الإنسانى. شك يكاد يفقد أنقى الذكريات جوهر براءتها، ويومئ إلى أن الكثير من تصرفات البشر تنطوى على نوع من الشر الكامن.

وليست الشرطية الصغيرة وحدها هى من يتملكها هذا الشعور، إنه المتفرج أيضا .. يخرج من مشاهدة الفيلم وقد اهتز يقينه فى إنسانية الإنسان، يتساءل: هل يمكن أن يكون

تحت جلود البشر وحوش كاسرة إلى هذا الحد؟ حد التهام لحم البشر وهم أحياء ! هل فى دواخل البشر غابة مرعبة إلى هذه الدرجة؟

أسئلة يطرحها فيلم «صمت الحملان» المبنى على رؤية نفسية مريرة. وأسئلة مماثلة تطرحها علينا عمليات التعذيب التى مارسها عسكر الغازى فى لحوم البشر.. فى معتقل المشاتل، وسجون البصرة، وزنزانات بغداد الانفرادية. ولعله مازال يمارسها فى لحوم أسرانا فى سجن أبو غريب ومعتقل الرضوانية والراشدية وسجون تكريت وبيجى، بل ويمارسها على مواطنيه وشعبه.

إنها أسئلة لابد أن ترد إلى أصولها حتى يستقيم البحث. فإذا كان مسعانا هو الحديث عن الآثار النفسية والاجتماعية للغزو الصدامى للكويت، فإن الغزو نفسه فى حاجة لأن نتأمل أغواره المظلمة والثنايا التى خبأت ما تمخض عنه من ملهاة ضربت الحس العروبى فى الصميم، ومأساة دفع ثمنها البشر، لا فى الكويت الجريح وحده، وإنما بشر هذه الدنيا العربية من الخليج إلى المحيط، بل وغيرهم ممن تقطعت بهم سبل الرزق، أو فقدوا كريم العيش.

الغزو.. علامات استفهام وتعجب :

الغزو.. كلمة تعنى فى قاموس التاريخ البشرى أن يجتاح

فصيل من الناس فصيلا آخر، فى انتهاك للأرض وحقوق البشر على هذه الأرض وإذا بحثنا عنها فى عالم الحيوان فإننا نتعجب. فالغزو لدى الحيوان أمر مختلف تماما، وهو تعبير متوحد مع كلمة الهجرة، وتضعه كتب سلوك الحيوان كمرادف عندما تعالج ظاهرة الهجرة، لدى الحيوانات. وهى هجرة تمليها ضرورات الحاجة إلى الماء والطعام والبيئة المناسبة لاستمرار الحياة. فطيور الشمال تهرب من صقيع الشتاء إلى دفء الجنوب، والجاموس البرى يقطع مسافات هائلة فى قلب إفريقيا عندما يداهمه الجفاف ويستطيع أن يحس بالماء الذى يهطل على مبعدة مائة كيلومتر من موقعه. حتى الجراد الذى تسمى هجراته غزوا، يهاجر أيضا بحثا عن الطعام. أما الغزو الذى يمارسه البشر لأرض البشر وضد إرادات البشر وولوغا فى دم البشر، فهذا نوع من العدوان لا تعرفه مملكة الحيوان. فالثعبان لا يلدغ ثعبانا، والنمر لا يطارد نمرا، والضبع لا ينهش جثة ضبع، ولا ينقض النسر الكاسر على نسر من بنى جلدته. هذا السلوك «الحيوانى» يضع الغزو البشرى فى مأزق السؤال: ما هى الدوافع والحوافز؟ ولا مفر من الاجتهاد، وفى هذه الحالة سيكون اجتهادا مزدوجا لأنه بحث فى حالة خاصة من السلوك العدوانى لدى الإنسان.

ثمة مدخل فى كتاب «سيكولوجية الإرهاب» للدكتور عزت

سيد إسماعيل وإشارات متفرقة فى كتب علم النفس وغيرها فى كتب علم الاجتماع. ومن المدخل والإشارات تتكون محاولة الإجابة.

لقد لجأ علم النفس وعلم الاجتماع إلى الإيثولوجيا Ethology أى علم الدراسة المقارنة لسلوك الحيوان وبخاصة فى بيئته الطبيعية. والهدف هو تحديد طبيعة العدوان Agression والسلوك العدوانى لدى البشر، أفرادا وجماعات. فالغزو (البشرى) عملية تدميرية تتضمن العدوان وتستخدم العنف بهدف إلحاق الأذى بالآخر. وجاءت محاولات التفسير الإيثولوجى للعدوان لتبحث ادعاء أن العدوان سلوك غريزى، ومن ثم تكون اجتياحات الغزاة وهجماتهم جانبا لا مفر منه فى الطبيعة البيولوجية للبشر. ولقد تبنى هذا الموقف، من علماء النفس - أتباع فرويد - كل من روبرت أرديرى، وديزموند موريس، وكونراد لورنز. لكن سرعان ما وجهت الانتقادات إلى آرائهم على اعتبار أنه لم تلاحظ أية شواهد على قيام غريزة العدوان لدى الإنسان.

صحيح أن الإنسان شأنه شأن الثدييات جميعا يأتى إلى الوجود ولديه مقدرة ولادية موروثة، على العنف والسلوك العدوانى. إلا أن التعبير عن هذه المقدرة معلق على عامل خارجى. ثم إن الشىء الملحوظ فى السلوك البشرى أنه متعلم.

وعلى خلاف من سيادة الاستجابات الموروثة فى سلوك الحيوان فإن الإنسان يتحرك فى نطاق من التكيف بحيث أصبح سلوكه محكوما بما تعلمه من استجابات. ثم إنه - أى الانسان - أخذ ينمو وينتهج طريقة ككائن حى فى إطار من الظروف الحضارية القيدة للغرائز المدمرة.كانت الاعتراضات على غريزة العدوان تحاول الانتصار للإنسان بما هو إنسان يرقى عن حضيض الحيوان، الذى لم نر فى حضيضه تدنيا يفوق انحدار البشر آكلى لحوم البشر، والبشر غزاة البشر.

لكن صنفا آخر من العلماء كان أكثر تشاؤما وشكا فى الإنسان، أبرزهم - من بين علماء الايثولوجيا- لورنز الذى يوصف بأنه الأب لهذا العلم المقارن وأحد الحاصلين على جائزة نوبل، فهو يصر على أن العدوان ينبع من غريزة للمقاتلة يشترك فيها الإنسان مع الكائنات الأخرى. وحتى يبرهن على صحة افتراضاته، أشار لورنز إلى أن إنسان بكين البائد الذى اكتشفت بقايا منه فى الصين عام١٩٢٩والذى كان من أوائل البدائيين الذين تعلموا الاستفادة بالنار إنسان بكين هذا استخدم النار فى شواء بنى جنسه. وكان دليل لورنز على ذلك وجود عظام مشوية لأفراد من إنسان بكين نفسه. لكن هذا البرهان دحضه عالم آخر هو«مونتاجو». مثبتا أن العظام البشرية المشوية كانت لأفراد من إنسان بكين

قتلتهم المجاعة وطالتهم النيران . وأكد مونتاجو أن تاريخ البشرية لم يقدم دليلا على أن الإنسان ثبتت فيه عادة قتل رفاقه أحياء للاغتذاء بهم.

لم يثبت أن عدوان الإنسان على الإنسان قدر مقدور ولا غريزة لا يمكن مقاومتها. حتى لورنز المتشائم فى لمحة من لمحات شكه فيما وصل إليه من سوء الظن بالإنسان، قرر أن مشاعر المحبة الإنسانيه قد تعادل تعابير العدوان وتعيق حدوثه. ورأى لورنز أن الألعاب التنافسية يمكن أن تشكل مخارج جماعية للعنف وأنه من خلال طقوس الفرح والإعلاء يمكنه استئناس العدوان.

فأى عدوان هذا الذى يمكن تنفيسه ببعض من المحبة واللعب؟! إنه لاشك عدوان لا يصل أبدا إلى حد فقء العيون ونشر أطراف الاحياء بالمناشير واغتصاب العجائز وثقب جماجم الأطفال بالرصاص ونقع الأحياء فى أحواض الأحماض الكاوية، وهذا غيض من فيض التعذيب الذى ابتلى به أهلنا فى ظل الغزو والاحتلال العراقى.

فى إطار الغزو، إذن، كصورة من صور العدوان، لم يجد لورنز (مع عالم آخرهو روبرت أرديرى) أية دافعية غريزية حقيقية، إلا فى حالة واحدة يشترك فيها الإنسان مع الحيوان، هى غريزة دفاعية توظف العدوان للذود عن «المنطقة» التى

يسكنها من الأرض. فالإنسان يمكن تعريفه كمعظم الكائنات بأنه مخلوق منطقة محدودة A Territorial Being فالميول العدوانية عنده ترتبط بمساحة محددة من الأرض والمكان. أى بلغة أخرى غريزة الدفاع عن البيت والوطن. وفى مجال السلوك المقارن لدراسة هذه الغريزة الدفاعية ذات الشكل العدوانى وجد أن دخول حيوان غريب إلى أرض آخر من النوع نفسه يؤدى إلى نشوب معركة يكون البادىء فيها هو مالك الأرض ويكون أكثر شراسة فى مهاجمة الدخيل. بينما إذا جاء حيوان مختلف عن نوع مالك الأرض، من حيث العادات الغذائية والطبيعية، فإن المبادرة الدفاعية ذات المحتوى العدوانى لا تحدث، ذلك أن المسألة تتحدد فى الخوف من فقد المأوى والأنثى. وبلغتنا: الأرض والعرض. ومعروف أن الذكور تحارب عن منطقتها وعن الإناث فى فترات التزاوج.

فمن أين تنبع دوافع الغزو البشرى إذا لم تكن غريزة موروثة؟!

شماعة الديموغرافيا، وغيرها:

فى كتاب نشر فى فرنسا عام ١٩٦٣ وترجم إلى العربية تحت اسم «الحرب والمجتمع» قام بتعريبه الأستاذ عباس الشربينى وراجعه أستاذ علم الاجتماع الدكتور محمد على محمد. قدم المؤلف ـ عالم الاجتماع ـ «جاستون بوتول» محاولة

رائدة لتأمل جذور «النزعة الحربية»، وتحليلا اجتماعيا نفسيا للحروب ونتائجها. نتوقف أمام ملامح بارزة لهذا التحليل ونحن مثقلون بوطأة ذكرى الغزو المشئوم، لعلنا نتخفف من بعض المرارة عندما نفهم النوازع الشاذة التى يخالف فيها الإنسان فطرته التى فطره الله عليها. فبدلا من الدفاع عن بيته وآل بيته كسائر مخلوقات الله، حتى تستمر الحياة ولا ينقطع النوع، نراه يهاجم بيوت إخوته وجيرانه!

يطوف جاستون بوتول بساحة الحروب، من حروب الأساطير القديمة، والحروب اللاهوتية، حتى الحروب فى عرف الفلسفة. ورغم تعارض الآراء فإن النتيجة التى نخلص منها هى أن النزوع إلى الحرب ليس غريزة ولا حتما. وتحت عنوان الوظيفة الأولية للحرب ينتهى بوتول إلى أنها: التدمير البشرى، وأن الهدف المقصود منها هو التوازن الديموغرافى (السكانى). فالحرب تستأصل من الجماعة عددا من الرجال عن طريق الإبعاد والتدمير.. فالحرب هى «تهجير مسلح للسكان». فهل كان هذا (التهجير المسلح) كامنا فى العقل الباطن لصدام وهو يدفع بشعبه إلى حرب أشعلها ومكثت ثمانى سنوات دون انطفاء. وما كادت هذه النار تهجع حتى استدار ليغزو بيوت جيران وإخوان مشعلا نارا أخرى مازال لظاها مشتعلا فى الذاكرة ورمادها يملأ الحلوق.

إن التعمق فى استكشاف أغوار الظواهر البشرية عبر التحليل الاجتماعى والنفسى يمكن أن يصيبنا بدهشة بالغة. فنرى أن الغزو كملمح غير فطرى، وضمنه النزوع الحربى والعدوان، ما هو إلا تعبير عن تشوه نفسى عميق فى تركيبة قائد الغزو وسلطان «أم المعارك». أما مسألة الضغط الديموغرافى (السكانى) وإزالته عن طريق الحرب فهى ذريعة هتلرية ملفقة تماما. والأرجح أن صدام حسين قرأ كتاب هتلر «كفاحى» واستمع إليه وهو يقول: «ومتى احتوى الرايخ أبناءه جميعا يمسى عاجزا عن إعالتهم، ومن العوز ينشأ حق هذا الشعب فى الاستيلاء على أراض أجنبية». وكشف زيف هذه المقولة يسير تماما، فهل كان هتلر عاجزا عن إعالة أبناء الجمهورية الألمانية بينما هو قادر على تجهيز وتسليح جيش كونى! مثله صدام حسين.. يعسكر أمة تمتلىء أرضها بالخيرات، محولا ثروتها إلى بارود وحديد وسموم وجراثيم، ثم يتكلم عن توزيع الثروة كأنه من المعوزين.

ومن الغريب أن تتحول هذه الذرائع الملفقة (كعلة الديموغرافيا) إلى عقيدة لدى مشعلى الحروب، وليس أدل على ذلك مما جاء فى كتاب «حرب تلد أخرى» على لسان سعد البزاز أحد المقربين للنظام العراقى إذ يقول: «كيف ينبغى التصرف بجيش المليون؟ كانت هذه هى المشكلة، فبقاء

جيش بهذه الضخامة بدون فعالية هو ضرب من التعطيل لقدرة الشعب وهدر مادى. لابد من واجب ميدانى لهذا الجيش وإلا تحول إلى عبء على المجتمع وحضور مقلق للنظام». فهل هناك إجرام أبشع من أن تحل الأنظمة الديكتاتورية مآزقها بإشعال نيران الحروب؟!

إن قراءة التركيبة النفسية لقائد كارثة الغزو، فى ضوء معطيات الفصل السادس من كتاب جاستون بوتول (السمات السيكولوجية للحروب)، ستضع يدنا على تشوه فى شخصيته بالغ الانحراف يجعلنا نقرر أن صدام حسين لم يكن يريد تدمير الكويتيين وحدهم، بل إنه فى الأساس، منذ حرب الخليج الأولى حتى غزوه للكويت، وإلى الآن، كان يريد تدمير المزيد من شباب العراقيين بإلقائهم فى نيران حروب لم يكف، ولعله لن يكف، عن اختلاقها والحلم بها. إن التحليل الاجتماعى والنفسى يقول إن صدام كان يكره جنوده إلى درجة القتل.. ويالها من مفاجأة .

صدام وعقدة الأب الحاسد :

رغم تنوع الدوافع التى تغذى النزعة الحربية، والتى تمثل مجرد «علل اتفاقية»أو ذرائع، فإن الثابت هو ارتباط هذه النزعة بمركبات النقص والشعور بالفشل والشعور بالذنب، مما يدعو إلى القول بأنها حالة نفسية فمن الشعور بالفشل

تتولد الرغبة فى إلقاء تبعات الخيبة على الآخرين. بينما تتجه عقدة الشعور بالذنب إلى نوع من التسامى يُظهر بطولة كاذبة، أما الشعور بالنقص فإنه يحرك الأفراد والجماعات باتجاه التعويض. وعندما تكون الذات الفردية أو الجماعية مشوهة فإن الشعور بالنقص الحضارى - على سبيل المثال - يجد شفاءه الكاذب فى تنمية قوة الشراسة والعدوان.

وعلى مستوى رجال الدولة من النوع الذى يعانى كل ما سلف من تشوه تبدو الحرب أو الغزو - بديناميـاته الحربية - حلا أسهل للتعويض عن كل نقص وفشل وشعور بالذنب. فالحرب تعفى من عناء البحث عن حلول وسط تتطلب جهدا فى حساب التوازنات الدقيقة. وكما يقول «جاستون بوتول»: «تعتبر الحرب فترة راحة للحكومات فهى تفرض الصمت والخضوع واحتمال الحرمان، لأن المواطنين يتحولون خلالها إلى رعايا ويصير الزعماء قابلين للعزل». بل يصير الزعيم موضع حب حتى عندما يكون قاسيا ومنحلا مثل يوليوس قيصر، أو ماكرا ميت القلب مثل هانيبال، أو جاهلا مخادعا مثل صدام.

لقد كانت إرادة الله، خالق النفوس جميعا وعالم أسرارها وخباياها، أن يعالج نوازع النفس البشرية بما يحفظ للإنسان

كينونته كأشرف مخلوقاته. أما البشر المشوهون فإنهم يعالجون نوازعهم بما يحط من شأن الإنسان ويحيل الوجود إلى غابة تصخب فيها وحشية هذه النوازع. ولعلنا نجد فى حديث جاستون بوتول ما ينطبق تماما على شيطان غزوة أغسطس صانع كارثة الخميس الأسود، ومهندس نكبة العرب الثانية: «ونجد لدى قادة الحرب، أولئك الذين يمارسون القيادة المطلقة، ظاهرة يمكن أن نطلق عليها عقدة الأب الحاسد». فالقيادة المطلقة تملى مواقف سيكولوجية أبوية إلى الحد الذى يكون فيه الأب هو الرئيس المطلق السلطات والحبر الأكبر لأتباعه. ويصير ذبح الأبناء قربانا ممتازا أو ضحية لا مثيل لها عند التكريس لعمل ما أو سياسة ما. هكذا كان إيفان الرهيب قيصر روسيا وبطرس الأكبر وأجا ممنون الذين قتلوا أبناء وبنات لهم. وتنوب الحرب، بطريق غير مباشر، عن هذه المهمة إذ يرسل الزعيم إليها أفضل أبنائه. ويبدو أن عقدة الأب الحاسد تمثل معنى آخر يختص بإبراز النزاع بين الأجيال (وهذا النزاع بين الكبار والصغار من الذكور معروف تماما عند الحيوانات) ذلك أن جيل الآباء الآمرين يجدون أنفسهم إزاء شباب فائر ذى طموح يتجاوز إمكانات إرضائه وتوظيفه، ومن ثم يميل الزعيم - الأب المسيطر - إلى الحرب

كحل مثالى، عن وعى أو بدون وعى، لهذا المأزق الخطير.

إنه ذبح للأبناء يرتدى ألف قناع وقناع بينما حقيقته: كراهية الأب المتسلط المريض لأبنائه. الأب مشوه النفس الذى ألقى بأبنائه ثمانية أعوام فى حرب مهلكة - كان يمكن تحاشيها - وما كادوا يخرجون منها ويلتقطون بعض أنفاسهم حتى تملكه الرعب منهم فابتكر لهم حربا أخرى - كان يمكن تحاشيها بكل تأكيد - وكانت مقامرة ومحرقة.

ولا عزاء للبراءة:

إن وجود هذه النماذج المشوهة، من القادة الذين يحلون مآذق سلطاتهم كلية الهيمنة بذبح الأبناء عن طريق المغامرات العسكرية، تكون حلقة شريرة تنشر التشوه حيثما حلت أو غزت. وإدراكها لهذه الحقيقة، وفى محاولة لتلمس الجراح التى خلفها الغزو، بغية علاجها أو محاصرتها. عقد فى الكويت فى شهر أبريل الماضى* «المؤتمر الدولى لدراسة الآثار النفسية والاجتماعية والتربوية للعدوان العراقى على دولة الكويت». وجاءت بحوث المتخصصين لتشير إلى حقيقة مرة، هى أن التشوه الروحى الذى حرك الغزو أوشك أن يشوه

* نشر هذا المقال فى مجلة العربى - العدد ٤١٧ - أغسطس ١٩٩٣

صفحات نقية فى كتاب البشر. أصابع شيطانية راحت تعبث ببراءة الصغار، بعد أن بددت طمأنينة الكبار، ومضت تاركة آثار مخالبها على ذلك كله.

فمن مجمل الظروف التى صنعها الغزو وما تلاه، الاحتلال الحاد والمفاجىء فى الحياة اليومية والضغوط الناجمة من الخوف على أفراد الأسرة والإرهاب المفرط وشراسة العسكر الغزاة وافتقاد الكويتيين للشعور بالأمان، تولد الخوف والتوتر والكبت والاكتئاب. وعرف الإنسان الكويتى أنماطا سلوكية لم يعهدها تشير إلى طبيعة الحياة النفسية التى دفع إلى جحيمها إبان الغزو. وكان الأطفال هم أول من تلظى فى هذا الجحيم. لفحت نار الشر كياناتهم الطرية الهشة. وتحول الكثيرون منهم، بين يوم وليلة، بين عشية الأربعاء وصبيحة الخميس الأسود، إلى نوع استثنائى من الأطفال المعرضون للخطر الهائل Children at Risk بل: الأطفال المعرضون للخطر الهائل High Risk Children فقد تلقوا الصدمة مضاعفة، صدمة ذويهم بكل انعكاساتها المؤلمة، وصدمتهم هم إزاء ما وقعت عليه أعينهم البريئة المرعوبة. وظهرت على الأطفال أعراض تعتصر القلب مثل أعراض «عصاب الطفولة» و«ذهان الطفولة» أى أمراض نفس الطفولة، وأمراض عقل

الطفـولة. وعـرف عـالـم البـراءة مـرارات كـالإعـاقـة السلـوكـيـة والعـاطفـيـة. وبات كـثـيـر من الأطفـال كـالشـيـوخ والمحـاربين القـدمـاء فى حـاجـة إلى «إعـادة تأهـيل». ومن بين هـؤلاء كـان أطفـال مـرحلـة الروضـة الذين تتـراوح أعـمـارهم بين ٣ و ٦ سنوات!! ناءت كـواهلهم الصـغـيـرة بعبء جنون ثقـيل رمـاه عليهم مشوه كبير لم يهنأ له العيش إلا بتشويه العالم من حوله وعبر حدود الجيران.

الوحش سائب والأعزاء مقيدون :

لقـد امـتـلأت بحـوث المؤتمر الدولى لدراسـة الآثار النفـسـيـة والاجـتمـاعية للغزو بكثير من التفـاصيل عن الحـصـاد المر لما زرعه الشيطان مر من هنا، والذى مـازال طليقا يمارس شروره حتى لحظتنا هذه . ومأساة الأسرى والمحتجزين الكويتيين فى السجون العـراقية مثـال لذلك. لن يسـتطيع عاقـل أن يفـهم بعد كل مـا حـدث مـغـزى الاسـتـمـرار فى أسـرهـم واعـتـقـالهـم، إلا أن يكون ذلك جـزءا من عـدوانيـة الشـخـصـيـات «السـيـكوبـاتيـة» المريضة، مرضا نفسيا إجراميا.

وفى هذا الشـأن يلح أيضـا البـعد النفسى والاجـتمـاعى فى مـشكلة الأسـرى والمفـقـودين. وإذا كـان هؤلاء غـائبـين فـإنهم حـاضـرون بكل الألم فـى حـيـاة ذويهـم اليـومـيـة وفى تـوتر

نفوسهم. فتجاه اعتقال الأسير أو احتجازه يتملك شعور بالذنب ذويه الذين لا يكفون عن الترديد في دواخلهم: «لو كنت منعته من أن يخرج من البيت».. «آه لماذا لم أفعل شيئا لمنعهم من اعتقاله». ثم التصور المستمر لمعاناة الأسير مما يقود إلى الاكتئاب، والشعور باليأس من فعل شيء يفك قيد الأسير، والعزلة عن الآخرين الذين تبدو حياتهم الطبيعية اجتراحا لجلال مصاب أسرة الغائب. آلام لم ينج منها صغير أو كبير، حاضر أو غائب. وما كان أغنانا عن كل هذه الآلام التى صنعتها إرادة نفس، أو نفوس، مشوهة.

هل من عودة إلى صمت الحملان ؟!

بعد مطالعة هذه الأغوار فى ثنايا كارثة الغزو. أجد المشهد الختامى لمجموعة العواقب الاجتماعية والنفسية لفعلة صدام، يستدعى المشهد الختامى فى فيلم «صمت الحملان» وبين المشهدين تتصاعد صرخة ينبغى أن تتردد أصداؤها حتى تلامس أقصى الأفق. فبعد أن تكررت فى الفيلم جرائم اختطاف أخرى سلخت جلود ضحاياها وأكلت بأسنان بشرية أجزاء من لحومهم، ضجت الأسئلة وتشابكت الخيوط، وهيىء لنا أن المجرم المجنون على وشك السقوط وإطلاق سراح آخر الضحايا فى هذه اللحظة تمكن الطبيب النفسى - الوحش

السجين ـ من الهرب بعد أن أكل وجه واحد من حراسه. وعندما نجح الكمين الأخير وبدا لنا، ولبطلة الفيلم، أن الرصاصات التى أطلقتها قد نالت من المجرم الشامل الذى كان سجينا وطليقا فى آن واحد. وبينما يجرى احتفال قومى لتكريم الشرطية الصغيرة، البطلة، إذ بمكالمة تليفونية تأتيها، وعلى الطرف الآخر من الخط حيث يتحدث الصوت الثابت المخيف، كان الإنسان الوحش.. الطبيب المجنون المجرم الهارب، غير هيئته ومضى مختفيا فى قلب الزحام.

إنها صرخة تقول لنا إن البشر الذين توحشوا ـ مع الاعتذار لوحوش الحيوان بكل عمق الاعتذار ـ مازالوا مطلقى السراح وإن الخطر ماثل. علينا أن ننتبه إلى ذلك الشذوذ الوحشى ونفضحه، خاصة عندما يرقى سدة الحكم، فإنه فى هذه الحالة لا يأكل لحم ضحايا منفردين من البشر، بل ينهش لحم مجتمعات بكاملها، ويهدر دم أمم وقيم وأحلام باتساع أرض الإنسان الإنسان، وعمق قلب الإنسان الإنسان.

٧

حتى لا تموت فاطمة !

مرة أخرى.. تأملات وأحزان بعد ثلاث سنوات من التحرير

سوف أحدثكم عن فاطمة، فرغم مرور سنوات ثلاث على مرارة الغزو وفرحة التحرير لم تترك ذاكرتي.

لم تكن فاطمة عبد القادر الفتاة التي تهتم بما يخبئه المستقبل، فهي وقد تفتحت عيناها على حياة سهلة، توفرلها- ما توفر لأقرانها- في كويت الستينات من دعة واستقرار وأمل بالمستقبل فها هي تلتحق بالمدرسة منذ السادسة وتنتقل من فصل إلى آخر في سهولة ويسر، يؤهلها لذلك ذكاؤها فوق المتوسط، وعندما اجتازت إلى الجامعة كانت شعلة متوقدة من النشاط في اتحاد الطلبة، وتحول هذا النشاط بفيض من نفس مرهفة إلى بعض الجمعيات الخيرية. وجدت نفسها تهتم بالجانب الاضعف من المجتمع والمعوقين على وجه الخصوص، ولم تجد أن هناك تناقضا بين عملها كمدرسة للغة الإنجليزية وبين نشاطها الاجتماعي، بل لقد يسرت لها الوظيفة والراتب الذي لم تكن تحتاج منه الكثير أن تكون أكثر نشاطا في المجال الاجتماعي، لم تفكر بالزواج، لأنه قادم ولاشك، كانت فقط تنتظر الرجل المناسب. فوق ذلك كله فإن نشاطها في الجامعة وما قبلها وحتى في جمعية المعلمين التي انضمت إليها بسبب عملها لاغير ..كان كل ذلك بعيدا عن السياسة، وفجأة وجدت نفسها وسط أتون السياسة. بل وفي الجانب المظلم والمعتم منها.

فقد استيقظت فى اليوم الثانى من أغسطس١٩٩٠على حركة غير عادية لم تتبين كنهها . وكعادتها فى صباح الإجازة كانت تذهب إلى الجمعية الخيرية التى تقضى فيها وقتها الصباحى، وفى الطريق استرعى انتبهها على غير العادة طابور من السيارات العسكرية، لم تكن فاطمة وقتها تفرق بين ناقلة الجنودأو العربات المصفحة كانت فقط تعرف شكل الدبابات لكثرة ما شاهدتها فى الأفلام الحربية التى تعرضها الشاشة الصغيرة، لم يسعفها ذكاؤها لتتبين ما يحيط بها، حتى وصلت إلى قرب أحد مداخل المدينة فاستوقفتها ثلة من الجنود أحست لأول وهلة أنهم جنود من وطنها وتكلم أحدهم بلهجة آمرة أن تعود من حيث أتت، وتبينت من تلك اللهجة أنها عراقية.

منذ تلك اللحظة وقد أفاقت فاطمة عبد القادر على وعى جديد بأن وطنها محتل،وأنها أمام خيارين أحلاهما مر، أن تخضع للاحتلال وتعيش تحت الخوف المضاعف الذى يفرضه على نفسها وأسرتها المكونة من والد ووالدة طاعنين فى السن، وأخوات وإخوة يعيشون متناثرين فى أحياء المدينة، أو تترك بيتها ووطنها إلى أرض أخرى.

بعد مراجعة للنفس قررت فاطمة أن تأخذ منحى آخر.

لن تعرض أسرتها وأخوتها لخطر لا تستطيع رده، ولن

تغادر وطنها أيضا، ولكنها سوف تقوم بالدور الذى يفرضه عليها إحساسها بالواجب الإنسانى، وانخرطت بعد أيام من احتلال وطنها، وبعد مرور الصدمة الاولى، فى مجموعة من الأصدقاء والصديقات من أجل المقاومة، ليست السلبية فقط وإنما الإيجابية أيضا، فبعد تشاور مع الإصدقاء ومعرفة ردود الفعل التى كانت تأتى من الخارج بدا كأن العالم كله يصحو من الذهول عربا وأغراباً وأن بلادا مسالمة وصغيرة كبلدها لايمكن أن تلغى من الجغرافيا والتاريخ بنزوة ديكتاتور متسلط، وتتراكم فى الأجواء نذر مقاومة على مستوى الدولى والإقليمى وفى الجوار.

بدأت فاطمة مقاومتها بطريقتها الخاصة، وهى أن تواصل عملها الإنسانى تجاه المعوقين الذين التزمت برعايتهم. كان الموقف مرعبا فقد رحل معظم الأطباء والمرضين وانقطعت إمدادات الادوية والغذاء، وبدت هذه المخلوقات غاية فى التعاسة، فقد تخلى عنها كل الذين تعودت أن تعتمد عليهم فهى لا تستطيع أن تطعم نفسها أو تنظف نفسها ..وتولت فاطمة هذا الأمر هى ومجموعة من صديقاتها، بدأت تنقل الطعام والأدوية وأدوات التنظيف..وتداوم الاتصال بالأطباء وتحافظ على الإنارة والمياه وتدفع الجنود العراقيين المتلصصين وتخبىء كل ما تعتقد أنه جدير بالسرقة بواسطة

جنود الاحتلال . كان هاجسها الأساسى هوألا تدع هؤلاء المعوقين يذوون من الإهمال ويدفنون فى صمت عجزهم . وفى الأسبوع الأول من أكتوبر١٩٩٠أوقفتها مجموعة تفتيش حول أحد المحاور، واكتشفوا معها كمية كبيرة ومتنوعة من الأدوية والأطعمة المحفوظة. وكان أول ما تبادر إلى أذهان الجنود أنها تنقل هذه الأشياء لرجال المقاومة، لم يقبلوا منها أى عذر، ولم يقتنعوا بأى مبرر، وكانت الأدوية فى نظرهم لاتقل خطورة عن الأسلحة المهربة. وهكذا اقتادوها إلى أحد مراكز الاعتقال، لابد أن التحقيق كان قاسيا ومريرا فبعد ثلاثة أيام أخذوها إلى منزلها وهى بين الحياة والموت، ودعوا أبويهاوجيرانها إلى الخروج من المنزل وعلى مرأى منهم ومن بقية أهالى الحى شدوا فاطمة بملابسها الممزقةإلى أحد أعمدة النور، وتقدم ثلاثة من الجنود ومزقوا جسدها بالرصاص تحت أعين الجميع.

كان الجميع شهودا على مجزرة هذه الفتاه وكانوا يعرفون كيف بذلت من ذات نفسها من أجل الآخرين، لذا كانت قتلتها مروعة مثيرة للفزع والخوف.

العراق ونزيف الخسائر :

لماذا أتذكر هذه القصة الآن، ولماذا سوف أظل أتذكرها؟

ليس فقط لمجرد إثارة العاطفة أو للتباكى على مصير هذه

الفتاة التعسة التى تولاها الله برحمته، ولكن لأن حكايتها هى تجسيد حى لمرض الاحتلال .. اغتصاب أراضى الآخرين وبيوتهم تحت وطأة الاحتلال، وهو مرض يشوه الجميع ويصيب برذاذه القاتل أعماق النفس الإنسانية . فكل الفظاعات التى ارتكبها جنود الاحتلال سواء أثناء الحكم النازى أو فى الأراضى العربية المحتلة أو أثناء الغزو العراقى للكويت، تجعل الجنود يتصرفون بوحشية أكثر من حد احتمال النفس البشرية وبعض الجنود يظلون يعانون من كوابيس هذه الأعمال لفترات طويلة . وهكذا نجد أن الجلاد وضحيته فى حاجة ـ معا ـ إلى العلاج، فالإحساس بالذنب والخوف المبالغ فيه من الضحية. وإحساسه بأنه قد تحول إلى قوة قاهرة تنزع الأمان عن الآخرين كل هذا كفيل بأن ينزع الأمان من نفس المحتل ويحول تصرفاته إلى أشبه بالتخبطات الحيوانية بعد أن افتقدت المنطق الإنسانى .

ولن تستطيع تجنب تكرار مثل هذه المآسى إلا بتحكيم العقل وتوجيه النقد القاسى إلى النفس قبل أن توجهه إلى الآخرين. ولعلنا نتساءل ـ حتى لا يحدث ما حدث مرة أخرى ـ ما الذى دفع النظام العراقى للقيام بالغزو؟ إنه سؤال لا يبدو قديما كما يتبادر إلى الذهن، فقد تكشفت الصورة الآن، وزالت كل مبالغات الانفعال لتترك الفرصة للحقائق الباردة كى تعبر عن

نفسها، هل كانت حقا دوافعه هى ما زعمه النظام من أن الكويت - وبقية الخليج - قد زادوا من إنتاجهم النفطى بحيث أوصلوا أسعار النفط إلى الحضيض ؟ وهل كان هدف النظام - كما زعم - هو إعادة توزيع الثروة؟

قبل وقوع الاحتلال مباشرة، أوردت وكالة رويتر تقريرا مهما عن خسائر العراق فى الحرب العراقية الإيرانية، وكانت جملتها حوالى ١٥٠بليون دولار، ثمن الأسلحة والذخائر، وبلغ الاقتراض العراقى الخارجى «غير العربى» ٣٥ بليون دولار، ومثل الاقتراض العربى من السعودية والكويت رقما مماثلا.

وكان على العراق أن يغطى ذلك الثمن الباهظ الذى تستهلكه آلته العسكرية، لذلك فقد قرر أن يرفع مستوى إنتاجه النفطى إلى أعلى سقف ممكن للإنتاج، وقد أعطته الأوبك حصة عاليه تبلغ ٢.٨مليون مليون برميل يوميا تحت مبرر احتياجاته الشديدة، ولكن الطاقة التصديرية العراقية وقتها كانت تصل إلى الضعف تقريبا وتتراوح بين٤- ٥ , ٤مليون برميل يوميا - وفى ظل هذا السباق المحموم للإنتاج هبطت الأسعار إلى أدنى مستوى لها.

وبعد انتهاء الحرب مع إيران واجه العراق أزمة من نوع جديد، هى عودة آلاف المجندين وتوقف عمليات التنمية وهروب الاستثمارات الاجنبية، وكان التحدى الذى يجب أن يواجهه

هو إحداث نقلة نوعية فى إدارة الاقتصاد تكفل له حسن استخدام الموارد، بحيث تنقل الدولة من الاقتصاد العسكرى إلى المدنى، ولكن هذا الأمر لم يكن مقبولا من وجهة النظر السياسية، فقد كان مطلوبا لتحقيق ذلك نوع من الانفتاح السياسى والتعددية وتخفيف قبضة الديكتاتورية بحيث يمكن كسب ثقة المستثمرين الخارجيين وأن يستعيد القطاع الخاص عافيته، وكل هذا يعنى فى نهاية الأمر فقدان السلطة على حد تصور النظام الحاكم، وكان هذا هو المستحيل بالنسبه له.

وليست الحرب فقط هى التى أحدثت كل هذه التشوهات فى بنيان الاقتصاد العراقى، فالنظرة الأحادية للدكتاتورية جعلت كل الاحتمالات تسير فى الاتجاه الخاطىء بحيث دفعت البلاد إلى حافة الهاوية.

فقد كان عدد سكان العراق عام١٩٧٠حوالى٩,٥مليون نسمة، وارتفع حسب إحصائيات١٩٨٧إلى أكثر من١٦مليونا بزيادة قدرها ٣.٣- ٣.٥٪ سنويا وهى واحدة من أعلى النسب فى العالم، وكان جزء من الدوافع وراء هذه الزيادة سياسيا، فقد شعر النظام أن كبر حجم السكان هو الاتجاه الافضل لتلقيم ماكينة الحرب، وكأن القضية فى نهاية القرن العشرين هى قضية عدد وليس نوعية، وتحول الأمر من منع تعدد الزوجات بموجب قانون إلى إباحة هذا الأمر وتحبيذه بواسطة

قانون آخر.

وفى مواجهة هذه الزيادة فى عدد السكان لم يكن فى خطط النظام العراقى أى نية لتطوير الإنتاج أو تنويع النشاط الاقتصادى، بل إن المؤسسة العسكرية لعبت دورها المدمر فى إهدار الطاقات العراقية، حيث أفرغت الطاقات المؤهلة بالتعليم من كفاءتهاوقدرتها على كسب المهارات وشنت الحروب غير المبررة كى تقضى عمليا ونفسيا على ملكات التعليم المهنى لدى الأفراد.

وهكذا نمت فى مخيلة النظام العراقى أوهام أوصلته إلى أن دخوله الكويت هو الحل الوحيد لكل مشاكله المتفاقمة ، أو أنه البديل الواقعى للأزمة الاقتصادية والسياسية الطاحنة التى يواجهها ، حتى أن سعدون حمادى نائب رئيس الوزراء العراقى فى ذلك الوقت تحدث إبان الاحتلال العراقى للكويت عن «القدرات الاقتصادية الهائلة التى أصبح العراق يمتلكها بفضل الاحتلال» .

هكذا بدأت الكارثة بمثل هذه التخيلات المرضية .. وتواصلت وراء الإصرار الأعمى من دمار البنية الأساسية إلى حريق النفط إلى نزيف البشر دون أى مراجعة للنفس حتى هذه اللحظة .

ولن أركز هنا على الخسائر المادية التى منيت بها الكويت،

وهى كثيرة ، ولا الخسائر النفسية والاجتماعية التى أصيب بها أفراد الشعب وهى جسيمة ، ولكن لنر المسألة فى إطارها الأوسع فى تلك الخسارة الاقتصادية والسياسية التى أصابت معظم البلدان العربية بسبب هذا الغزو.

العالم العربى وخسائره الباهظة :

تفيد تقارير صندوق النقد الدولى أن خسارة البلاد العربية من جراء الاحتلال العراقى للكويت بشكل مباشر أو غير مباشر تفوق قيمتها ٦٥٠ بليون دولار ، أو ما يكفى لبناء ٢٥٠ مليون منزل تسع ملايين الأسر العربية ، وهذا المبلغ يعادل قيمة كل الأموال العربية المستثمرة فى الخارج .

لقد أدت هذه الخسائر الى تداعيات كثيرة دفعت الأوضاع الاقتصادية إلى الوراء وخلقت فى البلاد العربية ضغوطا مالية أدت إلى تباطؤ النشاط الاقتصادى بشكل عام والاستثمارى بشكل خاص ، وأصبحت المنطقة العربية بالنسبة إلى العالم الخارجى وفق المنطق الاستثمارى منطقة «ذات مخاطر» والتنمية فيها غير مأمونة ، ووُضعت ظلال من الشك حتى على العملة العربية حيث بدأت بعض البنوك وأسواق المال العالمية فى التحفظ على التعامل بها.

وقد تأثرت دول بعينها بأيام الاحتلال الطويلة ، فحسب تقرير البنك الدولى فإن مصر وحدها قد انخفضت مواردها

من النقد الأجنبى عام ١١ بنسبة ٣٠٪ دفعة واحدة من جراء فقد التحويلات النقدية الخارجية ، بجانب انخفاض إيرادات السياحة وقناة السويس .

وقد بلغ إجمالى خسارة مصر ولبنان والأردن وسوريا وفلسطين المحتلة حوالى ٢, بليون دولار ، بسبب عودة مليونى عامل إلى بلادهم من النشطين اقتصاديا فما بالك بالعدد الكلى للعائلات المختلفة .

هذا هو الجانب المنظور فقط من الخسارة ، غير أن هناك جوانب أخرى غير قابلة للحساب والتقدير ، فقد اهتز النظام العربى ، وأصيبت العلاقات العربية - العربية إصابات مباشرة ، وحلقت فى سماء المنطق ظلال الشك والتخوف والحذر ، ولقد كشفت أزمة الخليج ضمن ما كشفت عن هشاشة النظام الأمنى العربى وطفولية اتخاذ القرار السياسى المصيرى ، وجعلت المنطقة برمتها نهبا لأطماع الآخرين .

ماذا أخذت التجربة من الكويت :

ربما كان هذا رصدا مطولا لنزيف الخسائر الذى ما زال مستمرا، وكان من الممكن أن نتجنب مثل هذا الرصد المؤلم لو أن خالقى الأزمة والمتسببين فيها قد راجعوا أنفسهم ووجهوا إليها بعضا من النقد الذاتى، وكان من الممكن الرثاء لحالة العراق الذى ما زال يعيش تحت حالة الحصار لولا إصرار

قـادة نظامـه على ممارسـة نفس الأسـاليب الديكتـاتورية الشـرسة، فـهو مـازال حـتى الآن لا يعـترف بوجود الأسـرى الكويتـيين لديه، قبل ذلك لـم يعـترف أيضـا بوجـود الأسـرى الإيرانيين، كأنما لا يكفيـه مـلايين العـراقـيين المعتـقلين تحت قبضـتـه، وما زال يرواغ فى الاعتراف بترسيم الحـدود العراقية الكويتـية الـذى أقـرته الأمم المتـحـدة، ومـا زالت التـضـاريس العـراقـيـة وشـعـاب الجـبـال تكشف عن المزيد من مـخـابىء الأسلحة الكيميائية وبالتالى مازال الحصار متواصلا.

وإذا كنا قـد ألقينا هذه النظرات المطولة على كل مـا يحـيط بهذه الأزمة ومـلابسـاتها التى ما زالت آثارهامسـتـمرة، فـإن الحـديث يسـتلزم أيضـا نظرة مطولة وتحليليـة على البـيت الكويتى من الداخل، وعلى آثار الأزمة وتداعياتها.

إنهـا آثار بعـضـهـا واضـح غـاية الوضـوح وبعـضـهـا رابض تحت الجلد الكويتى الذى التـهب وسط أتون الأزمـة، ومـا زال يعـالج جراحـهـا حـتى الآن . ولعل السـؤال الذى يفـرض نفسـه الآن على الجميع هو؟ ماذا أخذت منا التجربة وماذا أبقت؟

سـؤال حـائريدور فى أذهـان أهل الكويت بـعد سـنوات ثلاث من عـمـر التـحـرير. ودائمـامـاتبـقى هـذه الأسـئلة التى تعلق بالمصير والهوية والانتماء تحيط بها الحيرة.فـهى ترسم مـلامح الكويت ـ الدولة، والكويت ـ الانتـمـاء، والكويت ـ النـاس وكل

ملمح من هذه الملامح يثير إشكالية خاصة.

فالكويت - الدولة تعودت دائما أن يكون دورها السياسى أكبر من حجمها الجغرافى، وما يحدث الآن هو محاولة لتقويم طموح هذا الأمر . وكما قال سمو أمير الكويت الشيخ جابر الأحمد الصباح فى إحدى خطبه:«لكى تكون خطواتنا نحو أهدافنا ثابتة، فعلينا أن نتوخى الواقعية، وأن ندرك حجمنا ،وأن تكون طموحاتنا فى حدود قدراتنا حتى لا نصاب بخيبة أمل، وأن تكون تطلعاتنا فى حدود إمكانياتنا حتى لا نشعر بالإحباط، ورحم الله امرءا عرف قدر نفسه» فهل تعو د الكويت إلى زمن الدولة - الديرة حيث كانت الأمور أكثر بساطة وأقل تعقيدا؟أم عليها أن تظل تمارس الدولة - الدور بكل ما يحمله هذا الأمر من تبعات؟

والكويت - الانتماء عملت دائما على أن تكون وسيطا وعاملا مهدئا بين كل الخلافات العربية - العربية، التى كثيرا ما تثور ونادرا ما تهدأ وها هى الآن تجد نفسها رغما عنها طرفا فى واحدة من أشد هذه الخلافات مرارة. فهل يمكن أن تضمد جراحها وتعلو على آلامها وتعود إلى زمن التوازن مهما كان حرجا .. وكيف يتأتى لها أن تتجاهل أنه على حدودها الشمالية يربض جار حانق وطامع لا يريد أن يستمع إلى صوت العقل رغم كل ما أريق من دماء

وما احترق من آمال؟

والكويت ـ الناس ألفت ريح الديمقراطية مهما كانت لافحة، فلا يكفى ذلك البرلمان الذى أقرته جموع الناخبين تحت اسم مجلس الأمة، ولكن تجربتها الديمقراطية تمتد إلى عشرات البرلمانات الصغيرة التى تأخذ كل ليلة شكل «الديوانيات » ويكون للمناقشات التى تدور فيها نفس التأثير الذى يحدثه البرلمان الكبير على صانع القرار، وفى كل هذه المنتديات لا يطرح الناس أسئلتهم حول مؤسسات الدولة الحاضرة فحسب، ولكن النقاش يمتد أيضاً ليشمل كل المؤسسات المستقبلية التى كان طموح الكويت أن تنفذ من خلالها إلى عالم الغد.

فهل يمكن أن تتنفس الكويت ريح الديمقراطية الطبية دون أن تحرق أصابعها فى رمضائها المحرقة؟

أسئلة حائرة الإجابة عنها لا تبتغى الراحة المؤقتة أو اليقين الزائف بقدر ما تسعى إلى سبر أغوار الحقيقة، مهما كانت قاسية على النفس.

الكويت تغيرت :

هل تغيرت الكويت كثيرا؟ وهل استطاعت أن تستعيد ملامحها القديمة؟

سؤال أواجهه كلما سافرت إلى الخارج فى مؤتمر أوندوة

علمية، وهو سؤال يحمل أحيانا نوعا من محاولة الاطمئنان، وأحيانا يكمن فى طياته نوع من التشفى الخفى. وتكون الإجابة بعد ثلاث سنوات من الغزو:«لقد تغيرت ولم تتغير» لأنه لاشىء يعود لسابق عهده القديم.

فى كل مكان بالكويت يوجد شعاران .. الأول هو شعار فرحة التحرير «الكويت حرة» والثانى شعار مازال يعبر عن آثار الحزن الإنسانى الذى مازال باقياً وهو «أين أسرانا؟» وما بين الشعارين تعيش أزمة من انعدام الثقة لا يبدو أنها سوف تنتهى بسهولة.

فعلى المستوى الخارجى مازال النظام العراقى يواصل تهديداته واختراقاته للحدود. ولا تزال أصداء أجهزته الإعلامية تصم آذان أهل الكويت وأشقائهم العرب وعلى امتداد الساحة الدولية تؤكد أطماعها وتواصل تهديدات العودة إلى الغزو من جديد .. آلة جهنمية مشحونة بكل نوايا الشر والعدوان موجهة ضد شعب صغير ورقعة ضيقة من الأرض تحاول أن تنزع أمنها الخاص ليلا ونهاراً.

وعلى المستوى الداخلى هناك افتقاد لروح العمل الجاد الذى ولدته ظروف الاحتلال فى نفس الإنسان الكويتى فخلال هذه الأيام العصيبة لجأ آلاف من الكويتيين إلى العمل

اليدوى، وبرزت بينهم درجة عالية من روح التعاون والاندفاع إلى العمل التكافلى والتطوعى، وكان الهدف الأساسى من وراء هذا هو الإبقاء على درجة «تشغيل»الدولة والدفاع عن الوجود والبقاء ضد محاولات التغيير والطرد إلى الخارج. إن هذه الروح التى كانت طفرة ونقطة أساسية قد ربطت تلك الأجيال الحالية بروح الماضى البعيد عندما كان أهل الكويت ينزعون رزقهم من ركوب الخطر مسافرين بعيدا فى مراكبهم الشراعية أو غوصا فى أعماق الخليج.

هذه الروح مهددة بالضياع وفى ظل مشاعر الخوف والتوتر تمتد آثار الصدمة كى تقضى على كل ما هو إيجابى والذى يمكن أن تخلفه أى تجربةإنسانية مهما كان ثمنها فادحا.

ولا يمكننا إنكار أن المستوى الاقتصادى الذى تعود عليه أهل الكويت والوافدون بها قد تغير بعض الشىء، فبالإضافة إلى فاتورة الحرب الباهظة، وكلفة إعادة البناء فإن إنتاج النفط لم يعد بعد إلى مستواه الطبيعى قبل الغزو، ولم تعط الأسعار المردود المتوقع منها، ولكل هذا تأثيره الحاد على عمل الدولة وعلى نظرتها للمستقبل. إن تقرير صندوق النقد الدولى يدعوالكويت إلى تخفيض الرواتب وزيادة اسعار الوقود ووضع أسعار للخدمات التى تقدمهاالدولة بالمجان مثل

الصحة والتعليم والاتصالات، ولكن الحكومة لا تريد أن تلجأ إلى هذه الوسائل الآن، على حد التعبير القائل «إننا نستطيع أن نقتطع من الدهن، ولكن كيف يمكن أن نمس العظم؟»، وهذا ما دعا سمو ولى العهد ورئيس مجلس الوزراء الشيخ سعد العبد الله السالم الصباح إلى اتخاذ إجراءات فعالة قال عنها:

«لقد تم تكليف الجهات المختصة بإعداد دارسة وافية للوضع الاقتصادى فى البلاد لمواجهة العجز فى ميزانية الدولة مع مراعاة الظروف المعيشية لأصحاب الدخل المحدود، لإنعاش الاقتصاد الوطنى واسترداد عافيته».

فهل يمكن أن تعود مرة أخر ى لمجيب عن سؤال:هل تغيرت الكويت؟إنها نفس «الديرة» العزيزة ذات التوجة العربى الاصيل. ولكنها تعانى من جروح عربية كثيرة وهى تحاول أن تتغلب عليها، وربما تستطيع خلال هذا أن تعيد اكتشاف نفسها وأن تواصل الإجابة عن الأسئلة الصعبة المطروحة عليها.

ريح الديمقراطية الساخنة:

تطرح الديمقراطية نفسها كقضية ساخنة على الساحة الكويتية وفى كل الأوقات كانت هذه التجربة تكتسب سخونتها من حرارة الجو ومن الاختلاف فى الآراء والاجتهادات فى الرؤى ولكن من يراقب تجربة مجلس الأمة الحالى الذى يحمل الرقم سبعة والذى تم انتخابه منذ أكثر من عام

تقريبا يكتشف أن درجة السخونة بالغة الارتفاع هذه المرة.

إنها مسيرة طويلة أخذت جذورها من تراث الحكم العربى الرابض فى هذه المنطقة.

وإذا كنا نتمسك أحيانا بالمصطلح الغربى الذى يتحدث عن حكم الشعب بالشعب، فإن الديمقراطية فى الكويت تستمد الكثير من أصولها من مبدأ الشورى الإسلامى. وهو الأمر الذى يبرر كثيرا عوامل نشأتها وربما يوضح أيضا الدروب التى سارت فيها فيما بعد.

ففى أتون محنة الغزو العراقى للكويت وبين أخبارتحركات الجيوش والأساطيل وصرخات القتال برزت الديمقراطية كقيمة أساسية ومستقبلية أيضا فعلى مدى يومين وفى الفترة من ١٣إلى١٥/١٠/١٩٩٠اجتمع ما يزيد على ٥٤٠شخصية قيادية كويتية، فكرية واجتماعية واقتصادية وإدارية، فى مؤتمر شعبى فى مدينة جدة بالمملكة العربية السعودية، ليعلنوا تمسكهم بالشرعية الدستورية وليضعوا معا تصوراً لبناء كويت جديدة.

كان هذا المؤتمر الذى عقده الأمير وولى عهده مع هذه الشخصيات الكويتية المختارة بمثابة عقد جديد، يعيد إحياء كل التعاقدات السابقة التى أبرمت بين حكام الكويت وشعبها يعلن الأولون تمسكهم بالشرعية والدستور.

ويعود هذا التقليد إلى حوالى ٧٠عاما إلى الوراء مع بذور الديمقراطية الأولى، عندما تنادى كبار التجار والأعيان فى الكويت فى فبرايرمن عام ١٩٢١إلى اجتماع للنظر بشأن المشاركة الشعبية فى إدارة شئون بلادهم، لقد أصدروا وثيقة أشبه «بالماجنا كارتا» الانجليزية تحدد هده العلاقة بين الأمير ورعيته، وتمخض عنها قيام أول مجلس للشورى عام ١٩٢١وتبعه قيام المجلس التشريعى عام ١٩٣٨، ثم تلته التجربة الديمقراطية الحديثة.

هدا التقليد الكويتى أثبت أنه مازال مرعيا حتى وسط أحلك الظروف. وهو اليوم يؤكد نفسه من خلال هذه المناقشات الساخنة التى تتعرض لتداخل السلطات ومحاسبة الوزرا ء ومناقشة الاستثمارات الكويتية فى الخارج.

ومهما شطت هذه المناقشات فقد أثبتت تجربة الطائف أن أساس فكرة الشرعية الدستورية راسخ فى أعماق النخبة الكويتية، وأن مبدأ تبادل الحوار- ولو كان ذلك بالصراخ أحيانا- له إقراره فى ضمير الحاكم والمحكوم لأنهما أسرة واحدة.

جرح العلاقات العربية :

«لقد حطموا الجامعة العربية، وزادوا الفرقة، وأبعدوا المصالحات. وقبل أى مصالحات كان يجب أن نحل مشاكلنا

ولم نفعل شيئا من ذلك حتى الآن».

هذه بعض كلمات الشيخ صباح الاحمد النائب الاول لرئيس مجلس الوزراء وزير الخارجية الكويتى، وأقدم وزير خارجية عربى. لقد عاش الرجل كل المحن العربية وكان عاملا للوساطة فى معظمها، ولكن محنة الوطن الكويتى كانت أمرها على النفس، لأنها حولته إلى طرف متشابك لا يقدر كر الليالى على مداواة جروحه .

فلم تشق قضية الكويت الوطن العربى فقط، ولكنها شقت المنطق العربى والعقل العربى أيضا. فلم يتعرض العرب فى تاريخهم الحديث إلى قضية بهذا الوضوح والحسم، ومع ذلك لم تكثر البلبلة والشكوك والاختلافات حول قضية مثلما كثرت حول هذه القضية.

ومشكلة الكويت أن ظلم ذوى القربى أشد مضاضة على النفس، فقد اكتشف أن العديد من الدول العربية التى طالما وقفت معها فى نفس الخندق أصبحت تقف ضدها، وأصبح عليها أن تضع تسمية جديدة للوطن العربى تقسمه إلى نصفين: نصف ال«مع»، ونصف «الضد» . وهى تسمية لم يرض عنها الكثير من المثقفين الكويتين الذين كانوا يودون بشدة عبور نفق الأزمة المظلم، ولكن أحدا لم ينر شمعة هادية حتى الآن.

لقد كانت أصوات الشعب الكويتى والإدارة الكويتية متشددة فى أول الأمر، كانت تصر على أن تقدم كل دول الضد اعتذار رسميا وواضحا عن كل موقفها إبان الأزمة، وفى وقت لم يقدم فيه أى من الأطراف نقدا ذاتيا، فما بالك بالاعتذار؟

بعد ثلاث سنوات خفت حدة التشدد، وبدأ البحث عن معايير موضوعية لعودة هذه العلاقات، فقد طالبت الحكومة الكويتية هذه الدول التى اختلفت عنها بالاعتراف فقط بكل القرارات السبعة والعشرين التى أصدرتها الأمم المتحدة، بما فى ذلك قرار ترسيم الحدود بينها وبين العراق. وقد عبر عن هذا الموقف سمو ولى العهد مرة أخرى عندما أكد أن الكويت قادرة على تجاوز مواقف هذه الدول التى انحازت للنظام العراقى «إذا أكدت تأييدها ودعمها لقرارات مجلس الأمن ذات الصلة بالعدوان العراقى الآثم على الكويت بما فى ذلك القرار رقم ٨٣٣الخاص بترسيم الحدود الكويتية العراقية، وطالبت العراق بالتنفيد الكامل لجميع تلك القرارات وإطلاق سلاح الأسرى والمرتهنين الكويتيين، أما أولئك الذين ما زالوا على تأييدهم الأعمى للنظام العراقى ضد الكويت رغم انكشاف حقيقته العدوانية وثبوت بطلان مزاعمه، واتضاح طبيعته الإجرامية، فإن الشعب الكويتى لن تنسى إساءتهم ولن

يتجاوز مواقفهم المشينه»

والكويت عندما تفعل ذلك لا تطالب فقط بالحق الذى أقرته أكثر من ١٥٠دولة من دول العالم، ولكنها تسعى أيضا لتضميد الجراح العربية التى طال نزيفها، فهى تدرك أنها جزء من هذه الأمة جزء من «غزية» رشدها بعض من رشد هذه الأمة، أما الغواية فإن ثمنها يكون دائما باهظا.

فاطمة..وبقية «الفواطم» :

فاطمة الكويتية العربية يجب ألا تغتال مرة أخرى. لا فى الكويت ولا فى أى عاصمة أو مدينة أو قرية عربية. وعلينا أن نتعامل مع خلافاتنا العربية بوعى وعقلانية حتى لا يتكرر هذا الأمر، وحتى نوقف الاغتيالات اليومية التى تتعرض لها«فواطم» الأرض الفلسطينية المحتلة وفواطم الشعب العراقى . هاجس الكويت أنها عربية ولها دور عربى مصرة عليه، وراغبة فيه، وساعية نحوه، وهى على استعداد لأن تتحمل أعباء هذا الدور ولكنها تطالب الآخرين أيضا بأن يساهموا معها فى رفع الأحمال العربية..وما أثقلها .

٨

الكويت والاحتفاء بالثقافة العربية

وأنا على قرب زمني من أحداث شهر ثقافى ثَرّ عقد فى الكويت بين العشرين من نوفمبر وحتى العشرين من ديسمبر ١٩٩٥ - وهو مهرجان القرن الثقافى الثانى - أردت أن أتحدث هذه المرة فى الثقافة، الثقافة العربية المعاصرة، حديثا خاصا يقود إلى العام، وحديث وطن يقود إلى أوطان، ولكن قبل ذلك دعونى أنقل لكم بعض الشهادات، فقد كتب كاتب عربى مصرى كبير هو المرحوم الدكتور زكى نجيب محمود معترفا بأنه لولا قدومه للكويت لما أتيح له من الوقت للنظر فى تراث الثقافة العربية القديمة، وقد فعل وترك لنا - رحمه الله - كتابين على الأقل نتيجة هذه الخبرة، هما «هموم المثقفين» و«قشور ولباب».

وعندما كتب كتابه الأخير «غناء البجعة» أعاد ما أكده قبل ذلك. وحتى أنقل للقارئ إحساس هذا الفيلسوف العربى فإننى أنقل ما أشار إليه فى «حصاد السنين» إذ يقول: «وعند تلك الغضبة وما صاحبها من صدر يضيق وقلب أثقلته الهموم تلاقى رأس السنة الهجرية مع رأس السنة الميلادية فى يوم فاستبشر صاحبنا خيرا «يشير إلى نفسه» وإذا بذلك اليوم نفسه يحمل إليه برقية من جامعة الكويت تطلب استعارته لفترة، وهداه الله سبحانه إلى المسارعة بالقبول،

وهناك فى جامعة الكويت وجد الفرصة سانحة لأداء ما كان شديد الرغبة فى أدائه وهو أن يتعقب طريق «العقل» فى تراث العرب الأوائل، وذلك لأنه على يقين من رجحان العقل فى كثير جدا مما شغل به السلف من مشكلات تتصل بالحياة الثقافية». هنا تنتهى شهادة المرحوم الدكتور زكى نجيب محمود.

أما الشهادة الثانية فهى قادمة من مواطن سورى ومن الكاتب كريم الشيبانى إذ يقول: «فالدور الثقافى للكويت فى الوطن العربى كان كبيرا. وإذا ما أردنا التوقف عند جوانب الشخصية الكويتية فى نوازعها المختلفة يمكننا اختيار جانبين يشكلان عاملين شديدى التأثير، هما: الحس القومى والنزعة الديمقراطية..».

ونختم بشهادة لأحد المثقفين العرب الذى خبر الكويت من الداخل وساهم فى تكوين تدفقها الثقافى العربى وهو الدكتور فؤاد زكريا، إذ يقول: «وأستطيع أن أقول إن التجربة التى أضافتها الكويت فى ميدان الثقافة تعد تجربة ذات سمات فريدة تثبت بوضوح قاطع قدرة الثقافة على تجاوز الحواجز الأيديولوجية، والسير فى طريقها المستقل... ارتكزت تجربة الكويت على التدخل النشط للدولة فى قطاع الثقافة، وكانت

ثمار هذا التدخل إيجابية إلى حد بعيد، ولم يكن ذلك من أجل فرض وجهات نظر معينة إذ تنعكس على هذا الإنتاج معظم ألوان الطيف الثقافى».

تلك شهادات متعددة المداخل، فمن وقت وفرص للدراسة تتيحها جامعة الكويت للأساتذة الجادين فى تتبع دراساتهم دون تدخل أو فرض، إلى اعتراف بالعناصر الفاعلة لتهيئة جو ثقافى حر ومتشبث بالثوابت، إلى انعكاس ألوان الطيف الثقافية العربية من نقل وعقل، معاصرة وتراث، أنتجت فى النهاية ما يمكن أن نصفه بالواحة الثقافية المزدهرة بين واحات عربية أخرى.

الرافد النشط :

الثقافة فى الكويت هى جزء من تيار كامل ومتدفق هو الثقافة العربية، وهى رافد من روافدها ولكنه الرافد الأكثر والأرحب ضفافا، تماثله الحركة الثقافية فى بيروت والقاهرة ودمشق، وهو مع العديد من روافد الثقافة العربية يصب فى هذا النهر المتدفق، ولعل النشاط الثقافى فى الكويت قبل الاحتلال العراقى غيره من حيث المضمون والأهداف بعد التحرير لقد كانت الثقافة فى الغالب قبل ذاك الفاصل الحزين فى تاريخ أمتنا العربية منفعلة فأصبحت فاعلة، وكانت

تتعامل مع شعارات جاهزة يميل قطاع منها إلى اليسار الثقافى وقطاع آخر إلى اليمين الثقافى، وأصبحت بعد ذاك التاريخ ـ كجزء من الثقافة العربية الجديدة ـ تطرح الأسئلة ولا تكتفى بالمسلمات، تستخدم العقل وتتجنب العاطفة معترفة بقدرة الإنسان العربى على الإضافة واستخدام العقل للتمييز بين الخبيث والطيب.

وفى تجربة مهرجان القرين الثقافى الأولى ١٩٩٤ والثانية ١٩٩٥ صقلٌ لهذا المسار الجديد، فقد التقى على أرض الكويت نخبة من المبدعين العرب فى الرواية والقصة والسينما والمسرح، على خلفية معرض كتاب عربى ناجح دوليا، وعلى امتداد مجموعة من الندوات المتخصصة فى محاورات جادة لنقل العلاقة بين قطاعات المثقفين العرب من التوتر والصراع إلى الحوار والمشاركة، وإلى صراع الأسئلة وعدم الاكتفاء بالأجوبة الجاهزة، إنه مسار مطلوب من قبل النموذج السائد فى الثقافة العربية الآن. لقد استنزفتنا الشعارات السابقة وتحيزنا إلى درجة العمى إلى هذا الطرح أو ذاك، وقد آن لنا أن نرى الواقع كما هو، وأن نستخلص منه العبر والدروس.

وخلف مهرجان القرين. وخلف العديد من إنجازات الكويت

فى مجال الثقافة يوجد جهاز لابد من الإشارة إلى جهوده فى هذا المجال وهو المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب الذى يبلغ من العمر الآن ٢٣ عاما استطاع خلالها أن يرسى أسسا واضحة للثقافة والفنون والآداب وأن يصبح جزءا أساسيا من تلك السياسة الثقافية التى تبنتها الكويت. ولقد مثل إنشاء المجلس فى عام ١٩٧٣ إحدى الركائز الأساسية لحلم الكويت بأن يكون لها دور ومنهج فى مسيرة الثقافة العربية، يعرف اسمه جيدا من هم خارج الكويت من خلال المطبوعات التى تحمل اسمه.. أما من فى داخلها فقد كان البعض يفتقد دوره الطموح فى تطوير الفنون ورعايتها، حتى جاء مهرجان القرين الأول والثانى ليترجم نظرته الشاملة للعملية الثقافية بجوانبها المختلفة، فقد استطاع أن يقدم الكتاب ويقيم المعارض التشكيلية ويحيى الليالى المسرحية والموسيقية بجانب الندوات الأدبية التى شارك فيها العديد من رجالات الأدب والثقافة. وبذلك فقد لعب دور وزارة الثقافة المصغرة وهو الدور الذى أنشىء من أجله منذ البداية. وقد ساهم أمينه العام الدكتور سليمان العسكرى فى إعطاء هذا المهرجان بعده التكاملى والقومى أيضا.

الأفكار الممتازة:

تقول الحكمة: إن الأفكار الممتازة ليس لها عمر، فقط لها مستقبل. وأمامنا مجموعة من الأفكار الثقافية الممتازة التى تحتضنها الكويت كإصدارات ثقافية، فبجانب مجلة «العربى» التى تطالع فيها ما تنتجه نخبة المثقفين فى الأقطار العربية العديدة دون تمييز إلا الأفضل والأحسن والأجود، هذه المجلة التى تصل بعد أقل من سنتين من الآن للاحتفال بمرور أربعين عاما على إصدارها، وتسعى العربى إلى استعادة الدور الذى كانت تقوم به قبل الغزو، فسوف تصدر قريبا كتاب العربى الذى كان يعد مرجعا لكل المقالات المهمة التى تنشر على صفحات المجلة الأم وكذلك سوف تصدر «العربى الصغير» التى كان المهتمون وخبراء التربية يعتبرونها واحدة من أهم مجلات الأطفال فى الوطن العربى، هناك إصدارات أخرى عديدة تتوزع بين جامعة الكويت، ومؤسسة الكويت للتقدم العلمى، والمجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، وللتذكير فقط فإن جامعة الكويت تصدر اليوم عشر مجلات علمية متخصصة اثنتان منها بالإنجليزية هما مجلة «العلوم» ومجلة «العلوم الطبية» وثمانى أخريات باللغة العربية هى مجلة «العلوم الاجتماعية»، ومجلة «دراسات الخليج والجزيرة

العربية»، ومجلة «الحقوق»، و«حوليات كلية الآداب»، و«المجلة العربية للعلوم الإنسانية»، ومجلة «الشريعة والدراسات الإسلامية»، و«المجلة التربوية»، و«المجلة العربية للعلوم الإدارية». ويصدر المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب الكتاب الشهرى المنتشر «عالم المعرفة»، والمجلة المتخصصة الفصلية «عالم الفكر»، والعدد الواحد من هذه المجلة كتاب ضخم بحد ذاته وهو مرجع مهم للمتخصصين فى القضايا التى طرحها ويطرحها فى كل عدد. و«سلسلة المسرح العالمى» وهى أضخم مشروع لدعم الثقافة العربية عن طريق ترجمة المسرحيات العالمية، وقد صدر عددها الأول فى أكتوبر ١٩٦٩ ومازالت مستمرة، ثم مجلة «الثقافة العالمية» وتصدر كل شهرين منذ نوفمبر ١٩٨١، وهى مجلة تترجم الجديد فى الثقافة والعلوم وتقدم ما ينشغل به العالم ثقافيا للقارىء العربى.

أما مؤسسة الكويت للتقدم العلمى التى تأسست سنة ١٩٧٦ من أجل (دعم التطور الفكرى والحضارى فى الكويت والأقطار العربية) فهى بجانب تشجيع ودعم مشاريع البحوث والبرامج العلمية الكويتية والعربية والدولية، فإنها تقدم جوائز سنوية تقديرية مجزية للبارزين فى مجالات العلوم والثقافة،

كما تقوم المؤسسة بنشر الكتب والمجلات المتخصصة مساندة لحركة التعريب والترجمة والتأصيل فى البحوث العلمية والاجتماعية.

ويقدم مركز البحوث والدراسات الكويتية مساهمته فى نشر الثقافة العربية من منظور مختلف، فاهتمامه الأساسى ينصب حول إبراز الدور الذى قامت به الكويت فى ماضيها وحاضرها. وقد فرض العدوان العراقى الذى وقع على الكويت عام ١٩٩٠ أولوياته على اهتمامات المركز فأصدر حتى الآن حوالى خمسين كتابا تتناول الكويت وجودا وحضارة وواقعا وشعبا. وقد صدرت بعض هذه الكتب باللغة العربية وترجم العديد منها إلى الإنجليزية والفرنسية والروسية. وهو يتبنى ترجمة كل إصداراته إلى اللغات الحية بعد أن لمس إقبالا متزايدا على منشوراته.

وهناك العديد من المؤسسات غير الرسمية التى ترعى الثقافة العربية فى الكويت، وتضيف إليها الجديد والمبتكر. ولأن هذه الأفكار – كما قلنا – هى أفكار ممتازة فإن تطلعها إلى المستقبل لإثراء الثقافة العربية - مع روافد عربية أخرى - قابل للتوسع والنمو.

وتكاد تكون هذه الإصدارات نموذجا رائعا للعمل العربى

الثقافى المشترك، فالكويت تتحمل مسئولية تمويل هذه الإصدارات والأنشطة، فيما يشارك فى إنتاج هذه الخدمة الثقافية جميع المثقفين العرب من كل الأقطار العربية تقريبا، وبينهم بالطبع مثقفو الكويت والخليج العربى لتقديم هذه الإصدارات للقارىء العربى وكل قارىء للعربية، فتصل إليه فى مدينته وقريته عبر شبكة توزيع حديثة وبسعر رمزى زهيد. بجانب ذلك فإن هناك حصيلة معرفية ناتجة عن المؤتمرات والندوات الثقافية والفنية التى تؤمها نخبة من كبار المثقفين ليناقشوا أهم القضايا الفكرية والثقافية والفنية والأبحاث والدراسات. وهو زاد وفير للثقافة العربية ولو جمعناه وصنفناه لرسم خريطة حقيقية لحركة الثقافة فى العقود الثلاثة أو الأربعة المنصرمة، لكان مرشدا لمن أراد استنباط الجوهرى والعام والمشترك فى الثقافة العربية حتى لا نعيد إنتاج ما سبق أن أنتجناه، بل نبدأ من حيث انتهت الجهود السابقة، ولتكون هذه الخريطة بمنزلة مرآة تعكس بصدق تطور الثقافة والفكر بلا قيود، وأساسا لبناء نوع من التراكم الكيفى فنعرف أين نقف من الماضى ومن الحاضر ونستشرف طريق المستقبل.

ولعل السؤال الذى يطرح نفسه هو: لماذا اختارت الكويت

الاضطلاع بهذا الدور؟. هل يعود السبب إلى بنية الإنسان الكويتى نفسه، ورغبته فى الانتماد وإحساسه القديم بالديمقراطية؟.

إن الكويت تلك الدولة الصغيرة فى أطراف العالم العربى كانت تبحث دوما عن شرايين متدفقة تربطها بالجسد العربى الكبير وليس أفضل من شرايين الثقافة التى تستخدم اللغة المشتركة والتوجه المشترك دون أن تقع فريسة للتناقضات السياسية والفروق الاقتصادية.

وقد ساهم فى صنع هذا التوجه العديد من مثقفى الكويت ورجالاتها من ذوى التوجه القومى الذين أكملوا دراساتهم العليا فى العديد من العواصم العربية الحافلة وعادوا يحملون فى أعماقهم قبسا من زخمها الثقافى. إن هذه التجربة لم تُثْرِ فقط آفاقهم الفكرية ولكنها أزالت كثيرا من الحواجز التى تحيط بالروح. لقد أحسوا دوما بأنهم جزء من كل شامل وأن عليهم جميعا أن يتشاركوا فى التوزيع العادل للثروة الثقافية - على حد تعبير الدكتور فؤاد زكريا - كما أن الحس الديمقراطى الأصيل فى داخل نفس كل كويتى جعل من طرح هذه الثقافة وجعلها حقا للجميع أمرا فعليا. وإذا كانت المخطوطة هى تجسيدا لثقافة النخبة، فإن انتشار الكتاب هو أفضل دليل على ديمقراطية الثقافة.

لقد آمنوا بأن الكتاب هو وسيلتهم لتوحيد المثقفين العرب والارتفاع بمستوى اللغة العربية وأداة للتنوير الحضارى.

الوسائل الاستراتيجية للثقافة :

الثقافة لها وسائلها، منها الوسائل التكتيكية، والوسائل الاستراتيجية، وفى ظنى أن الوسائل التكتيكية هى التليفزيون والإذاعة والأشرطة، وهى تكتيكية لأن تأثيرها مؤقت أو قل غير دائم، إنها الثقافة العابرة أو ثقافة اللحظة، أما وسائل الثقافة الاستراتيجية فهى الكتاب والمجلة وإلى حد ما الجريدة، حيث إنها - أى الأخيرة - تقع فى منزلة بين المنزلتين. الكتاب والمجلة فى واقعنا العربى محدودا الانتشار، بل إن مفاجأة أصبت بها عندما علمت فى إحدى الندوات المتخصصة التى عقدت هذا العام فى إطار مهرجان القرين الثقافى وهى (ندوة حقوق النشر والتأليف فى الوطن العربى) أن مجموعة ما يصدر من عناوين فى الوطن العربى من أقصاه إلى أقصاه لا يتجاوز العشرة آلاف عنوان فى العام، وهذا عدد ضئيل جدا يُشعر المهتم بالثقافة العربية بالحسرة، وإذا أضفنا إلى هذه الحسرة أن العديد من هذه الكتب لا تعبر الحدود بين بلاد المنشأ وبلاد الطلب، وإذا أضفنا كذلك أن بعضها لا يرقى إلى مستوى التأليف العلمى المطلوب أو غير مطبوع طباعة جيدة تتضاعف الحسرات مرات.

ولقد تنبهت الكويت منذ فترة طويلة لأهمية وضع خطة شاملة للثقافة فاستضافت على مدى عامين – وبالتعاون مع الجامعة العربية فى مطلع السبعينيات – مشروعا لدراسة وضع هذه الخطة شارك فيه نخبة كبيرة من المثقفين العرب فى تخصصات كثيرة، ولعلى لا أجد عبارة دالة على ضخامة المشروع الحيوى والضخم إلا تلك التى نقلها الدكتور محمد حسن عبد الله عن محيى الدين صابر وكان الأخير هو الرجل الأول فى المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (أليكسو) إذ قال: «إن هذا الجهد التاريخى الذى ظل حلما قوميا غاليا فاستوى عملا صالحا، امتلكت به الأمة العربية ـ وهى تواصل مسيرة التقدم الحضارى ـ وثيقة فكرية بينة، فى هذا المستوى للثقافة العربية».

لقد صدرت هذه الخطة فى ستة مجلدات، وكان خلفها ومحركها مثقف عربى كويتى بارز هو الأستاذ عبد العزيز حسين، شفاه الله. ولقد كانت محاولة جادة لرصد التحولات الكبرى فى العالم وتأثيرها فى المجتمعات العربية، فقد كان هاجس القائمين على وضع تلك الخطة هو الفجوة التى تتسع بين الثقافة العربية والثقافة العالمية، ومع ثورة الاتصال التى ضربت الوطن العربى فى التسعينيات كانت تلك الخطة الإنذار

الأول الذى طالب فى خمسة محاور بحفظ الهوية الثقافية، وإبداع الثقافة وقيمها وإدارتها إدارة حديثة وربطها بالثقافة العالمية.

لقد كانت خطة طموحاً وستبقى وثيقة تاريخية لمن يتمكن من قراءتها وتحليلها.

لقد قالت تلك الخطة فى معوقات الثقافة العربية وسبل تطويرها ما لا يستطيع فصيح الزيادة عليه، إلا أن المؤسف أن هذه الخطة الطموح لم تترجم إلى عمل فى كثير من الدول العربية.

اكتشفت تلك الخطة فى مقدمتها ومضمونها أن الفكر العربى - وقتها - لا يعبر عن الواقع الحقيقى المعيش. لقد كانت شعارات عالية الرنين دون نتيجة تذكر على الأرض، وكأن معظم المفكرين العرب يعبرون عن واقع آخر، واقع حلم وصعيد خيال، وما حدث بعد الكارثة سنة ١٩٩٠ هو ما حذرت منه الخطة الشاملة، واكتشفه البعض واقعا بعد فوات الأوان.

الحقوق الثقافية :

العالم لا يتوقف، فاهتمام البشرية بالثقافة كان وسيظل موجودا ويكفى أن نشير إلى أن الثقافة أصبحت من الحقوق

التى تحرص عليها الشعوب ولها إعلانات ودساتير، كما هى حقوق الإنسان، فهى جزء من حرياته، ولعلنى أذكر أن إعلانا عالميا للثقافة صدر فى مكسيكو فى أواخر سنة ١٩٨٢، حدد الثقافة فى إحدى فقراته بالآتى:

(إن الثقافة هى التى تمنح الإنسان قدرته على التفكير فى ذاته، وهى التى تجعل منه كائنا يتميز بالإنسانية المتمثلة فى العقلانية، والقدرة على النقد، والالتزام الأخلاقى، وعن طريقها - الثقافة - نهتدى إلى القيم ونمارس الاختيار وهى وسيلة الإنسان للتعبير عن نفسه، والترف على ذاته..).

وتقوم على خدمة الثقافة فى مجتمعات أخرى العديد من الإصدارات الرصينة والمنشورة - وتتسابق فيما بينها - حتى فى الثقافة الواحدة. وإن أخذنا على سبيل المثال الثقافة باللغة الإنجليزية فإننا نجد أن هناك مصدرين يتنافسان: الأول المصدر البريطانى والثانى المصدر الأمريكى، فإن كان الإنجليز كما هو معلوم - ومتفق عليه - ويتميزون فى فكرهم بالتقريبية أو الاحتمالية التى تناسب إدراكات الحواس وهى الإدراكات التى يعولون عليها، فإن الأمريكيين قد بنوا فكرهم على قاعدة المنفعة، فالفكرة تقاس بنفعها، فهى صواب إن نفعت وهى خطأ إن لم تنفع، والكفة فى هذه الثقافة المشتركة

تميل إلى الإنتاج الأمريكى، فالمجلات الخمس الأكثر رواجا فى بريطانيا الثالثة والرابعة منها أمريكيتان هما: «ريدر دايجست» (المختار) و«الناشيونال جوغرافيك» (المجلة الجغرافية)، فى حين أن الأولى والثانية والخامسة هى مجلات تسلية، وهى على التوالى: مجلة الراديو، ومجلة التليفزيون، ومجلة السيارات! وكان الإنجليز يتهمون الأمريكيين حتى وقت متأخر بأنه ليس لديهم تاريخ ولا طبقات ولا ثقافة،! ثم جاءت موجة الأفلام الخيالية! فزاد اتهامهم اتهاما آخر هو أنه ليس لديهم عقل أيضا ..!!

ولكن هذا التصور كان الخطأ الذى بنى على صورة نمطية تركتها هوليوود، كما هى صورة العربى فى الخليج لدى العربى الآخر هى الصورة التى غرسها خيال آبار النفط. لقد نشطت الحياة الثقافية الأمريكية ونتجت عنها مجموعة من الأفكار والرؤى المهمة، لقد شغل مثلا فرانسيس فوكوياما الحياة الثقافية فى العالم فى بداية التسعينيات بأطروحته «نهاية التاريخ» التى ناقشتها أقلام من كل اللغات الحية تقريبا، والتى ادعى فيها أن صراع الأفكار الذى احتدم عبر التاريخ قد انتهى وأن الديمقراطية الليبرالية لم تنتصر فقط على الشيوعية بل إنها الحقيقة المطلقة للتاريخ لقد سيطرت

التعاريف السياسية الأمريكية على الثقافة السياسية الغربية من «العزل الإيجابى» إلى «ما تحت الطبقة» إلى «الاعتماد المتبادل» و«الرعاية المتبادلة» فقط للإشارة إلى بعض التعابير الثقافية السياسية. وتعج الساحة الثقافية الأمريكية بمجموعة من المجلات الأدبية والثقافية التى أصبحت راسخة ودولية فى آن، فمجلة مثل «التايم» توزع أربعة ملايين نسخة فى أمريكا فى الوقت الذى توزع فيه مجلة مثل «الإيكونومست» Economist البريطانية أقل من نصف مليون نسخة فى بريطانيا (عدا توزيع الاثنتين خارجا). «الأميركان سبكتاتور» American Spectator و«نيو ريبليك» New Republic توزعان على التوالى ٣٠٠ و١٠٠ ألف نسخة، أما مجلة مثل «ناشيونال جيوغرافيك» National Gioraphic فإن المشتركين المباشرين فيها فى الولايات المتحدة ستة عشر مليون قارىء.

باختصار يتحول إنتاج الثقافة وتوزيعها فى العالم الغربى المتحدث بالإنجليزية من بريطانيا إلى الولايات المتحدة، وفارق الإنتاج فى الكم كما هو الكيف كبير.

إن ذلك لا يمثل تحديا لقطاع من الثقافة الأنجلو سكسونية لقطاع آخر، إنما يمثل تحدى غلبة مكان ما فى إنتاج الثقافة على مكان آخر.

وهنا تبرز أهمية المساهمة الثقافية تأصيلا وترجمة. في الكويت وفي القطاع الأخير تتصدى مؤسسات الدولة بشكل منظم لأخطر القضايا التي تواجه الثقافة العربية ألا وهي الترجمة، فلم تحدث نهضة فكرية في التاريخ لأمة وثقافة ودول في مثل ظروفنا العربية لم تسبقها نهضة في الترجمة.

وقدمت الكويت جهودا متميزة في هذا المضمار، فـ «سلسلة المسرح العالمي» هي ترجمات مباشرة واختيارات من أهم ما أنتجه المسرح العالمي. كما أن بعض كتب «عالم المعرفة» هي ترجمة أيضا، كما أن مجلة «الثقافة العالمية» ترجمة للحديث مما أنتجة الفكر في العلم والإنسانيات والأدب، كما أن مؤسسة الكويت للتقدم العلمي بجانب ترجمتها لبعض أمهات الكتب بشكل غير دوري، فإنها تصدر مجلة «العلوم» المترجمة عن مجلة العلوم الأمريكية، إنها مساهمة لا يدعي أحد أنها كاملة وشاملة لأن هذا الجانب يحتاج إلى تضافر الجهود الرسمية والشعبية في دول عربية عديدة لعمل مشترك، حيث إن مجال الترجمة في بعض مناطقنا العربية وبعض خياراتنا هزيل بل وضار. إن العمل الثقافي المشترك والمطلوب هو في ترجمة أهم الكتب العلمية والأدبية وكتب العلوم الإنسانية ترجمة منضبطة ومحددة التعاريف لملاحقة الطفرة المعرفية في

عصرنا هذا، عصر المعلومات، مما يؤدى فى النهاية إلى تعريب العلوم وتعريب التعليم الجامعى الذى يعانى غربة فى بعض أقطارنا.

ولا يقتصر الأمر على الجهود الحكومية فى مجال الثقافة ولكنه يمتد إلى القطاعات الأهلية أيضا ويكفى أن أشير فى هذا الصدد إلى مؤسستين كويتيتين حققتا انتشارا ملحوظا على مستوى الوطن العربى وأعنى بهما دار سعاد الصباح ومؤسسة البابطين للإبداع الشعرى.

أما دار سعاد الصباح للنشر فقد نشرت حتى الآن سبعة وثمانين كتابا فى مختلف فنون المعرفة والإبداع وقد حظيت الترجمة منها بنصيب وافر. وهى تستعد الآن لمرحلة جديدة فيما يسمى بالنشر الثقيل وأعنى به نشر الموسوعات الضخمة ومنها موسوعة الكويت الثقافية وموسوعة المسح الثقافى، بالإضافة إلى دورها فى إحياء نتاج الرواد من مختلف الدول العربية.

وتسعى مجموعة من دور النشر الأهلية الأخرى للاستفادة من أجواء الحريات العامة لرفد عملية النشر بمجموعة متنوعة من العناوين.

فهل يمتد الدور الثقافى الكويتى إلى عصر المعلومات والتطور التكنولوجى الذى نعيش فيه؟

لقد تحررت الكتابة والمعلومات من سيطرة الورق وتمردت على أغلفة الكتب الضيقة. وأصبح الدور الآن للاتصال الآلى عن بعد وجلب أى معلومة مهما كانت صعبة. ولكن العديد من الدول والأفراد مازالت تكلفة هذا الاتصال عالية بالنسبة إليهم، لذلك جاءت فكرة الكتاب الإلكترونى حتى تحل محل الكتاب الورقى. فالقرص الوحيد من أقراص الليزر يمكن أن يحتوى على ما يعادل ٢٥٠ ألف صفحة مطبوعة. أى أننا يمكن أن نحصل بواسطة قرص واحد على مكتبة عامة كاملة ومفهرسة أيضا.

وهى ليست كتبا جامدة. ولكنها مرنة تتيح للقارىء فرصة الاختيار والتدخل أحيانا إذا كان يود ذلك. أى أنه يستطيع أن يقتطع فقرات من أى كتاب وأن يعيد جمعها فى ترتيب جديد وإضافة أى تعليق عليها. وهذا الكتاب الإلكترونى الجديد يفتح أمامنا آفاقا جديدة من آفاق ديمقراطية الثقافة. وتضاءلت عوائق الوصول إلى المعلومات إلى حد كبير. فهل يمكن أن يمتد دور الكويت للمساهمة فى توفير هذا الكتاب؟ لقد زادت الهوة المعرفية وأصبحت الثقافة رغما عنا وقفا على أجزاء من العالم. فهل يمكن أن تساهم الكويت فى كسر احتكار الكتاب الإلكترونى كما فعلت من قبل مع الكتاب العادى؟

إن جوهر رسالة الكويت الثقافية هو الدعوة إلى تنوير العقل وهو رسالة إنسانية - بعيدة عن الهوى - منفتحة تدعو إلى مستقبل أفضل للحياة العربية، وهى أيضا عربية إسلامية وتشهد تطورا متسارعا يؤكد الحرص الرسمى والشعبى على المساهمة فى هذا الحقل، حيث إن نشر الثقافة جزء من رسالة الكويت وأهلها إلى إخوانها وذويهم، فليس بالخبز وحده يحيا الإنسان.

٩

مثلث مشاكل العرب والمسلمين: بأى الأضلاع يبدأ الحل؟

في الأسبوعين الأخيرين من شهر مايو (آيار) الماضي كنت في الولايات المتحدة بدعوة من مؤسستين الأولى كانت القيادة المركزية للقوات الأمريكية التي نظمت ندوة سنوية هي الثالثة في سلسلة ندوات فكرية لمناقشة الأوضاع الاستراتيجية والاقتصادية والسياسية في الشرق الأوسط وجنوب شرق آسيا - وهي المنطقة الجغرافية التي تهتم بها القيادة المركزية، وهي ساحة عملياتها - وعقدت الندوة في مدينة تامبا في ولاية فلوريدا، والثانية من مؤسسة الديمقراطية والتغيير السياسي في الشرق الأوسط، وهي مؤسسة أهلية تعنى بهذا الأمر في واشنطن وقدمت أوراق دراسية عديدة في هاتين الندوتين، من متخصصين، كما أتيح لي فيما بين انعقاد الندوتين الأولى والثانية الوقت كي أقابل العديد من المهتمين بالشأن السياسي من الأمريكان، رسميين وأكاديميين، وكانت حصيلة تلك المساهمات من الندوات واللقاءات بعض الانطباعات التي أريد أن أشارك القارىء فيها.

حروبنا وسلامهم:

بادىء ذي بدء فإن الهم الأمريكي في السياسة الخارجية

(*) نشر هذا المقال في «العربي» العدد ٤٢٨ - يوليو ١٩٩٤ .

هم كبير ومتعدد ويناقش على نطاق واسع فى الولايات المتحدة، وجزء من هذا الهم ما يحدث أو ما سوف يحدث فى الشرق الأوسط وبلاد العرب والمسلمين. ما يجرى فيها وما يجرى حولها، انطلاقا من اهتمام الولايات المتحدة بالوضع الدولى ككل.

وحتى لا يفهم أحد خطأ أن منطقتنا العربية الإسلامية هى بؤرة اهتمام الولايات المتحدة، فإننى أسارع بالقول، بأن ذلك ليس صحيحا على إطلاقه، فالولايات المتحدة خرجت بعد نهاية الحرب الباردة - أو ما اصطلح على تسميتها كذلك - وهى تحمل مسئولية دولية كبرى - وحقا أو باطلا، رغبة منها أو بالمصادفة المطلقة - وأصبحت بذلك القوة العالمية الكبرى والوحيدة، ووقع عليها تبعات حفظ الأمن العالمى وهى ليست قادرة عليها قدرة مطلقة وإن كانت راغبة فيها. من هذا المنطلق فإن الولايات المتحدة تهتم بمناطق (التوتر) على أساس الحفاظ على الأمن الدولى، فما بالك إذا كانت هذه المناطق (المتوترة) ومن بينها منطقتنا العربية والإسلامية، تمثل بؤرة مصالح مباشرة للولايات المتحدة سواء كانت هذه المصالح استراتيجية أو اقتصادية أو الاثنين معا؟

هناك أكثر من مستوى يستطيع المتابع أن يرى اهتمام الولايات المتحدة بالشرق الأوسط والعالم الإسلامى من خلاله،

الأول هو مستوى الصحافة اليومية، وهى بالمناسبة - خاصة الصحافة القومية - لها تأثيرها البالغ فى رسم الأحداث وتزويد المؤسسات السياية بالحقائق، وفى بعض الأوقات تكون الحقائق منقوصة. هذا المستوى من الاهتمام كان مُركّزاً - أثناء فترة زيارتى - حول السلام الفلسطينى/ الإسرائيلى، وهموم الحرب الأهلية فى اليمن، ثم الاهتمام بالقوى السياسية الإسلامية. وفى المجال الأكاديمى والسياسى، وهو المستوى الثانى، تجد الصدى واضحا لما تنقله الصحف لكنه أكثر تجذيرا وعمقا، ويضاف إلى القضايا السابقة على هذا المستوى قضايا مثل الاقتصاد فى الدول العربية ومستقبل العلاقات الأمريكية العربية.

ولابد من ملاحظة أن هناك كثرة كاثرة فى القطاعين، الأكاديمى، والسياسى، لا تعرف ولا تريد أن تعرف عن الشرق الأوسط والعرب والإسلام، إلا ما يقوله لهم فى التو واللحظة مساعدوهم (إن كانوا سياسيين) أو ما تنشره الصحف ونشرات أخبار التليفزيون (إن كانوا غير ذلك)، إلا أن القلة المتخصصة فى شئون الشرق الأوسط على اطلاع ودراية كافية بتلك الشئون وتتاح الفرص لهم لمناقشة الأوضاع بحرية كاملة.

أمريكا تناقش اليوم بسياسييها وصحفها موضوعا استراتيجيا يهمها فى الأساس ويهمنا أيضا، هو السلام العالمى ودور الولايات المتحدة فيه، ثم تكلفته الاقتصادية والسياسية. وعندما نتحدث عن السلام العالمى فإن نقيضه هو عدم السلام أو الحرب أو حتى إبقاء الأوضاع مضطربة غير مستقرة. لذلك فإن الشرق الأوسط والمنطقة الإسلامية تأخذ موقع الصدارة فى هذا الاهتمام، وهى منطقة (مضطربة) بكل المقاييس ومناطق منها معرضة للاضطراب فى أى وقت. هناك حوالى عشر حروب ساخنة أو قابلة للتسخين فى منطقتنا، ونذكر بعضا منها مثل الصومال، واليمن، وفلسطين، والعراق، والسودان، وإذا أضفنا لها ما تشنه بعض القوى السياسية التى تقول بانتمائها إلى الإسلام من حروب أهلية خطيرة فى بلدان أخرى، نجد أننا كنا متواضعين فى تحديد رقم العشرة.

يناقش الأمريكيون دورهم العالمى الجديد بعد انتهاء الحرب الباردة تبعا لمصالحهم، أو لصالح أيديولوجياتهم فى تفوق السوق الرأسمالى، والليبرالية الاقتصادية، والديمقراطية. ولكن هذا (الانتصار) إن أريد له البقاء والاستمرار يحتاج إلى (قوة) يعتمد عليها، وهى بدورها تحتاج إلى مصادر مالية

واقتصادية وجب أن توفرها هذه الدولة القائد.

مآزق السياسة فى ساحة الاقتصاد:

النقاش الدائر فى واشنطن أن أمريكا بوضعها الاقتصادى لا تستطيع أن تأخذ على عاتقها لوحدها حماية السلام العالمى. فلابد والأمر كذلك من المشاركة فى الحمل من جانب أولئك المستفيدين من استتباب السلام. ولكن القضية ليست بهذه البساطة، فهناك من يرى أن قيادة دولة واحدة للعالم تعتمد النظام الرأسمالى سوف يقود إلى تناقض بينها وبين الآخرين خاصة فى نفس معسكرها الرأسمالى.

فالنظام الرأسمالى ينتعش أكثر عندما تكون مصادر العمل والتقنية ورأس المال متحركة ومنتقلة بمرونة دون حواجز بين أسواق العالم، فى الوقت الذى يدفع فيه التنافس كل دولة إلى احتكار المصالح الاقتصادية، ومحاولة إقفال سوقها على حساب منافسيها، وهذا يحد من فتح الأسواق وبالتالى لن يكون الاقتصاد عالميا. هذا ما تحاول الولايات المتحدة أن تحله مع شركائها مثل اليابان والسوق الأوروبية المشتركة، وحتى مع الصين التى تقف عقبات أيديولوجية بينهما، لكنها ليست عقبات كأداء بدليل ما أعلنه الرئيس الأمريكى أخيرا عن تجديد سنة لوضع الصين كدولة أولى بحق الرعاية التجارية،

حيث إن المصالح التجارية الأمريكية تأتى فى المقدمة.

سيطرة دولة رأسمالية على العالم شهدت عصرها الذهبى فى فترتين، الأولى هى الفترة التى أعقبت الحروب النابليونية فى أوروبا، عندما تفردت فرنسا لفترة بالسوق الرأسمالى المعروف وقتها، ثم فيما بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية، كانت دول أوروبا المنتصرة والمتحالفة هى القائدة. مفتاح هاتين واحد وهو قدرة ورغبة دولة واحدة، أو تحالف، كى تكون قوة مسيطرة، تأخذ على عاتقها عملية استتباب الأمن والسلام الدوليين، وتحقق الأمن للدولة الصغيرة حتى لا تلجأ الأخيرة إلى تحالفات إقليمية أو دولية سياسية أو تجارية لحماية مصالحها.

والتاريخ فى حوادثه السابقة يؤكد لنا أن فترة سيطرة دولة واحدة على العالم هى فترة قصيرة نسبيا لأنها سرعان ما تعجز اقتصاديا وعسكريا عن القيام بما نذرت نفسها للقيام به، وهو الحفاظ على الأمن العالمى. ويتابع الذين يناقشون النظرية أن الاقتصاد الأمريكى غير مؤهل لفترة طويلة لأن يأخذ على عاتقه ضمان السلام العالمى، فالولايات المتحدة يمكن أن تقود ولكن بالتعاون مع آخرين عليهم ألا يشاركوها العبء المالى والاقتصادى فقط، ولكن أن يعملوا من داخل

مـجـتـمـعـاتهم ودولـهم على تهـيئـة الأجـواء المناسـبـة للسـلام الاجتماعى الداخلى والإقليمى.

ومن هنا ترتبط نظرية الدولة الفائدة بالأمن الإقليمى، فكلما كـان هذا الأمن الإقليـمى سـائدا قلّت تدخـلات الدولة الكبـرى المباشرة. وكلما عملت القوى الإقليميية على الوصول إلى أمن فيما بينها خففت الحمل الدولى العسكرى والاقتصادى. وهذا الأمن الإقليمى كما يراه المختصـون فى واشنطن له قاعدتان هما التنمية الداخلية والمشاركة السياسية.

العرب والمسلمون:

النظرية السابقة والتى مفادها أن يسود السلام العالم وأن تخف حدة التوتر بل وتنعدم إن أمكن، تناقض ما يحدث فى الشرق الأوسط. فهناك خلافات إقليمية واقتصادية وسياسية تغذى التوتر، وتجعل هذه المنطقة بؤرة استنزاف لموارد اقتصادية كان يمكن أن يستفيد منها أبناء المنطقة. وكذلك العالم، ويرى المراقبون أن مشكلات الشرق الأوسط هى مثلثة الأضلاع يغذى كل ضلع منها الضلع الآخر. وهذه الأضلاع اقتصادية وسياسية وأيديولوجية، ودون فهمها الفهم الصحيح، والعثور على حلول منطقية لها، يشارك الجميع فيها، فإن الاضطراب سيظل معلقا ومستنزفا للطاقات،

وخطيرا على سلام العالم واستقراره.

الوضع الاقتصادى يأخذ الأهمية القصوى من جانب المهتمين والمناقشين فهو أساس كل الصعوبات أو معظمها فى منطقة الشرق الأوسط، ودون حلول جذرية للوضع الاقتصادى تظل الحلول الأخرى السياسية أو الأيديولوجية مؤقتة وغير فاعلة.

والوضع الاقتصادى بأرقامه المعروضة والتى يتبناها المختصون صورته مخيفة وسنورد بعضها فقط لمجرد الإشارة، فقد انخفض الناتج العربى بين ١٩٨٠ ـ ١٩٩١ من ٤٣١ بليون دولار إلى ٤٢٠ بليون دولار، فيما تزايد عدد السكان العرب من ١٦٥ مليونا إلى ٢٢٠ مليونا! وبالتالى انخفض دخل الفرد العربى فى نفس الفترة من ٢٦١٢ دولار إلى ١٨٢٦ دولارا وهو انخفاض يساوى ٣٠٪ ، وبالتأكيد فإن هذه أرقام صماء حيث إن معظم العرب قد انخفض مستواهم المعيشى أكثر من ذلك بكثير، وكما تدل الأرقام المعلنة فإن الدين العربى الخارجى بين ١٩٨٥ و١٩٩٠ قد ارتفع من ١١٥ بليون دولار إلى ٢٥٠ بليون دولار.

هذه بعض الأرقام، أما مشكلات الغذاء والماء والمساعدات المصروفة من الدولة لدعم أسعار السلع الأساسية، فهى

تشكل الضغط الأكبر على الاقتصاديات العربية، والتى تعانى من مشكلات هيكلية هى بقايا الأنظمة والسياسات الاشتراكية من جهة، وغياب التنافس والسوق الحرة من جهة أخرى فالوضع الاقتصادى العربى يواجه مشكلتين حادتين، الأولى هى أهمية وسرعة الإصلاح الاقتصادى الكلى والذى إن اتخذت خطوات فى سبيل تحقيقه فسوف يسبب مشكلات سياسية ثمنها سيكون باهظا. وأما المشكلة الأخرى فإنه فى غياب إصلاح اقتصادى وتنمية حقيقية فإن الحديث عن العدالة يبقى حديثا عاطفياً بعيدا عن الواقع، ومعناه تقسيم أصغر لكعكة هى فى الأساس صغيرة وتصغر كل يوم.

لقد قال لى أحد المختصين إن اتخاذ قرار بالإصلاح الاقتصادى فى بلدان الشرق الأوسط هو أقسى حتى من اتخاذ قرار بالحرب.

إلا أن السؤال هو: هل الإصلاح الاقتصادى الذى تأخر كثيرا فى البلاد العربية بالضرورة سوف يسبب فى المدى المتوسط والطويل مشكلات سياسية يشير البعض إلى أن ذلك ليس ضروريا، ويضربون مثلا بكارلوس منعم فى الأرجنتين الذى قام بإصلاحات اقتصادية كانت فى نهايتها شعبية إلى درجة سمحت له بتعديل الدستور لإعادة انتخابه.

إلا أن السؤال فى الدول العربية: إذا كان هذا التأخير فى الأخذ بالإصلاحات الاقتصادية خوفا من نتائجها السياسية، فكيف يمكن أن يطرح فى هذه الأجواء الحديثة عن الإصلاحات السياسية! إنها دائرة مغلقة ومقلقة.

الإصلاح السياسى:

تسمع لفظة الديمقراطية والحث على تبنيها فى كل ركن من أركان المنتديات واللقاءات الفكرية والسياسية فى العاصمة الأمريكية، على أساس أن الأمن والسلام العالمى المطلوبين يتحققان بشكل أفضل فى منطقة الشرق الأوسط عندما تتمتع شعوبها (بالديمقراطية) اعتمادا على افتراض قاعدة أن الشعوب الديمقراطية لا تشن الحروب، ولا يحكمها شخص واحد يُسيرّها حسب ما يريد ويشتهى. وهناك مدرسة سياسية فى الولايات المتحدة تعتقد أن ثلاثية الديمقراطية والإصلاح الاقتصادى والتسامح الأيديولوجى هى ثلاثية لازمة لاستتباب السلام، ومن ثم فوجود هذه العناصر فيه شىء من الضمان ضد انفجار التوترات وبالتالى إجبار الولايات المتحدة على التدخل وإهدار الموارد النادرة لإطفاء الحرائق التى يمكن أن تسببها الدكتاتورية والفقر. هذه نظرية مقبولة على نطاق واسع وهى فى حقيقتها منطقية إلا أن

المشكلة هى : أية ديمقراطية وما هى آلياتها وأى إصلاح اقتصادى؟

الديمقراطية مفهوم مثقل بدلالات الثقافة الغربية، وهى كقوس قزح هناك آراء مختلفة وقد تكون متضاربة، مثل أن الديمقراطية لا تنضج ولا تعطى ثمارها المرجوة - مهما اختلف شكلها - إلا فى مجتمع يحقق تنمية اقتصادية حقيقية، أما الأولوية - تقول هذه المدرسة - إن أردنا استتباب السلام فيجب أن تعطى للتنمية. فكل الذى نشاهده من أزمات وتشنجات لها مظهر السياسة والأيديولوجية هى فى حقيقتها إحباطات شديدة نتجت عن فشل التنمية الاقتصادية الموعودة. هذه المدرسة تقول إن التنمية مطلب سابق على الديمقراطية، وهى حجر الزواية فى السلام والأمن المنشودين.

وفى دراسة نشرها أحد المختصين الاقتصاديين الكنديين من جامعة برتش كولومبيا، هو (جون اف هول ول) بحث فيها العلاقة بين الديمقراطية والتنمية فقام بمقارنة نتائج اقتصاديات مائة دولة بين ١٩٦٠ إلى ١٩٨٥ ووجد أن هناك تراجعا نسبيا بين الدول الديمقراطية فى الإنتاج الاقتصادى مقارنة بالدول غير الديمقراطية، وهذه النتائج التى توصل إليها أكدت وجهة النظر القائلة بأنه فى المدى القصير فإن

الحكومات غير الديمقراطية خاصة تلك التى تضمن لمواطنيها (الحقوق الاقتصادية) مثل حماية الملكية الشخصية وحرية رأس المال، يمكن أن تحقق نتائج اقتصادية أفضل. ولكن فى النهاية يصل المؤلف إلى نتيجة هى أن التنمية تقود إلى الديمقراطية، بل تستقر الأخيرة بشكل أفضل فى وضع اقتصادى مريح. على كل حال فإن إجابة سؤال: أيهما يسبق وأيهما يلحق مازالت إجابة أكاديمية، ولكن موضوع الديمقراطية لايزال موضوعا ساخنا فى مناقشات وندوات الأمريكيين.

وتظهر مؤسسات جديدة لدراسة الديمقراطية فى الشرق الأوسط كالفطر كل يوم، فى واشنطن، وفى مراكز البحث الأمريكية الكبرى، ويزداد النقاش حول الشكل الأمثل للديمقراطية المأمولة فى بلدان العالم الثالث خاصة فى الشرق الأوسط، إنه زمن «السوق الديمقراطية» وكل يشترى ما يرغب!

الإســـلام :

لعل البحث الثالث الذى يُعرض يوميا فى المناقشات وحلقات البحث هو موضوع الإسلام، وليس من كونه عقيدة، ولكن من حيث كونه محركا لوضع سياسى، كما هو فى بعض البلدان العربية والإسلامية. وكذلك علاقة الإسلام بالديمقراطية .

ويخلط البعض هناك بين الأمور إما لنقص فى المعلومات، أو لوجود معلومات مشوشة بين هذين المفهومين.

واحد من كل خمسة أشخاص فى العالم مسلم، والمسلمون يعيشون فى ٤٥ دولة فى إفريقيا وآسيا وعدد كبير فى أوروبا والولايات المتحدة ودول كانت تشكل الاتحاد السوفييتى السابق.

ويخلط البعض بشكل قوى بين الإسلام كعقيدة وبين ممارسة بعض المسلمين للسياسة، وتصوراتهم لشكل المجتمعات والعالم المرغوب فى تحقيقه. ولأن بعض هذه التصورات ليست ناضجة، يقود الأمر إلى تكوين صورة سلبية عن الإسلام والمسلمين معاً. ويتصور البعض أن هناك صراعا لا شك قادما بين الغرب وما يمثله من قيم وبين المسلمين. على أساس أن الغرب يبحث عن (عدو)، وهى مبالغات تجد صداها لدى أطراف مختلفة فى كلا المعسكرين، موضوعات الإسلام والمسلمين مثل ما يحدث فى إيران والجزائر ومصر وبلاد أخرى لا تخلو منها ندوة، ويحاول بعض القادة السياسيين الأمريكان بصعوبة أن يفك التشابك فى الفهم لدى قطاعات مهتمة بين الإسلام كعقيدة لملايين المسلمين وبين بعض مظاهر التصرفات السياسية لحركات

سياسية. هذه المحاولات لا تجد صداها لا فى الجمهور العام ولا فى الصحافة.

هذا التشابك له على كل حال بعض الجذور الفكرية، فعلى الرغم من أن هناك مؤسسات ومراكز بحث فى الولايات المتحدة تقدم تصورا حديثا سياسيا للفكر الإسلامى ويساير التفكير الغربى فى الديمقراطية والتعددية، إلا أن هناك كتابات وآراء حول نقد الحقوق السياسية للمرأة وعدم قبول التعددية والتسامح مع الآخرين، يراها البعض من وجهة نظر غربية بعيدة عن مسار الديمقراطية الحديثة.

هناك الذين يرون أن الحقيقة متعددة وإنسانية، وهناك الذين يرون أن الحقيقة واحدة. ومشكلة تفسير النصوص القادمة من كتابات كثيرة بهذا الخصوص من الشرق الأوسط تجعل المعلقين الأمريكان يختارون النصوص التى تؤيد وجهة نظرهم، فإن كان الواحد منهم يريد أن يبنى قضية فى التسامح والتعددية وجد نصوصا فى هذا الاتجاه، وإن أراد أن يبنى قضية فى عدم التسامح ورفض الآخر وجد نصوصا قادمة تؤكد ذلك. لذلك تجد هذا التفاوت الكبير فى التفسير.

ومما يزيد الطين بلة أن البعض، محاولا تفادى بعض المصطلحات الحديثة مثل فصل الدين عن الدولة أو التعددية،

يأخذ بمصطلحات أخرى مثل (تمييز الدين عن الدولة) أو مفهوم (التنوعية) بدلا من التعددية، وهى مفاهيم قد تشبع نهم بعض المثقفين العرب، ولكنها لا تغنى كثيرا عن آليات الديمقراطية المعروفة فى الغرب، حيث إن التجربة الإنسانية فى هذا المجال متقاربة كما شهدنا فى أماكن أخرى من العالم وليست متناقضة.

هناك بعض الكتابات التى ترصد مساهمة الأحزاب الإسلامية السياسية فى بعض تجارب الانتخابات والديمقراطية فى البلدان العربية، ولكن هذا الرصد مقرون بتخوف أن ينتهى الأمر بأن يكون (صوت واحد لشخص واحد .. لمرة واحدة)! أى بتعبير آخر أن (تُختطف الديمقراطية) وهو تخوف له صداه الواسع فى الكثير من الكتابات والتعليقات التى قرأتها أو استمعت إليها، ولكن أيضا هناك من يقول إن الأحزاب السياسية الإسلامية سوف تستقر فى نهاية المطاف كأحزاب سياسية معقولة تقدم عن حسن نية على تطبيق الديمقراطية والقبول بلعبتها السياسية.

●●●

المثلث الحرج للإصلاح الاقتصادى والديمقراطى بمعانيها المتعددة والمختلفة، والشكل الأيديولوجى الذى سوف تتخذه

منطقة الشرق الأوسط، ذلك هو محور أحاديث المهتمين والمتخصصين فى واشنطن. وعلى الرغم من أن هذا الشرق الأوسط الذى تتفاعل فيه وحوله متغيرات عديدة وكثيرة هو موضوع دراسة (من الخارج) إلا أن مستقبله فى الأمن والتنمية والديمقراطية سوف يتحقق أساسا من اللاعبين الرئيسيين والأصليين فى داخله، وهم أهله، فمستقبل إخفاق أو نجاح مشروعاتهم الاقتصادية والسياسية والأيديولوجية يعتمد بدرجة كبيرة عليهم (كلاعبين رئيسيين فى ساحته)، وعلى الاستراتيجيات التى يتخذونها لا على تصورات وجهود غيرهم.

إن المستقبل نحققه نحن!

أليس كذلك؟!.

١٠

هل يخاف الغربُ المسلمين؟

يوم ١٧ سبتمبر (أيلول) الماضى نشرت صحيفة «هيرالد تربيون انترناشيونال» تعليقا كتبه الباحث السياسى بريان بيدهام، قال فيه: «إن الحرب مع الشيوعية كانت ثانوية قياسا إلى الحروب مع الإسلام، فالحرب مع الشيوعية استغرقت ٧٠ عاما بينما حروب الغرب مع الإسلام بدأت منذ ١٣٠٠ عام، ومازالت مستمرة».

وقبل أسبوعين، ومع تدشين مسجد جديد فى سلطنة بروناى، دعت إحدى الجماعات الإسلامية الحكومية إلى منع استيراد أنواع من إطارات السيارات، وقالت الجماعة فى بيانها إلى الحكومة «إن الغرب يستخدم وسائل خبيثة فى «التبشير» من بينها صنع أنواع من إطارات السيارات تترك على الطرق التى تسير فيها علامات أقرب إلى شكل الصليب وبالتالى لابد من منع استيراد هذه الإطارات المعادية للإسلام».

والحرب، من هذا المنظور، بين الإسلم والغرب تبدو أقرب إلى حروب «دون كيشوت» مع طواحين الهواء، وهى طواحين متوافرة فى الناحيتين، وتزدحم ساحاتها بالكثير من الفرسان، ولكنها فى الوقت نفسه حرب حقيقية، لا تقتصر

(*) نشر هذا المقال فى مجلة العربى – العدد ٤٠٦ – سبتمبر ١٩٩٢

المشاركة فيها على الأحياء وحدهم بل إن أمواتا كثيرين يبعثون من قبورهم ليخوضوا غمارها، وعندما يكتب المؤلف الأمريكى فرانسيس فوكوياما فى كتابه الشهير «نهاية التاريخ والإنسان الأخير» أن «الإسلام الأصولى هو أحد فروع الفاشية التى قامت فى أوروبا وأدت إلى قيام الحرب العالمية الثانية»، وعندما يصرح ديبلوماسى غربى بارز فى طاجيكستان لصحيفة «لوس أنجليس تايمز» بأن «المسلمين فى هذه الجمهورية يفضلون الإسلام العلمانى على الإسلام الأصولى» وعندما تصل الأمور إلى حد أن يطرح أعضاء بالكونغرس الأمريكى على وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية عشرات الأسئلة حول «مدى الأخطار التى يمكن أن يشكلها المسلمون الراديكاليون على مصالح الغرب فى الوقت الحاضر وفى المستقبل» فإن القضية تصبح جادة، ولابد من طرحها للنقاش على أوسع نطاق، ومحاولة تشخيصها وتحديد أعراضها، قبل محاولة الخوض فى البحث عن وصفة حضارية لعلاجها، بعد أن باتت تقترب من حدود المرض.

سلاح و.... مآذن :

فى منتصف يونيو (حزيران) الماضى خرجت مجلة «التايم» الأمريكية الواسعة الانتشار وعلى غلافها صورة لمئذنة مع يد

تحمل رشاشا، وكان عنوان الغلاف الرئيسى: «هل يجب على الغرب أن يخاف الإسلام؟» وتكشف المجلة فى تقرير شارك فيه أكثر من مراسل فى أكثر من عاصمة عربية وغربية عن اتساع رقعة البلاد الإسلامية وتوسط بلدانها فى العالم خاصة بعد إضافة جمهوريات إسلامية جديدة فى وسط آسيا، خرجت أخيرا من أسوار الإمبراطورية السوفييتية. ويقارن التقرير بين ظهور القوة الإسلامية واهتزاز قشرة الأرض التى تكونت على أثرها القارات، ويقول إن العالم كله يراقب وينتظر نتائج هذا التغير الكبير، كما فعلت أوروبا القرون الوسطى عندما دق المسلمون أبوابها وهم فى قمة قوتهم.

سبقت هذا التقرير الذى يبدو أقرب إلى قرع نواقيس الخطر جلسة عقدها الكونغرس الأمريكى يوم ٢٥ فبراير (شباط) الماضى، استمع خلالها إلى تقرير أعده مدير وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية «سى. آى. إيه» روبرت غيتس، أوضح فيه، ردا على أسئلة وجهها عدد من أعضاء المجلس أن «الإسلام الأصولى» لا يشكل خطرا على الغرب ومصالحه، وقال «إننى حتى الآن لا أسلم بأن «التعصب» الإسلامى بطبيعته هو معاد للغرب»، وأكد «إن هناك بعض

العناصر والجماعات الإسلامية فى الشرق الأوسط خارج الحكم، وهى ليست معادية لنا». واستغرب مدير وكالة الاستخبارات الأمريكية الدعوة إلى الاستعداد لمواجهة خطر الإسلام الأصولى، بعد نهاية الحرب الباردة مع الشيوعية.

أما صحيفة «نيويورك تايمز» فقد أوضحت بدورها فى افتتاحيتها يوم ٧ فبراير (شباط) الماضى، وكانت تحمل عنوان «لا شياطين فى آسيا الوسطى» إنه، «خلال الشهور القليلة الماضية تحررت علاقة الولايات المتحدة الأمريكية كثيرا مع آسيا الوسطى من تحريض الإمبريالية الروسية والأيديولوجية الشيوعية، ولذلك فإنه لا يوجد أى مبرر للاستعجال فى تشويه هذه العلاقة استنادا إلى فرضية تقول إن هناك تهديدا إسلاميا موحدا يواجه الغرب».

ومع أن هذه «الأعراض» تبدو وكأنها المرة الأولى التى يتصدى فيها الغرب على نطاق المسئولين والإعلاميين والأكاديميين ودور الأبحاث للإجابة عن أسئلة تحدد علاقاته مع ما يسميه «الإسلام الأصولى» إلا أن هذه الأعراض قديمة، وربما تعود إلى مطلع هذا القرن الذى شهد انهيار «الإمبراطورية العثمانية».

صراع حضارات لا أديان :

ليس هناك صراع بين الأديان ولكن هناك صراعا بين

الحضارات، ففى عام ١٩٢٢ حاول مصطفى كمال أتاتورك عبثا إقناع المجلس الوطنى الأعلى بالتخلى عما أسماه عبء الخلافة الإسلامية، وبعد سنتين تخلى أتاتورك عن «الشورى» ولجأ إلى القوة العسكرية لفرض إلغاء الخلافة الإسلامية وبناء الجمهورية مع تقييد الحريات الدينية والسياسية. أتاتورك اعتبر أن مواجهة التحدى الغربى تقتضى استخدام السلاح نفسه الذى يستخدمه الغرب، فتخلى عن الخلافة الإسلامية لاستنهاض الدولة القومية، ولكن القومية الطورانية نشأت ليس فى عصر بسمارك، بل فى عصر الرئيس الأمريكى ولسن، فى عصر إطلاق الحريات للشعوب وليس تقييدها، ودفعت القوميات الأخرى تحت الحكم العثمانى وقتها بمن فيهم العرب والأرمن الثمن غاليا. مع ذلك فإن الشعب التركى الذى استبدل بالطربوش القبعة حافظ على إسلامه واحتفظ بإيمانه، ومازالت مساجد اسطنبول وأنقرة تموج بالمصلين، وهو ما يدفعنا إلى التوقف أمام حقيقتين: الأولى هى أن هناك خلطا فى الغرب بين الإسلام والمسلمين، والإسلام بما هو دين وأسلوب حياة يستجيب لتحديات العصر ويحاول استيعابها، وبين المسلمين فى علاقتهم فيما بينهم من ناحية، وداخل مجتمعاتهم، وعلاقاتهم مع الشعوب

الأخرى من ناحية، وهى علاقات فى نهاية المطاف ليست دينية بقدر ما هى سياسية واقتصادية وثقافية وفكرية. الحقيقة الثانية هى أن خلطا مشابها يقع لدى الطرف الآخر وكأنه ردة فعل على هذا الالتباس الغربى، حيث تخلط بعض الجماعات الإسلامية بين أشكال من التعبير السياسى والاجتماعى تتخذ من الإسلام شعارا لها وبين الإسلام كدين، فيسعى هذا البعض إلى تكفير المجتمعات والدول الإسلامية التى لا تأخذ بهذه الأشكال من التعبير السياسى والاجتماعى، وهذا الخلط قد يكون بريئا فى جزء منه ولكنه متعمد فى معظمه، ففى الغرب مازال بعضهم عاجزا عن استيعاب معركة توروز أو سقوط القسطنطينية أو حصار فيينا (١٦٨٣م) بجيوش قوات الفتح الإسلامية، وهذا التيار الذى وجد فى محمد على باشا، محاولة لتجديد الإمبراطورية الإسلامية يرفع اليوم الشعارات نفسها، فى أوروبا الصليبية لدوافع دينية متعصبة وفى الولايات المتحدة لدوافع سياسية واضحة، يقودها اللوبى الصهيونى.

إن الصراع الحضارى هو السمة الملازمة للتاريخ البشرى، وهو نتيجة للتمازج والتواصل بين المجتمعات الإنسانية، وفى عصرنا اليوم كما فى العصور السابقة فإن هذا الصراع

محتوم ولا يمكن إلغاؤه ولا تجنبه، ورغم أن جماعات من الانعزالية الأمريكية حاولت فى مطلع هذا القرن عزل الولايات المتحدة عن العالم والابتعاد عن مشاكله وما يجرى فيه، إلا أن الحرب العالمية الأولى برهنت على أنه لا مكان لهذه الانعزالية، فى عالم تتمازج فيه المصالح وتتشابك فيه الأفكار والتيارات وتحكمه شبكات اتصال ومواصلات لا يمكن لأية أسوار حجبها أو منعها.

إن صراع الحضارات متى اعتمد الحوار هو آلة للتطوير، أما متى اعتمد منطق الاستعمار والقوة والبطش والإرهاب فإنه يتحول إلى آلة للتدمير.

لا تناقض بين القومية والدين :

يروى الضابط صبحى العمرى فى «أوراق الثورة العربية»، وقد صدر أخيرا فى ثلاثة أجزاء، كيف شارك فى الثورة العربية الكبرى ضد القوات التركية تحت قيادة الأمير فيصل. ويبدأ مذكراته بالتعريف بنفسه كالتالى: «إن أسرتنا تحمل لقب «العمرى» لأنها تنحدر من نسل الخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ولدينا ما يثبت هذه النسبة»، ويضيف فى المقدمة «أيها القارىء العزيز إننى أدون لك فيما تقرأه أحداثا لنحو ستين سنة مضت، وأعتقد أن هذه الحقبة من

الزمن كانت ولاتزال أعظم وأخطر فترة مرت على أمتنا العربية، باستثناء الحقبة التى رافقت البعثة المحمدية واتصلت بزمن الفتوحات الإسلامية خلال المائة الأولى من سنى الهجرة التى انتقل العرب خلالها من الوثنية والفوضى الأخلاقية والفرقة إلى أمة ذات دين وشرائع وأخلاق وأهداف ورسالة سامية... إن الرسالة المحمدية بعد أن وحدت العرب فى جزيرتهم، حملوها إلى الشرق والغرب يدعون الأمم الأخرى إلى الله وإلى الحق وإلى الحب دعوة القوى الصادق المؤمن، ولم تمض على هذه الدعوة مائة سنة حتى كانت كلمة الله تعلو فى أكثر بقاع الأرض سكانا وعمرانا ...».

أقتطف هذه الفقرات من مذكرات العمرى لأنها تكشف عن اعتزازه بدينه الإسلامى وقوميته العربية، من دون أى شعور بالتناقض بين الاثنين: الدين والقومية، فالاثنان معا هما نسيج حضارته، ومع أنه ثار على القوات التركية الإسلامية إلا أنه قاتل قوات الغرب الفرنسية فى موقعه ميسلون ومواقع أخرى، وهو على الجبهتين متفق مع نفسه اتفاقا تاما ولا يعانى من أى غربة أو تغريب لا فى الدين ولا فى العقيدة ولا فى الانتماء، وعندما يستوقفه البدو فى وادى موسى فى الأردن، ويبدأ أحدهم بضربه، يقول العمرى: «قلت له: أما تخاف الله، ألست

مسلما؟ أنا مسلم عربى مثلكم كيف يجوز لكم من الله أن تعملوا بى هكذا؟» قال البدوى «اخس والله إنك مو مسلم، إنك ألمانى، جيتون تدبحون العرب مع الترك وتقولون حنا عرب، لعن الله أبوك» «قلت له: شوف كيف أننى «مطهر» وأريته ذلك لأننى كنت تقريبا مشكوف العورة....».

وهذه البساطة فى التعريف بالذات إسلاميا وعربيا لدى العمرى تميز جيلا كاملا شارك فى الثورة العربية الكبرى باعتبارها استجابة حضارية لتحديين: التحدى العثمانى الذى أقفل على القوميات سجن إمبراطوريته ومنعها قسرا من التطور، والتحدى الغربى الذى حاول القيام بالدور نفسه ولكن تحت شعار «الانتداب» على الشعوب المتخلفة تمهيدا لتطويرها، وكانت سمة ذلك الجيل هى المصالحة بين الدين والقومية دون إكراه ولا قسر، وعبر السلوك اليومى المعيش من دون تنظير أو تعسف.

فوكوياما.. الخطيئة القاتلة:

منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وحيّز «السياسة» يبدو وكأنه ظفر باستقلاله الذاتى عن الدين، وتحقق بذلك واحد من أبرز مطالب رواد عصر التنوير فى فصل السياسة عن الدين، وفى هذا السياق، فقد جاهدت الكنيسة فى الغرب لاحتواء ما

كانت تعتبره نفور الرعية من طقوسها، واجتهدت فى تفصيل رؤيتها لقيم المجتمع الحديثة، وأشهر هذه المحاولات ما قام به مجمع الفاتيكان المسكونى الثانى حيث أطلق مقولة «الأرجورنا منتو» أو «مماشاة العصر»، وكانت تلك أبرز محاولات الكنيسة للتحدث بلغة العصر، ولكن منذ منتصف السبعينيات بدأت هذه المحاولات تنقلب إلى ضدها، وظهر خطاب دينى مسيحى لا يهدف إلى التكيف مع القيم السائدة «الحديثة»، وإنما إلى العودة بالمجتمع إلى القيم الدينية، واشتد النقد الكنسى على «الأرجورنا منتو» باعتبار أنها خسرت الماضى دون أن تكسب الحاضر والمستقبل، وبدت هذه الظاهرة فى منتهى الوضوح فى بلدان أمريكا اللاتينية، حيث خرجت الكنيسة إلى الفلاحين، وخرجت منها قيادات فلاحية خاضت مع حركات المعارضة معارك ضد الديكتاتوريات العسكرية الحاكمة وعرفت باسم: «القديسون الحمر» أو «الآباء الحمر» حيث تعامل رجال الكنيسة مع حركات اليسار، وهو ما اضطر البابا فيما بعد إلى إعلان «الحرمان الكنسى» على أكثر من كاهن.

وهذه الظاهرة فى العودة إلى الدين اتخذت بعدا كونيا وشملت المعمورة وانبعثت فى حضارات مختلفة، وجاء

اندلاعها كردة فعل على «الإفلاس الروحى» للمجتمعات الصناعية التى فشلت، رغم عظم إمكاناتها، فى توفير السعادة الداخلية للإنسان وفى القضاء على «غربته» حيث بدا معزولا فى كون معاد وبارد.

وفى المجتمعات الإسلامية، ورغم أن هذه المجتمعات تفتقر إلى القاعدة الصناعية الضخمة التى تحول الإنسان إلى ترس فى آلة صناعية ضخمة، إلا أن هذه الظاهرة أفرزت حركات اعتمدت على «التصنيع الدينى»، وأعضاء هذه الحركات ليسوا بالتأكيد، كما يصفهم بعض الغربيين، قوى ظلامية، أمية ومتخلفة، بل على العكس، فإن فيهم كثيرين من أصحاب الشهادات الذين درسوا فى النظام المدرسى العلمانى الحديث، وبعضهم تخرج فى الجامعات الغربية، وكثير منهم يميل إلى دراسة العلوم التقنية، وفيهم أطباء ومهندسون وأساتذة جامعات، وتأخذ هذه الحركات على المجتمع تفتته وفوضاه وافتقاده لمشروع متكامل يؤمن به وينتسب إليه ويوفر له دفء التواصل ونعمة التكافل، وتعتبر هذه الحركات بالتالى أن «الحداثة» هى نتاج لعقل من دون إيمان، وهى تكشف عن البؤس البشرى ولكن من دون أن تكون قادرة على منعه أو تحرير الإنسان من قبضته.

المفكر الغربى ميتشيل بيفون يحاول إيضاح هذه الظاهرة فى مقال نشرته صحيفة «التايمز» البريطانية، فيقول «إن الإسلام اليوم، وبعد مرور ما يزيد على ١٤ قرنا على رسالته، يمر وبعد فترة من الجمود، بمرحلة من اليقظة الروحية، شبيهة بمرحلة التجديد التى مرت بها الكنيسة فى الغرب، وما نطلق عليه اليوم اسم «الأصولية الإسلامية» قد يكون شبيهها بالهجوم المضاد الذى شنته الكنيسة الأصولية على حركات التجديد التى أنتجت الكنيسة الحديثة ....» وبالتالى، يستنتج الكاتب، فإن المسلمين قادرون على بناء نظام يواكب العصر من دون أن يتخلوا عن إيمانهم ومعتقداتهم الإسلامية.

وعلى النقيض من هذا التوضيح يقف المؤلف الأمريكى فرانسيس فوكوياما فى كتابه الذى آثار ومازال يثير ضجة واسعة، وهو بعنوان «نهاية التاريخ والإنسان الأخير»، فهو يعتبر أن المجتمعات الإسلامية «مجروحة فى كرامتها»، ويقول بعمومية غامضة إن «الأصولية الإسلامية» هى أحد فروع الفاشية التى قامت فى أوروبا وأشعلت الحرب العالمية الثانية بعد سيطرة الفاشية فى إيطاليا والنازية فى ألمانيا وسعيهما للسيطرة على العالم (!). ولا يفسر فوكوياما كيف يمكن أن تكون الأصولية الإسلامية فاشية أو نازية والأخيرتان انبعثتا

من أيديولوجية واحدة هى «الرأسمالية» الصناعية، كما لا يوضح أسباب هذا الجرح فى «كرامة المسلمين»، وهو بالتأكيد عاجز عن ذلك، لأنه ليس دارسا للفلسفة ولا للتاريخ، وتعامل مع المسألة الإسلامية بحس الصحافى وليس بمنهج المؤرخ، وبتحيّز السياسى وليس بعمق الفيلسوف، وأنتج بالتالى كتابا يضع «الليبرالية» - بعد سقوط المواجهة مع الشيوعية ونهاية الحرب الباردة - فى تعارض مع الدين ومع الإسلام، ويرتكب بذلك خطيئة قاتلة لأنه لا يكتفى بإنهاء التاريخ، بل يبعث الحروب الصليبية لتكون مستقبلا بعد أن تحولت إلى ماض.

ليس الدين بل السياسة :

الأمريكيون ليسوا كلهم «فوكوياما» ومع أن إحدى ساحات المعركة بين الحزب الجمهورى الحاكم والحزب الديمقراطى المعارض هو الموقف من الطقوس الدينية، فإن الحزبين معا مشغولان بدراسة ظاهرة الإسلاميين الأصوليين وانعكاساتها السياسية فى المستقبل على مصالحهم ومصالح الغرب عموما، وأسباب هذا الاهتمام المفاجىء، بعضها طبيعى وبعضها مصطنع. وفى الحالتين فإن الأمريكيين لا يعيدون اكتشاف الإسلام كدين، بل كسياسة، وينظرون إلى الجمهوريات الإسلامية فى آسيا الوسطى باعتبارها مركز ثقل

جديدا يضاف إلى العالم الإسلامى. وهو ما عبرت عنه افتتاحية صحيفة «نيويورك تايمز» يوم ٦ فبراير الماضى عندما قالت «إن تلك الدول الجديدة هى محط أنظار الجميع، الكل يتسابق باتجاهها وما علينا نحن إلا أن نضمن أن تلك الدول سوف تتطلع إلى الشمال والغرب وليس إلى الجنوب والشرق» أى ليس إلى طهران وبكين، وبينما يتحدث بعض الاستراتيجيين - وبسوء نية أحيانا - عن احتمال قيام مثلث إيران - السودان - الجزائر، أو مثلث إيران - الجمهوريات الإسلامية فى آسيا الوسطى كقوة سياسية معادية للغرب، فإن كثيرين آخرين يتعاملون مع «أصوليات» إسلامية، تتباين فى توجهاتها وتطلعاتها فى علاقتها مع المسلمين ومع الغرب، ومن أبرز ممثلى هذا التيار البروفيسور أموس برلماتر أستاذ الاجتماع والعلوم السياسية فى الجامعة الأمريكية فى واشنطن ورئيس تحرير مجلة الدراسات الاستراتيجية، ويعتقد برلماتر أن التجربة التاريخية فى الشرق الأوسط تثبت أن التيار الأصولى التقليدى هو تيار أصولى على مستوى السياسة الداخلية لتلك البلدان لكنه «علمانى» على مستوى السياسة الخارجية، ويتعامل مع حقائق العصر وبوسائل العصر ولغة العصر، ويدعو برلماتر فى مقال نشرته صحيفة

«واشنطن تايمز» يوم ٢٥ يوليو الماضى، إلى التمعن بتلك الخصوصية، حيث يقول: «يجب أن يكون هناك تفريق وتقييم واقعى فى رؤيتنا للبلدان الإسلامية، ولابد من تجنب تعميم الإسلام الأصولى والنظر إلى تلك البلدان كتهديد محتمل أو مصدر تدمير لعوامل الاستقرار الإقليمى والدولى»

ومع ذلك، فإن برلماتر لا يجد حرجا فى التهجم على الأصولية الإسلامية فى إيران باعتبارها مظهر تهديد للغرب.

وفى سياق مختلف، وأكثر وضوحا، يحدد رئيس مركز «راند كوربوريشن» غراهام فوللر، الذى شغل لفترة طويلة منصب رئيس قسم الشرق الأوسط فى الـ «سى. آى. إيه» أن «الإسلام السياسى» أمر واقع يجب القبول به والتعامل معه، وهذا التعامل لا ينبغى أن يقتصر على «أصدقاء الغرب» بل المعارضين والمناوئين له أيضا، بمن فيهم جبهة الإنقاذ فى الجزائر مثلا. وفوللر هنا لا يدخل فى الأيديولوجيا ولكن فى السياسة ويتعامل مع الحركات الأصولية باعتبارها حركات سياسية وليست حركات دينية، وهو تيار سائد على مستوى صانعى القرار فى الإدارة الأمريكية، ومن هنا فإن الإدارة لا تخفى تفضيلها للنموذج الإسلامى فى تركيا كى يكتسب مواقع نفوذ فى الجمهوريات الإسلامية فى آسيا الوسطى،

وهذا الدور عبر عنه الدكتور «بولنت على رضا» الخبير بعلاقات تركيا مع العالم العربى ودول الجوار الجغرافى، حيث قال فى ندوة أقيمت فى معهد واشنطن فى يوليو (تموز) الماضى «إن مستقبل علاقة دول آسيا الوسطى الإسلامية مع تركيا هو أفضل بكثير من علاقات تلك الدول مع إيران، ذلك لأن تركيا تقدم النموذج الأفضل، فالشعب التركى يمارس منهجه الإسلامى، بينما الحكومة نجحت فى اتباع أساليب ليبرالية للتعامل مع العالم الخارجى، وبالتالى فإن تركيا سوف تكون هى «الجاذب» لهذه الجمهوريات لأنها تقدم «التكنولوجيا» بينما طهران مازالت تسعى إلى تقديم «الأيديولوجيا».

وبالطبع فإن هذا النوع من «التنظير» يكاد يهمل التغييرات الكبيرة والتحولات الجذرية التى مرت بها الثورة الإيرانية، بعد ١٣ سنة على قيامها، حيث بدأت الحكومة الإيرانية حوارا واسعا وجادا حول بيع القطاع العام للخاص، فى محاولة لإعادة الحيوية إلى الاقتصاد، كما سمح لرجال الصناعة والتجارة الإيرانيين الذين غادروا إيران إبان سنوات الاضطراب بالعودة إلى البلاد للمشاركة فى بناء الاقتصاد، وهذه قد تكون مظاهر اقتصادية ولكنها مؤشر على أن ما

يسميه الغرب «الأصولية الإسلامية» إنما هى مشروع مرن وقابل للتطوير من الداخل من دون أن يتخلى عن قيمه الدينية.

الصهيونية والصليبية الجديدة :

بعيدا عن الفكر التآمرى، ومن دون السقوط فى نظرية مؤامرة الغرب على الإسلام، فإن هناك شواهد واقعية لا تحصى ولا تعد على أن الصهيونية التى خسرت أكثر من موقع لدى الغرب نتيجة لحرب تحرير الكويت أولا، ولنهاية الحرب الباردة ثانيا، تسعى إلى استعادة دور الحليف الرئيسى والاستراتيجى للغرب، عبر استبدال الإسلام الأصولى بالشيوعية وطهران بموسكو، وهى فى هذا السياق تستخدم السلاحين، السياسى والدينى معا، فعلى الجبهة السياسية، ومنذ انهيار الإمبراطورية السوفييتية، فاضت الآلة الإعلامية للوبى الصهيونى فى أمريكا وأوروبا بمئات المقالات والدراسات عن خطر الإسلام على الغرب، ودعمت هذا الفيض تصريحات لمسئولين إسرائيليين عن القنبلة النووية الإسلامية وعن التمدد الإيرانى فى جمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية. وهنا بعض النماذج من هذه الحملة المستمرة:

فى ١٠ فبراير (شباط) الماضى نقلت الإذاعة الإسرائيلية عن رئيس الوزراء وقتئذ إسحاق شامير تخوفه من تأثير إيران

والإسلام الأصولى على الدول الإسلامية فى آسيا الوسطى، وبعد ذلك بأسبوعين نقل مراسل وكالة «أسوشيتدبرس» رون سانيان من تل أبيب عن أحد المسئولين فى وزارة الخارجية الإسرائيلية قوله «تعتقد إسرائيل أنه ما لم تكسب الدول الغربية - أو ذات التفكير الغربى مثل تركيا وإسرائيل - السباق مع إيران فإن طهران سوف تنجح فى إقناع قطاعات واسعة من شعوب دول آسيا الوسطى باعتناق الأفكار المتطرفة، وبالتالى فإنه ستكون أمام الغرب ست دول إسلامية أخرى للتعامل معها بدلا من دولة واحدة ممثلة بإيران».

وفى ١٢ فبراير (شباط) أيضا تنشر صحيفة «واشنطن تايمز» مقالا كتبه روبرت ساتلوف، أبرز مستشارى اللوبى الصهيونى فى واشنطن، قال فيه «إن الإيرانيين لا يعتبرون مصدرا للإزعاج فقط فى دول آسيا الوسطى الإسلامية كما هم فى لبنان والجزائر والسودان، بل إن إيران تهدف إلى تحقيق أهداف سياسية وعسكرية بعيدة المدى فى تلك المنطقة، وتهدف أيضا إلى وضع يدها على مصادر الثروات الطبيعية فى تلك المنطقة، ففى تركمانستان مثلا التى تعتبر مصدرا رئيسيا لاستخراج اليورانيوم المناسب لصنع القنبلة النووية تعمل إيران جاهدة على استغلال تلك الثروة الاستراتيجية».

ونتيجة الضغوط التى يمارسها اللوبى الصهيونى فى أمريكا يصرح جوردون أوهلر رئيس مركز حظر انتشار الأسلحة النووية فى الإدارة الأمريكية بقوله «إن برنامج إيران النووى مازال بعيد المنال، ويحتاج إلى سنوات طويلة قبل الوصول إلى نتائج على هذا الصعيد» إلا أنه يحذر من إمكان تعاون دول إسلامية أخرى مثل باكستان وسوريا وليبيا مع طهران فى إنجاز برنامج نووى لتلك الدول الإسلامية.

ويرى الباحث العربى عبد اللطيف ريان فى كتابه «الإسلام.... تحدى الغرب الجديد» أنه منذ بداية تفكك الاتحاد السوفييتى وبروز الدول الإسلامية فى آسيا الوسطى، وخاصة تلك التى تملك أسلحة نووية، أكثرت وسائل الإعلام الإسرائيلية. من تغطيتها للأخبار المتعلقة ببرنامج إسلامى نووى، وخاصة البرنامج الإيرانى.

هذا على الصعيد السياسى، أما على الصعيد الدينى، فإن جماعات «المسيحية الصهيونية» أو «الأغلبية الأخلاقية» فى أمريكا يصرحون، كما قال جيرى فلويل أحد قادتهم، إن «على الغرب مساعدة إسرائيل على جعل القدس يهودية إلى الأبد، لأنه عندئذ تتحقق القيامة، ويخرج المسيح الدجال، حيث تقع حرب تنتصر فيها المسيحية على قوى الشر

والظـلام». وهـذا هو النوع من المسـيحية المتعصبة التى تعمل إسرائيل على إنتاجـه.

الإزاحة الاجتماعية.. والتطرف :

التطرف لدى بعض الجماعات الإسلامية هو نتيجة ورد فعل لما يمكن أن نطلق عليه تسمية «الإزاحة الاجتماعية»، فقد فرض الغرب على الشرق فى العقود الأربعة الماضية نماذج من التنمية حاولت بعض الأيديولوجيات الحكومية فى الدول الإسلامية اتباع قواعدها، ولكن هذه النماذج أثبتت فشلها فى تحقيق تنمية متوازنة فى إطار بلدان إسلامية يتكاثر سكانها وتنمو مدنها وتشهد زحفا واسعاً من الريف إلى المدينة وتتضاءل فيها فرص العمل للشباب يوما بعد يوم وتضيق عليهم مساحة العيش، مع ما يوافق كل هذا من النقمة الاجتماعية وعدم الرضا السياسى، وبالتالى يتطلع هؤلاء الشباب إلى الماضى ويسترجعون انتصاراته، خاصة أن مخزونهم التاريخى ومحصلتهم التعليمية تجعل من هذا الماضى ذهبا كله وانتصارات متواصلة وتحقيق حياة مثالية، وليس مهماً أن يكون كل هذا حقيقة فى المطلق، ولكنه بالتأكيد اقتناع ثابت وهى «الحقيقة» الوحيدة التى تعرف إليها هؤلاء الشباب باعتبارهم ضحايا للغرب الصناعى، وبالتالى فإن

التطرف فى الانتماء إلى هذه الاقتناعات هو نتيجة لهذه الإزاحة الاجتماعية أو «الانتداب» الغربى على المستوى الفكرى والأيديولوجى.

ومع ذلك فإن هذا التطرف ليس أمرا محتوما، ولنأخذ قائد المجموعات الإسلامية فى جمهورية طاجيكستان مثلا، فالشيخ قوصى أكبر توران زاده، وفى مقابلة مع صحيفة «لوس أنجليس تايمز» يتحدث عن الحقبة الشيوعية التى عاشها شعبه على مدى سبعين عاما، ويقول «بالتأكيد ليس هو الماضى ما نريد العودة إليه، فخلال السبعين عاما المنصرمة تشكلت لدينا رؤية مختلفة للعالم، واقتناعى هو أن أية جماعة أو حزب أو فرد يحاول أن يفرض قيام دولة إسلامية بالقوة لن يكتب له النجاح.... إننا نستعيد تاريخنا وشخصيتنا، لا لكى نرتد إلى الماضى، بل لنملك القدرة على التواصل الحقيقى مع الآخرين من أجل بناء مستقبلنا».

وطاجيكستان هى أكثر الجمهوريات الإسلامية فى آسيا الوسطى فقرا وكانت تعتبر القاعدة الأساسية للشيوعيين «الأصوليين» فى عهد الرئيس بريجنيف، وقد تعلمت من تاريخها أن القوة لا يمكن أن تبنى دولة، مهما تعددت شعارات هذه الدولة

السماء لا تمطر ذهباً :

إن الغرب يعيد اليوم اكتشاف قوة إسلامية جديدة تضم ما يزيد على ٥٥ مليون مسلم فى آسيا الوسطى.. وهذا المارد الجديد مسلح بأنياب نووية، وليس مهما أن الصهيونية العالمية يمكن أن تخشى هذا المارد الجديد أو تحاول الاستفادة من وجوده لدعم نفوذها لدى الغرب، بل المهم كيف نستطيع نحن العرب المسلمين أن نستفيد من هذا المخزون البشرى كى تتحول معا إلى قوة استراتيجية قادرة وفاعلة فى رسم النظام الدولى الجديد. وبالتأكيد أن هذه الجمهوريات راغبة فى تقرير مصيرها بعيدا عن الهيمنة «السوفييتية» السابقة، ونحن عربا ومسلمين أصحاب مصلحة حقيقية فى أن تستطيع هذه الجمهوريات التأثير فى صنع القرار سواء داخل روسيا الاتحادية وريثة الاتحاد السوفييتى السابق، أو على النطاق الدولى. وطرح النموذج الإسلامى العربى الجاذب لهذه الجمهوريات الوليدة هو أمر فى غاية الأهمية، فإذا تذكرنا أن هذه الجمهوريات خرجت حديثا من حكم قمعى واستبدادى، فلابد أن تكون الديمقراطية وحقوق الإنسان هى فى طليعة الاهتمامات المشتركة مع شعوب هذه الجمهوريات، وبعد حرب تحرير الكويت، ومعارك المسلمين فى سراييفو، فإن الالتزام بالشرعية الدولية وتطوير العلاقات مع الغرب الصناعى على

طريق تحقيق تنمية حقيقية هى أسس لابد منها لإرساء هذه العلاقات على قواعد صلبة. إن شعوب تلك الجمهوريات حرمت طويلا من الحد الأدنى للتنمية وللرعاية الاجتماعية كما حرمت من حقوقها الثقافية وحقها فى تكريس هويتها المتميزة، وفى هذا المجال فإن لدينا الكثير مما نعطيه، ليس على صعيد الدول وحدها ولكن على صعيد الهيئات الإسلامية الناشطة فى أكثر من مكان على اتساع رقعة الكرة الأرضية.

ومع بناء علاقات إيجابية مع هذه الجمهوريات، فإن هناك مهمة ملحة ولا تتحمل التأجيل وهى مهمة إنقاذ المسلمين فى البوسنة والهرسك، صحيح أن الغرب يشارك العالم الإسلامى موقفه من المذابح والمجاوز التى يعيشها المسلمون هناك، ولكن المبادرة الإسلامية لابد أن تكون السباقة.

إن الغرب الليبرالى والعلمانى والصناعى استطاع فى عام ١٩٦١ وحده إرسال ٤٠٠ بعثة تبشيرية أمريكية تضم ٣٤ ألف مبشر إلى أنحاء العالم، ووصل عدد الدعاة فى إفريقيا فى ذلك العام إلى ١٨٣٣٨ مبشرا، بينما تم بناء كليات للاهوت ومدارس للتبشير بلغ عددها ٤٨٩ كلية، وفى العام نفسه أعد الفاتيكان ٢٠٠٠ كاهن تم إرسالهم إلى إفريقيا، أما فى عام ١٩٦٣ فقد ترأس الأمريكيون وحدهم ٢٢١ أبرشية فى البرازيل و١٢٥ أبرشية فى البيرو إضافة إلى مئات المؤسسات الأخرى التى توزعت على أنحاء الأرض.

إن المصـــالحة بين الديــن والليبرالية تستحق منا أكثر من وقـــفــة، وإذا كـانت الخـــلافـات داخـل العـــالـــم العــربى والإســـلامى تعيق تقديم النموذج المطلوب، فإن هذا لا يمنع أن هنـــاك دولا إســـلامية فى جنـــوب شرق آسيا مثل أندونيسيا ومـاليزيا نجـحت فى إقـامـة أنظمـة تتـعايش فيـهـا العـرقيـات المختـلفة وتحقـق تنمية حقيقية قائمة على قاعدة الديمقراطية والتعامل الحر فى السوق. وكما أن الخـلاف بين الجمهوريين والديمقراطيين فى أمريكا على ضرورة إقامة الصـــلاة فى المـــدارس لا يمنع أمريكا من متابعة مسيرة التنمية وكـذلك إرســال بعثـــات التبشير، فإن هذه الخلافات والاجتهادات فى العالم العربى الإســـلامى لا تمنع ضرورة بذل جهود مشتركة لمصافحة اليد التى تمدها الجمهوريات الإسلامية فى آسيا الوسطى باتجاهنا، وإذا لم ننجح فى التـقـاط هذه اليد فـإن التطرف الأصولى لن يكون دعاوى صـهـيونيـة أو غـربيـة بل واقعا ربما يجتاحنا جميعا ومعنا تلك الجمهوريات الباحثة لدينا عن نموذج، وهو حديث سياسة وليس حديث دين، وهو حديث تنميـة وليس حديثـا عن طقـوس فى الظلام تمارســهـا أقليات مازالت تعتقد أن السماء يمكن أن تمطر ذهبا.. لو أنها وصلت إلى السلطة.

١١

العرب من منظور غربى

ألم الفشل وأمل الإصلاح

مع دخول العام الجديد (*) يقف المراقب برهة ليستعرض الماضى ويمد بصره - إن أمكن - للمستقبل. هذه الوقفة ليست - ويجب ألا تكون - وقفة الرجل الذى يرى الشجرة ولا يرى الغابة، بل من ينظر إلى الشجرة والغابة معا. بعد أشهر قليلة سوف تحتفل الجامعة العربية بعيدها الخمسين، مرور خمسين سنة على هذه المؤسسة العربية السياسية الأولى، وبعد ذلك سوف نستعد نحن فى «العربى» للاحتفال بعيدها الأربعين. خمسون سنة وأربعون سنة تلاقت فيها المؤسستان فى محاولة لخدمة الإنسان العربى، الأولى من منظور سياسى، والثانية من منظور ثقافى، فهل تكامل هذان المنظوران؟ وهل استطاعا أن يمهدا السبيل أمام العالم العربى إلى مشارف القرن الواحد والعشرين؟. إن العرب يشدهم إلى المستقبل أمل ويعوقهم فى الماضى ألم، وبين الأمل والألم يدور حديثنا فى مطلع سنتنا هذه.

ولأن الهم العربى قد عولج من داخله من أقلام وكتاب كثر فإن الحاجة تبدو ملحة إلى أن يعالج هذا الهم من خارجه، لقد نظرنا فى المرآة كثيرا لأنفسنا وآن لنا اليوم ألا نرى أنفسنا ونعجب بها، بل ننظر كيف يرانا الآخرون.

مايكل فيلد Michael Field صحفى بريطانى يعمل فى

(*) نشر هذا المقال فى مجلة العربى - العدد ٤٣٤ - يناير ١٩٩٥

جريدة الفاينانشيال تايمز وهو مهتم بالشأن العربى وله كتابات سابقة على هذا الكتاب الذى أريد أن أقدمه اليوم، وعنوانه «داخل العالم العربى» صدر فى نهاية العام الماضى ١٩٩٤ ـ وهو كتاب صريح، يمكن أن يوصف بأنه صورة شبه كاملة لوصفة مفادها «كيف يرانا الآخرون؟». وليس بالضرورة أن نقبل كل ما جاء فى هذا الكتاب من تفاصيل، إلا أنه من الخطأ أن نغض بصرنا عنه، وما سأقدمه هنا لا يعنى الإحاطة الشاملة بما يريد الكاتب أن يقول. ولا غنى لمن أراد أن يتابع أن يقرأ الكتاب. يقول الناشر منوها إن هذا أول كتاب يصدر بالإنجليزية عن العرب (كمجموع) بعد احتلال العراق للكويت وتحريرها. ويسرد لنا الكاتب قائمة طويلة بأسماء الذين قابلهم من العرب وغيرهم لوضع هذا الكتاب، كذلك فإنه يشير إلى خبرته ومقابلاته السابقة من قسمين سماهما الكاتب: الفشل والإصلاح.

«الفشل» قصير لا يستغرق سوى ثمانية فصول لا غير، ولكن «الإصلاح» عسير يأخذ من حجم الكتاب عشرين فصلا كاملة.

الفشل العربى

لماذا فشل العرب وأين فشلوا؟. هذا هو السؤال الأساسى الذى يطرحه الكاتب فى قسمه الأول.

يعتبر الكاتب أن الفشل العربى السياسى والاقتصادى قد امتد لأكثر من خمسة عقود بعد الحرب العالمية الثانية. وهناك شعور بين العرب - من وجهة نظره - بالخيبة وعدم الثقة بالنفس، وهو يقدم من التجربة الجزائرية مثالا لهذا الشعور بالخيبة، وهى خيبة عبر عنها الرئيس الراحل هوارى بومدين - قبل المشكلات الأخيرة - قائلا: (لقد عملنا من أجل الاستقلال، ولكن حلاوته سرقت من شفاهنا). ويرى الكاتب أن الخيبة والفشل ظاهرة عامة فى الدول العربية ومن مظاهرها الديون المتزايدة لمعظم هذه الدول لمؤسسات مالية أو دول خارجية، الأمر الذى يقود فى النهاية إلى معادلة طرفها الأول أن الدولة التى لا تستطيع أن تضمن إيجاد عمل لمواطنيها أو تقدم الخدمات التى عودتهم عليها فى السنين الماضية لابد أن تقدم مقابلا لذلك «الطرف الثانى من المعادلة» أن تقدم تنازلات سياسية. إلا أن المعضلة أن هذه التنازلات السياسية قد تقود - فى نظر الكاتب - إلى فوضى إن هى قدمت بسرعة ودون تخطيط تدريجى، حيث ينقل عن أحد الثقات قوله (إن الديمقراطية العربية كالدواء يمكن أن تقتل إذا أخذت بجرعات كبيرة)!.

ويلاحظ الكاتب أن تعطيل خطوات الديمقراطية الشاملة هو ما سماه التحدى الأصولى؛ فبعض الإسلاميين - كما يقول -

رجال دين مثاليون لا شك فى ذلك، إلا أن معظمهم يستخدمون الشعار الدينى للوصول إلى السلطة، ويؤيدهم الكثيرون لا لأسباب خاصة بهم ولكن لأن هؤلاء لهم موقف من الآخرين أو السلطة القائمة.

جذور الفشل العربى

الفشل العربى الذى نرى مظاهره اليوم له جذور تمتد إلى مرحلة الحرب العالمية الأولى، عندما نشط القوميون العرب ضد الهيمنة العثمانية آملين الحصول على الاستقلال، ولكن كل ما حصلوا عليه بعد ذلك هو الوقوع فى قبضة الاستعمار الغربى وتكريس الانقسام بين الأفكار المختلفة، وأخيرا قيام إسرائيل برغم أنف الجميع.

ويبحر الكاتب فى تاريخ العرب الحديث المعروف للكثير منا، ولكنه يحلله بمنظور آخر. فهو يعتقد أنه ليس الفشل والمرارة هما السبب فى أن القوميين لم يحصلوا على دولتهم الموحدة، فحتى هذه الدولة لم تكن لتسعدهم بل وقد تفتقر أيضا إلى الاستقرار نظرا للتناقضات التى يمكن أن تحتوى عليها. وما اختلف القوميون عليه فى المشرق ليس أن تنشأ دولة عربية موحدة ولكن حول أى مقاطعة من المقاطعات يمكن أن تنضم إلى هذه الدولة مع ما فيها من أقليات عرقية أو مذهبية. فكرة الوحدة التى رفعت شعارا لتخويف أو إرهاب الآخرين لم يكن

رافعوها يرضون بها. ويدلل الكاتب على الخلافات العربية من مراحلها المبكرة، ويلاحظ بشىء من الغمز المبطن أن الوحدة العربية مقبولة فقط من تلك الدول - التى تمكنت من السيطرة على الآخرين - لا مشاركتهم.

ثم يأتى الحديث عن ملابسات الثورة العربية سنة ١٩١٦، وهو يرى أن ذلك تم لأن جمال باشا (الذى سماه التاريخ العربى بالسفاح)، قد اكتشف نية الشريف حسين بالانفصال عن الإمبراطورية العثمانية، وكان يجهز جيشا لاحتمالات العصيان. ويرى الكاتب أن أحد أسباب الفشل العربى اللاحق هو أن العرب لم يفهموا ما حدث فيما بين عامى ١٩١٤ و١٩٢٢ وهى أعوام الحرب العالمية الأولى وما بعدها، فهذه الفترة هى مصدر ظهور معظم الخرافات السياسية والتصور القائل إن خلف كل حدث توجد مؤامرة أو ما يعرف بالتفسير التآمرى للتاريخ. مع أنها فى نظر الكاتب مصالح للدول الكبرى تغيرت وتبدلت حتى بمرور سنوات الحرب وسنوات المفاوضات التى تلتها. لذلك فإن اتفاقية سايكس - بيكو (فبراير ١٩١٦) ووعد بلفور للصهيونية (نوفمبر ١٩١٧) ومراسلات الشريف حسين مع مكماهون، كلها كانت ضرورات الحرب والسعى وراء النصر.

ومن الطريف أن الكاتب يفسر الحديث عن الاستقلال فى

مراسلات الشريف حسين ومكماهون بأنه يعنى الاستقلال عن تركيا، ولا يعنى أن العرب - تلقائيا - سوف يحكمون أنفسهم!! ويبرر هذا القول بأن الغرب كان على يقين منذ عقود - قبل الحرب العالمية الأولى - من سقوط الإمبراطورية العثمانية، وكان يشار إليها دائما «بالرجل المريض»، وفى حالة سقوطها فإن الدول الأوروبية سوف تتسلم مسئولية الإشراف على الأراضى التى كانت تابعة لها. لقد كان الساسة الغربيون وقتها ينظرون إلى العرب فى إطار الأفكار التى استقوها من الكتاب المقدس أكثر من فهمهم للعرب كحقيقة وواقع. ودائما كانت المصالح هى التى تحدد مسار السياسة الغربية، فقد كان هم البريطانيين الأساسى تأمين طريق سكة حديد من موانىء البحر الأبيض إلى شمال الخليج لتسهيل نقل الجيوش من أوروبا إلى الهند، جوهرة الإمبراطورية فى ذلك الحين، وأيضا لإبعاد الروس عن المنطقة . وظلت مشكلة البريطانيين لمائتى عام خلت ألا يكون للروسى مواطىء أقدام فى موانىء البحر الأبيض، وألا تكون لهم حاميات عسكرية فى أفغانستان وإيران، والتى من خلالها يمكن أن تصل جيوشهم إلى سهول الهند.

والفرنسيون من جهة أخرى كانت مصالحهم تتمحور حول المسيحيين فى جبل لبنان، والذين تدخلوا قبل ذلك لحمايتهم

فى الحرب الأهلية سنة ١٨٦٠، ومنذ تلك الحرب كان الجبل اللبنانى يحكم من مسيحى مسئول مباشرة من الصدر الأعظم فى اسطنبول، ولكن هذا كان يتم بالتشاور الدائم مع القوة الغربية. هذا التدخل السياسى الفرنسى تواكب مع الاهتمام بزيادة التجارة، وكانت السفن التجارية الفرنسية تنقل الحرير من دمشق مرورا ببيروت إلى البرجوازية الفرنسية الناهضة فى نهاية القرن الماضى. وقد ارتبط ذلك بذكريات فرنسية قديمة ترجع إلى الدولة المسيحية التى ظهرت إبان الحروب الصليبية وكانت عاصمتها دمشق. لذا فقد كانت الخطوة الطبيعية، أنه بمجرد إعلان الدولة العثمانية دخولها الحرب أن تحاول فرنسا احتلال الإقليم السورى.

من هذه المصالح نبتت فكرة تقسيم ممتلكات الإمبراطورية العثمانية إلى إقليم شمالى يكون بحوزة الفرنسيين، وإقليم جنوبى يحوزه البريطانيون. ذلك كان التخطيط إبان الحرب، أما بعد الحرب فقد اختلفت المصالح. وجد البريطانيون أنفسهم فى دوامة وعودهم المتناقضة مع الفرنسيين، ومع الشريف حسين، ومع الصهيونية.

ومع المناورات السياسية التى تلت، فإن هذه الوعود الثلاثية لم تتحقق كما أريد لها، فاكتفى الفرنسيون بسوريا ولبنان بعد مناوشات وحروب، وضم البريطانيون إقليم الموصل

لمصالحهم فى العراق، إلا أن العرب كانوا مختلفين أيضا. ففى المؤتمر السورى العام الذى عقده القوميون فى نهاية عام ١٩١٩ وبداية ١٩٢٠، كان هناك اتفاق على أهمية وجود سوريا الكبرى ولكن ليس العراق، فقد أصر معظم ممثلى ما بين النهرين (العراق لاحقا) على أن يرفضوا فكرة التوحد[١].

هذه الجذور فى الاختلافات التى يناقشها الكاتب بإسهاب هى التى، فى نهاية الأمر، كانت السبب فى وجود بعض الدول العربية المعروفة اليوم فى بلاد الشام، وظهرت الدولة القطرية التى أخذت استقلالها بعد ذلك تدريجيا من النفوذ البريطانى والنفوذ الفرنسى وتوالت مواقيت الاستقلال وتكون الدولة الحديثة.

سنوات الليبرالية ورد الفعل

سنوات الاستقلال الأولى أوجدت حكومات ليبرالية كانت حريصة على القطاع الخاص والمبادرة الفردية، وحرية التجارة وحرية الانتقال، وحرية القول، وامتد العصر الليبرالى منذ الاستقلال حتى نهاية الأربعينيات، بدرجات مختلفة، إلا أن هزيمة سنة ١٩٨٤ وظهور دولة إسرائيل أحدثا العديد من ردود الفعل العربية، وكان سببها المباشر أن الجيوش العربية فسرت تلك الهزيمة بتخاذل الحكومات العربية التى أدخلت إلى الحرب جيوشا لم تكن مستعدة ولا مجهزة، وتزامنت

الانقلابات العسكرية بتحول العالم إلى حرب باردة. ومن أجل تعبئة الجميع - كما رأى المسئولون الجدد - صار التحول التدريجى إلى الاشتراكية العربية، وهى محاولة لإيجاد صيغة ما تناسب الثقافة العربية ولا تندمج مع الممارسات الماركسية، فقط الدولة الوحيدة التى أعلنت ماركسيتها هى دولة اليمن الجنوبى، أما بقية التجارب العربية فقد كانت تعبيرا عن الجو العام الذى أخذ يسود العالم الثالث، وكان الهدف هو البحث عن توليفة سياسية/ اقتصادية لتسريع التحديث، إلا أن هذا التسريع ومحاولة تعبئة موارد المجتمع لملاقاة التحدى الذى فرضته إسرائيل سرعان ما وصل إلى مرحلة مخيبة للآمال من جديد، وهى هزيمة ١٩٦٧، والتى تعد بمثابة الكارثة الثالثة للعرب بعد هزيمة عام ١٩٤٨ قبلها، واحتلال العراق للكويت سنة ١٩٩٠ بعدها.

المراوحة الاقتصادية

جزء من الكتاب، سواء فى قسم الفشل أو قسم الإصلاح يخصصه الكاتب لمناقشة الاقتصاد العربى. فخلال عشرين عاما بعد تصحيح أسعار النفط ١٩٧٣، كان دخل العرب من النفط حوالى تريليونى دولار، بعض هذا الدخل استغلته الدول المنتجة، وبعضه (أكثر من ١٠٠ بليون دولار) حول إلى الدول العربية الأخرى فى شكل هبات أو قروض ميسرة ولم يحدث

هذا المال - فى أى مكان كان - معجزة اقتصادية تماثل ما حدث فى دول جنوب شرق آسيا مثل كوريا وتايوان أو سنغافورة.

ويفسر الكاتب السبب فى فشل هذا المال فى تحقيق معجزة اقتصادية بأن المال وحده ليس بالضرورة مسببا جيدا للتنمية. رأس المال تحتاج إليه الدول لبناء الموانىء والطرق وشبكات الاتصال وبعض البنى التحتية وكذلك المدارس والمستشفيات، ولكن من أجل إقامة صناعة متطورة وخدمات مثمرة فإن الدولة - أية دولة - تحتاج إلى أكثر من المال، تحتاج إلى الاستقرار السياسى وقوة عمل واعية ومنظمة وملتزمة وسوق قريب نشيط. والعديد من الدول العربية تنقصها هذه العوامل.

لقد افتقدت المنطقة الاستقرار نتيجة الحروب مع إسرائيل، والحروب الأهلية، والحروب الإقليمية التى لا تكاد تنقطع، الغرب يعرف العرب بالمال النفطى.. وكما يقول الصحفى باترك كوبيرن - من الفاينانشيال تايمز - (إن مشكلة النفط أنه لا يفعل شيئا غير أن يعلم الناس الاستمتاع بصرف مداخيله). وهذا القانون - يؤكد المؤلف - ينطبق على الدول العربية الغنية والمستفيدة منه بشكل مباشر أو غير مباشر.

وبرغم ذلك - يؤكد المؤلف - فإن سوء استخدام المال النفطى ليس هو سبب الفشل الاقتصادى. إن الفشل الحقيقى هو

سوء إدارة الموارد البشرية، تدريب البشر والاستفادة من طاقاتهم. خارج دول النفط فى الخليج - يرى المؤلف - أن الدول العربية قد سنت قوانين اقتصادية غير مرنة، ففى ضوء التوجه نحو الاشتراكية العربية منذ ١٩٦١، كانت الفكرة السائدة فى الدول العربية هى توظيف وتعبئة إمكاناتها لصالح الشعب، وليس فقط للطبقة الرأسمالية، وكانت دوافع هذا التفكير مبررة سياسيا وإلى حد ما اقتصاديا وقتها، ولكن الدولة فى هذا المضمار كانت تفكر فى الإمكانات المادية المعروفة (مصادر الثروة المادية) كالأرض والزراعة، المواد الأولية، الطاقة، الصناعة، القوة البشرية وفاتها التفكير بالمصادر غير المادية للثروة، وهى المبادرات الإنسانية والحوافز، وكذلك فاتها التفكير بربط المشروعات الصناعية بالعمالة المؤهلة وبالطلب فى السوق المحلى واحتمال الربح، هذه الأفكار كانت غريبة عن تفكيرهم. ويضرب الكاتب مثالا بتلك المشروعات الضخمة التى قامت بها الدولة - وكانت دوافعها سياسية لا اقتصادية - فشلت كلها فى تحقيق الأهداف التى قامت من أجلها. الحكومات أممت الشركات الخاصة، وأوجدت مشروعات خاصة بها، وتشكلت شركات للدولة تخصصت فى نوع معين من الإنتاج، وحددت بعد ذلك حجم المنتج والسعر الذى يباع به، وما إذا كان المنتج للسوق

المحلى أو للتصدير وكانت فكرة الصناعة والإنتاج للإحلال مكان الواردات فكرة جميلة ومغرية على الورق، ولكنها أجبرت الدولة على أن تخصص رأس مال وقوة عمل فى قطاعات لا تستطيع المنافسة فيها، وكان الإنتاج للخارج يتم عن طريق التبادل السلعى مع الدول المماثلة (الاشتراكية) دون الحصول على نقد نادر.

كل ذلك جر إلى مجموعة من المشكلات الاقتصادية الداخلية، منها تدهور سعر العملة الوطنية وظهور السوق السوداء للعملات الصعبة، وعطل من النتائج الإيجابية المرجوة التشابك البيروقراطى والإهمال الوظيفى والوساطة وكل الأمراض الاجتماعية.

فى أماكن أخرى من العالم العربى والتى لم تقيد بمثل هذه القيود نجد هناك معوقات أخرى لها طابع آخر، فرجال الأعمال العرب - فى معظمهم - لا يتوجهون للاستثمار فى الصناعة بل يرحبون بالاستيراد، وهذا راجع تاريخيا - كما يرى المؤلف - إلى تطور طبقة التجار الذين يرحبون بالاستيراد والتوزيع وأخذ الوكالات للسوق المحلى أو العمل بالمقاولات. وهى مجالات - فى معظمها - لا تتطلب المخاطرة برأس المال، زاد على ذلك أن المجتمع العربى مجتمع مظاهر، فترى الرجل يستخدم سيارة فارهة ويلبس الملابس الغالية ويزين زوجته

بالحلى، وليس لديه فى نفس الوقت أى نوع من الادخار.

وحتى لو كان رأس المال متوافرا فإن هناك مقاومة مزاجية لتوظيفه، على عكس ما نجده فى الاقتصاديات الصناعية الحديثة. أهم استثمار لصاحب المال العربى هو فى العقار، حيث الضمانات كبيرة (فالعقار لا يمرض ولا يموت).

وعلى الرغم من أن العرب استوردوا فى بداية التسعينيات من المواد الغذائية بما يساوى تقريبا عشرين مليار دولار، إلا أن اهتمامهم بتطوير الأرض الزراعية هو اهتمام قليل، فالفرات ودجلة يجلبان حجما من الماء بمثل ما يجلبه النيل إلى مصر، إلا أن الاهتمام بالزراعة فيما بين النهرين فى حدوده الدنيا ولا يستفاد من الأرض القابلة للزراعة فى السودان، والتى يعتقد الخبراء أنها سلة الخبز ليس للعرب وحدهم بل لمعظم إفريقيا. أما العناية بالموارد البشرية فإنها المنطقة المهملة كما يرى الكاتب. فالمال يصرف على المبانى المدرسية، إلا أن مستويات التدريس والتدريب غير معتنى بها، فهناك مواد جغرافية وتاريخية وسياسية وقانونية لا يسمح بتدريسها فى الجامعات، ويتكدس الطلاب العرب فى صفوف التعليم الأدبى والاجتماعى، أما التعليم العلمى المميز أو التطبيقى فإن نسبته قليلة، ولا يترك الكاتب الموضوع الاقتصادى إلا بعد أن يستعرض مجموعة من أشكال الفشل

التى انتابت مشروعات الاستثمار العربى/ العربى - خاصة تلك المشروعات التى انطلقت من دول الفائض المالى (الخليج فى السبعينيات والثمانينيات) إلى بلدان الكثافة السكانية.

البحث عن استجابة

عدد سكان البلاد العربية حوالى ٢٣٠ مليون نسمة (تقريبا) موزعين فى بلدان ثقل عربى وبلدان قليلة الكثافة السكانية، ثلثاهم فى إفريقيا والثلث الثالث فى آسيا، وعدا المصريين فى وادى النيل وسكان الأهوار فى العراق (قبل التجفيف الأخير للأهوار) الذين يعيشون بقرب الماء، فإن معظم العرب يعيشون على حواف الصحراء، وهذا ما أعطاهم النظر إلى الخارج، ومعظم الاقتصاد السائد فى البلدان العربية هو اقتصاد الخدمات وخاصة المتعلقة بالتجارة والتوزيع وإدارة المحلات الصغيرة، والكثير من رجال الأعمال صنعوا ثرواتهم من الاتجار بالعقار، والمقاولات، والاستيراد، والنقل وأخيرا السياحة. ولقد كان دخل مصر من السياحة فى بداية التسعينات يساوى مجموع الدخل من النفط والمعونة الأمريكية وما يرسله المهاجرون المصريون لذويهم.

ولا يوجد بلد عربى لديه قطاع أساسى فى الصناعة غير صناعة البتروكيماويات فى المملكة العربية السعودية، وصناعة الملابس فى تونس والمغرب أما المستثمرون الخواص فلا

يستخدمون أموالهم - عدا ما يحدث فى السعودية - لأسباب إما سياسية أو مزاجية مما جعل الاستثمار الرئيسى يقوم به القطاع الحكومى - غير الكفؤ - المقيد بالقيود البيروقراطية.

ويرى معظم العرب هذه الصورة المشوشة من الحروب والهزائم والفشل الاقتصادى، على أنها وضع غير عادل وغير متوقع، وحيث إنه فى ذهن كل عربى تاريخ الأجداد العظام وانتصارات السلف الصالح وما سمع وقرأ من مساهمات كبيرة فى الحضارة العالمية، لهذا كله فإن المسافة بين المأمول والواقع مسافة كبيرة، وهى التى تسبب كل هذا الإحباط.

هناك قيم مشتركة لدى الطبقات العليا فى العالم الثالث منها أنها حديثة، متسامحة، مادية، ودولية. ويشارك بعض العرب فى هذه القيم، ولكن الجماهير العربية الأعرض لا تنسى جذورها الأكثر قدما والأكثر عمقا ولا تنفك عن ثقافتها التقليدية. لذلك فإن ردة فعل هذه الجماهير ليست قبول الأفكار الجديدة والتكيف معها. بل رفضها والبحث فى تاريخهم عن حلول لمشكلاتهم، عربية وإسلامية.

هذا التوجه هو الذى يجعل الجماهير العربية رافضة للغرب وهو رفض ليس بجديد. فقد رفض العرب - تحت الحكم العثمانى - الاحتكاك بالغرب، لذا نجد أن معظم من تعاطى التجارة مع الخارج، وبالتالى حصل على شىء من التعليم،

كـان إمـا من الأجـانب القـاطنين فـى البـلاد العـربيـة أو من المسيحيين العرب

فى آخر القرن التاسع عشر نجد النفور من نفوذ الغرب قد ظهر فى ردة فعل عرابى باشا ضد حكم الخديو توفيق وضد الأوروبيين الذين تحكموا فى ميزانية الدولة وقتها، وكذلك خـلال العـشـرين سنة الماضـيـة ظهـرت دعـوات الإسـلام السياسى.

لقد أضيفت عوامل جديدة إلى العوامل القديمة، فعلاقات الدول العربية البينية تتغير، وكذلك علاقاتها بإسرائيل تتغير، وهى متغيرات جذرية لابد أن تؤثر فى ما كنا نعرفه ونتوقعه من استقرار أو اضطراب، من توجه إلى الأمام أو النكوص إلى الخلف.

ذلك ملخص لما يريد أن يقوله الكاتب فى كتابه، هو بالفعل جولة داخل العالم العربى - ماضيه وحاضره ومستقبله - وأفضل ما فيه هو الرصد الموضوعى فى معظم الأوقات للظواهر السياسية والاقتصادية والاجتماعية العربية. وهو يتركنا على مفترق طرق، إما التوجه إلى الأمام عن طريق الإصلاح الاقتصادى والسياسى أو النكوص إلى الخلف لمزيد من الفرقة والتشرذم وربما الحروب.

ولا توجد طرق سهلة للشعوب لاجتياز مشكلاتها، فقط توجد عقول تنير الطريق إلى الأمام. وكل عام والعرب طيبون.

١٢

البحث عن التوازن العربى المستقر

أمراض العرب السياسية لا يُعرف لها تشخيص وتستعصى على العلاج

كان أغسطس دوما هو شهر الهروب من قيظ الحر وقسوة الرطوبة، ولكنه أصبح رغما عنا هو شهر الوقوف أمام الذات. ليس وقوفا على الأطلال أو البكاء عليها كعادة بعض العرب الحميمة، ولكن فى محاولة لتأمل جروح الماضى والنظر فى أسبابها وفتح نافذة على المستقبل.

منذ أربع سنوات - أى منذ الغزو العراقى للكويت - وأنا أشعر أن أغسطس من كل عام يمثل نوعا من مفترق الطرق بين نظام عربى قديم انتهى أمره ولم يعد له وجود.. وبين نظام آخر لم يتبلور بعد تاركا إيانا فى حالة من السيولة السياسية علينا أن نحاول أن نبحث لها عن اسم أو صفة ربما يمكن التعامل معها من أجل إيجاد طرق جديدة للتفكير فى ذلك النظام العربى المرتجى والمستقر.

فى الغرب يطلقون تعبير «أعراض صينية» على الأمراض المزمنة التى لا يعرف لها تشخيص محدد أو يوجد لها علاج ناجع، والنسبة (للصين) هنا تعنى المجهول أو الغامض كغموض اللغة الصينية بالنسبة للأوروبى، فأى تعبير يمكن أن نطلقه على أمراضنا العربية المزمنة؟ أجد نفسى ميالا لأن أطلق عليها «أعراض يمنية» ربما لأن الكابوس اليمنى مازال قائما ومستمرا، وربما لأن اليمن هى بيت العرب القديم، خرجت منه كل قبائلنا، وفيه استوطنت معظم أمراضنا، و

يمكن أن نسميه أيضا (أعراض لبنانية) لا فرق، فإذا اقتربنا قليلا وأزحنا تراب الزمن الذى أصبح الآن له لون البارود والدم لتوصلنا إلى تشخيص الحالة العربية، و«الأعراض اليمنية واللبنانية» هى ليست يمنية فقط أو لبنانية ولكنها حالة تنم عن وضع العرب اليوم، مرض العرب السياسى هو حروب أهلية لا يعرف لها تشخيص ويبدو أنه لا يوجد لها علاج أيضا.

لا إكراه فى الوحدة

ربما كان «الكابوس اليمنى» الأقرب والأحدث والساخن والذى مازالت آثاره الدموية تتوالى وتتطور وتشغلنا جميعا يجيب عن سوال تأخرت الإجابة عنه اثنين وثلاثين عاما كاملة، وهو سؤال له علاقة بآمال العرب العريضة، ألا وهى (الوحدة). ماذا لو أن عبد الناصر لم يقبل منطق الانفصال فى الوحدة بين مصر وسوريا وقرر أن يلجأ للخيار العسكرى؟ ماذا لو أنه لم يتراجع فى اللحظة الأخيرة ـ كما قيل ـ ويأمر بوقف القوات التى شرع فى حشدها والعتاد الذى كان قد بدأ فى تسييره؟

لقد عشنا طوال العقود الماضية ونحن نرثى هذه الوحدة قصيرة العمر، وتبارى مفكرونا القوميون ـ وهم منتشرون على الأرض العربية ـ فى لوم عبد الناصر لأنه تخاذل فى مواجهة

عسكر الانفصال، وأخذوا يذكرونه دوما ويذكروننا أيضا بأن الوحدة هى أشبه بعمليات (الولادة الصعبة) يجب أن تُعمد بقليل من الدماء وكثير من الألم، فعل هذا غاريبالدى وهو يفرض الوحدة الإيطالية بالسيف، وأكده بسمارك من خلال عشرات الدسائس والمؤامرات ضد أمراء الإقطاعيات الألمانية، وكان هؤلاء المثقفون جميعا يطالبون عبد الناصر بإلحاح بأن يتحلى بعزيمة غاريبالدى ودهاء بسمارك وأن يتبع أى أسلوب «برجماتى» يراه لأن الوحدة باقية والأشخاص ذاهبون.

لم يفعلها عبد الناصر اعتمادا على حدسه السياسى العميق، وعلى معرفته الواضحة بالمتغيرات، فعرب النصف الثانى من القرن العشرين هم غير إيطاليى وألمان القرن التاسع عشر!! لكنه حسب حساب الزمن الذى تجاهله الكثيرون منا، ونجا مؤقتا من فخ الحرب الأهلية بين مصر وسوريا، وإن لم ينج من فخ الحرب الأهلية فى وقت لاحق فى اليمن، لقد ضحى بتجربة الوحدة كى ينجو بفكرة وحدة الصف التى تحقق أهداف العرب تجاه التحديات المفروضة عليهم سياسيا ومعيشيا، تجاوز الواقع الصعب، فربما يأتى يوم تتحقق فيه الوحدة بالتراضى بين أطراف عربية استكملت وحدتها الوطنية وأدركت أن مصلحتها المشتركة هى فى الوحدة.

يقدم لنا الإخوة المتصارعون فى اليمن اليوم إجابة واضحة عن مصير الخيار العسكرى لإقرار الوحدة، فباسم هذا الحلم النبيل ترتكب المجازر وتقصف المدن ويتسابق الجنود الذين لا يمتلكون القدرة على ارتداء ملابس عسكرية لائقة فى خوض المعارك وإهدار مئات الطلقات على (إخوانهم/ أعدائهم) من أطفال ونساء وعجائز، وهم بذلك يضيفون حلقة جديدة من مسلسل الحروب العربية الأهلية التى لم تتوقف ولا يبدو أنها ستتوقف.

وإذا كان البعض قد علق ساخرا بأن العرب فى حاجة إلى عدو جديد يحاربونه بعد أن ظهرت تباشير الصلح مع إسرائيل، فإن الصراع اليمنى يؤكد أن الحرب والنزيف العربى لم يكن يوما ضد إسرائيل بقدر ما كان ضد أنفسنا. لقد حدثت بيننا وبين إسرائيل صدامات مسلحة على فترات زمنية متفاوتة، ولكن الحرب الفعلية التى استطالت ودامت وأخذت أشكالا ومواقع وشعارات وقيادات وضحايا مختلفة هى الحرب العربية ـ العربية، الحرب التى مزقتنا واستنزفت ثروتنا وشتتت وفاقنا وأضاعت مصالحنا، ولو أن طاقة العداء العربى هذه قد تحولت قليلا لإنصاف أهل فلسطين لما وصلنا إلى تلك الاتفاقيات المجحفة، من نوع غزة وأريحا وغيرها.

لقد بترنا غالبا طريق الوحدة دون بوصلة أو خارطة فتاهت

معالم الطريق أمامنا.

روح القبيلة تسود

بماذا يمكن أن نصف هذه الحرب الأخيرة وبقية الحروب بغير الروح القبلية التى مازالت رابضة تحت الأشكال الظاهرية للتمدين العربى، فى العديد من البلدان العربية ترتدى القبائل أقنعة عصرية ولكنها فى اليمن تتصارع بوجوهها الصريحة، فى اليمن مازالت توجد ٢٠٠ قبيلة منها ١٦٨ قبيلة فى الجزء الشمالى، معظمها محصن داخل مناطق جبلية وعرة لا تستطيع السلطة المركزية أن تفرض سطوتها عليها، وهى قبائل عانت كثيرا من ظلم الأنظمة السابقة وتسلطها، ولم تعد تثق فى أى سلطة أخرى غير سلطتها الذاتية، وعندما ثار ضباط الجيش اليمنى، وأقاموا عددا من الحكومات العسكرية المتعاقبة لم تستطع السلطة الجديدة أن تخضعهم بل إن العكس هو الصحيح، فقد خضع الكثير من ضباط الجيش لسلطة القبائل وتوجيهاتها، وكان للعديد منها «ميليشيات» خاصة تسيطر على أقاليم بأسرها، بل وعمدت إلى ابتزاز السلطة المركزية فى العديد من المناسبات، وعلى حد تعبير المستشرق الروسى «الكسندر سيمونوف» الذى عاش طويلا بين قبائل اليمن وعرف خباياها وهو يقول «لعل اليمن الشمالى هو الدولة الوحيدة التى تدفع حكومتها

الضرائب لفئة معينة من السكان وليس العكس، فالدولة تدفع لبعض القبائل التى تسكن الجبال، وإذا لم تستجب لمطالبها قامت بقطع الطريق واختطاف المواطنين الأجانب وسببت لها العديد من المشاكل».

هذه هى الروح القبلية التى يحاول أن يدخل بها بعض العرب القرن الحادى والعشرين، وهى نفس الروح التى يحاول بها اليمن الشمالى أن يقيم وحدة مع شطره الجنوبى الذى يشاركه فى الامتداد الطبيعى والتكوين الإثنى، وإن اختلف عنه نسبيا فى تركيبه الاجتماعى والعمرانى، فقد كانت فى اليمن الجنوبى ٣٢ قبيلة ذابت جميعها فى التكوين الجديد للدولة، ولم يعد هناك كيان قبلى بارز منها فى ظل الدولة المركزية، لقد كانت «عدن» هى الميناء الثالث فى العالم بعد ليفربول ونيويورك، لذا فقد عاشت المدينة حياة مفتوحة دائما مع العالم الخارجى، وحتى عندما دخلت اليمن الجنوبى فى فلك الاتحاد السوفييتى ظلت حريصة على بنية الدولة العصرية ووفرت ما تستطيعه وفق إمكاناتها الضئيلة من أجل توفير قدر من التعليم ومن الضمان الاجتماعى لمواطنيها.

ومنذ البداية كانت مشاريع الوحدة بين الشطرين محفوفة بالصعوبات، فى كل مرة كانت تبدأ مباحثات الوحدة كانت تدفع البلدين إلى الاشتباكات المسلحة، تحاربا فى عام ١٩٧٢،

ثم عادا للتحارب بعد ذلك بسنوات سبع فى ١٩٧٩، ثم وقفا على حافة الحرب للمرة الثالثة فى عام ١٩٨٨، لولا أن القيادتين اللدودتين وقتها سارعتا بامتصاص مشاعر الحنق داخل صفوفهما، وقررتا أن تتحولا على الفور إلى وحدة اندماجية، فى محاولة لحل المشكلات المعلقة، لقد ظن الطرفان أن الوحدة هى ترياق للصراع، وقد ثبت بعد ذلك أنها دون حساب دقيق أحد مسبباته. كانت هذه الوحدة التى لم تعش أكثر من ثلاث سنوات ونصف - أى أن عمرها كان أقل من عمر الوحدة المصرية السورية - نوعا من الفرص السياسية المؤقتة، فاليمن الجنوبى كان يحس بفراغ سياسى بعد انهيار الاتحاد السوفييتى حليفه الأكبر، واليمن الشمالى الذى عانى ضائقة اقتصادية مزمنة كان يتطلع متلمظا لتوسيع رقعته الجغرافية واقتناص بشائر النفط التى بدأت تلوح فى الجنوب.

جذور الحرب الأهلية

ولا أريد هنا أن أخوض فى تفاصيل هذه الحرب المؤسفة، وهذا الدمار الذى يتألم له كل عربى، ولكنها - هذه الحرب - تقودنا رغما عنا إلى تتبع جذور الحرب العربية والأهلية، تلك المأساة المتكررة عبر تاريخ العرب الحديث، ويمكن أن نقسم الدول العربية إلى ثلاثة أقسام: دول خاضت هذه الحروب ودفعت ثمنها غاليا، ودول مازالت تخوضها حتى الآن وتغرق

فى مستنقعها الدامى يوما بعد يوم، ودول تقف على حافتها وتتأهب لدخولها، الأمر الذى يجعلنا نصاب بالرعب للخطر المستقبلى الذى يقف فى انتظارنا شاهدا على تمزقنا. وربما كان القاسم المشترك الأعظم بين هذه المجموعات الثلاثة هو أن الدولة الوطنية، فى هذه المرحلة تمر بحالة من الضعف والتردى تجعلها عاجزة عن حل مشاكل التخلف السياسى والإحباط الاقتصادى الذى تواجهه، وبالتالى ترى العديد من الجماعات سواء كانت دينية أو عرقية أو قبلية أنه ليس من حق هذه الدولة احتكار السلطة وحدها، لذا فإن آليات الحرب الأهلية تبدأ عادة بالتمرد ضد سلطة الدولة ومحاولة اقتلاع جذورها من الشارع، ثم تقفز على الحكم ببرنامج ضبابى وهى تستعين فى ذلك بقانونها الخاص، قانون القبيلة أو الحزب أو الجماعة الدينية، ذات التوجه الواحد.

وهكذا تفقد (الدولة) خاصية احتكار العنف وإرساء القانون، إنها تواجه هنا بعنف مضاد وقانون آخر، وتضع هذه الجماعات أيديولوجية ضيقة قائمة على مصلحتها الشخصية بحيث تقضى تماما على البقاء الهش للوحدة الوطنية. وافتقاد الوحدة الوطنية عنصر مهم من عناصر النزاعات الأهلية، كان موجودا بشكل حاد فى لبنان إبان الحرب التى استمرت خمسة عشر عاما،ومازال موجودا ومتأصلا فى جنوب

السودان والصومال والعراق وحتى فى بعض الدول التى لم تصل فيها جماعات المتمردين إلى السلطة، وهو - أى افتقاد الوحدة الوطنية - يفقد الوطن مناعته.

لقد حولت الحروب العربية والنزعات الأهلية فى بعض الدول العربية، المواطن العربى إلى فأر مذعور، هدفه الوحيد هو البقاء على قيد الحياة، وهى حياة مريرة يقضيها بين الاختباء فى الملاجىء والهجرة من مكان لآخر والرعب من القصف العشوائى، والقتل على الهوية، واللهاث المستمر للبحث عن الطعام والدواء قبل أن ينفد كل شىء، وهو يتحول بذلك من مواطن إلى كائن بيولوجى تحركه فقط غريزة البقاء، إنها تشوه روحه وتحط من إنسانيته، ومن قدرته على الخلق والابتكار، وعلينا أن نتصور أطفال هذه النزاعات الطويلة التى شوهت نفسياتهم والمصير الذى ينتظرهم بعد أن ذاقوا الرعب فى أيام طفولتهم الأولى.

وقد تناقلت وكالات الأنباء أن أطفال عدن كانوا يشتاقون لليلة واحدة فقط خالية من القصف العنيف، حتى يتمكنوا من متابعة مباريات كأس العالم، كانوا يريدون أن يتشاركوا مع الملايين من أطفال العالم فى الجلوس أمام التليفزيون، والتمتع برياضة كرة القدم ولكن القصف العشوائى بالصواريخ والموت المفاجىء لم يمكنهم من ذلك.

ومن المثير للدهشة أن الحروب الأهلية التى تقع بين أبناء البلد الواحد تكون أشد مرارة وعنفاً من الحروب التى تقع بين هذا البلد وعدو خارجى، إن عملية تعميم العداء بين فصائل نفس الشعب تكون دائما مؤلمة وموجعة، إنها أشبه بعمليات بتر الأذرع والسيقان، إنها رغبة من الجماعة المتمردة فى إثارة أكبر قدر من الخوف الممتزج بالكراهية، إنه ظلم ذوى القربى، وربما كان هذا هو سر المبالغة فى إطلاق كميات كثيفة من النيران دون تمييز بين موقع مدنى أو عسكرى أو بين مستشفى أو مدرسة أو بناية سكنية، إن هدف النزاعات الأهلية هو دفع الجميع إلى طريق اللاتسامح الدموى، فكل جماعة - أو قبيلة - تغلق فكرها حيال الأخرى وتحاول إلغاءها، حدث هذا فى لبنان ويحدث فى اليمن وتمارسه الجماعات المتعصبة الأخرى بدعوى تكفير كل من يناوئها وتسعى لاستئصاله

فى حالة لبنان فإننا نرى حتى اليوم - رغم حالة الهدوء النسبى بعد الحرب الأهلية - أن هناك مناطق سكنية قد هجرها أهلها ولا يريدون العودة إليها من جديد، فذكرياتهم المريرة تمنعهم من العيش مرة أخرى فى مناطق شهدت عنف جيرانهم، وتبقى جروح الحرب الأهلية لسنوات لا تندمل، وهى جروح نفسية وثقافية تشرخ الوطن وتقعده عن مسايرة ركب

الحضارة.

من حرب المدن إلى حرب الشوارع

ومازالت «الأعراض اليمنية» مستمرة، من حروب المدن إلى حروب الشوارع، من تصفية الخصوم السياسيين إلى محاولة اغتيال الأفكار.. العنف والعنف المضاد

ورغم الاختلافات الكبيرة بين سلطة الدولة، وبين الجماعات الأصولية التى تناوئها فى بعض بلداننا العربية، إلا أنهما - ويا للمصادفة - يتشاركان فى الكثير من الصفات والمواقف، فهما معا يقفان نفس الموقف الغامض من المشاركة السياسية والديمقراطية ومبدأ تداول السلطة والحريات الممنوحة للأفراد الذين يخالفونهم فى الرأى، وكلاهما - الدولة والجماعات - تعطى لنفسها المرجعية الأخيرة، ولا كلمة فوق كلمتها، ولا رأى إلا رأيها.

فمازالت الدولة المركزية فى كثير من أقطار الوطن العربى تعتمد سلطة الرأى الواحد، ولا تتوقف - بواسطة صناديق الاقتراع أو بغيرها - عن تهميش دور الأحزاب الأخرى، ورغم هجومها على الأنظمة الشمولية فهى مازالت تمارس أساليبها ولا تسمح بقيام معارضة حقيقية وفعالة يمكن أن تقوم بدور الرقابة والتوجيه، ناهيك عن أن تكون قادرة على التنافس على الحكم، ولا تأخذ فى اعتبارها أى تعددية سياسية تخالفها

الرأى ولا تدع هذا يؤثر فى سلطة اتخاذها للقرار.

وهو نفس الموقف باختلافات بسيطة بالنسبة للجماعات الأصولية، فهى ترفض مبدأ التعايش على قدم المساواة مع الرأى الآخر أو الأقليات الدينية والطائفية الأخرى، وتتعرض فقط لصدام مع أبناء الملة الأخرى قسرا، هكذا كانت الحرب الأهلية اللبنانية لم تكن جذورها عقائدية فقط، فقد كانت بجانب ذلك ثورة ضد الحرمان من الامتيازات التى تتمتع بها طائفة دون الأخرى.

ولايزال موقف بعض الحكومات غامضا من الديمقراطية، فهى تنادى بها ولكنها لا تضعها موضع التنفيذ الفعلى، بل إنها فى أغلب الأحيان - وكما يبدو من تصريحات كبار المسئولين - تراها مرادفة للفوضى السياسية، وتعتقد أن الجماهير التى تعانى من الأمية ومن التخلف غير مهيأة لمارستها، ولذا تلجأ بعض الأنظمة العربية إلى صورة مقيدة للديمقراطية لا تخلق مؤسسات شعبية ذات سلطة حقيقية مؤثرة فى صنع القرار السياسى ووضع آليات للرقابة الشعبية.

أما الجماعات الأصولية فهى بادىء ذى بدء لا ترتاح لهذه الكلمة (الديمقراطية) ذات المدلول الغربى، ثم تتعدى ذلك إلى رفض بقية آليات هذه العملية من أول صناديق الاقتراع إلى

بطاقات الانتخاب إلى بقية المؤسسات التى تعتمد مبدأ فصل السلطات. كما أنها ترفض وجود أى أحزاب أخرى منافسة بدعوى أنها حزب «الحق» الذى يستمد شرعيته من المقدس.

وتتحدث الدولة المركزية عن الشرعية، الشرعية الدستورية أحيانا والثورية فى أحيان أخرى، وهى بهذا تعطى لنفسها الحق فى التحدث نيابة عن معظم التيارات السياسية داخل الدولة، بل إنها تجعل من نفسها نائبة عنهم دون أن تأبه باستشارتهم، وترفض كل انتقاد أو توجيه وتتعامل مع هؤلاء المنتقدين فى بعض الحالات معاملة المتمردين الخارجين على الشرعية.

وهى نفس النظرة بالنسبة للجماعات الأصولية التى تضفى على تصرفاتها طابعا مقدسا وتفرض نفسها على أنها المفسر الوحيد للدين الحنيف والمتسامح، وهى تستخدم المؤسسات الدينية - كالمساجد - مسرحاً لنشاطها السياسى والحزبى، ويعطيها هذا الحق فى أن تتهم كل من يحاول انتقادها بالكفر والإلحاد، كما أنها تلوى عنق النصوص كى تبيح لنفسها سرقة الأموال، واختراع قواعد جديدة للزواج والطلاق، كما دلت على ذلك بعض شهادات أفراد من هذه الجماعات.

الاثنان معا - الدولة والجماعات الأصولية - ينزلقان فى نفس المنزلق، لذا فإن الصراع بينهما يكون مريرا ومحتدما، وكلما

كسبت إحداهما جولة، سارعت الأخرى بفرض جولة أخرى من النزال، وفى بلاد مكتظة بالسكان مثقلة بالمشاكل، لا يدرى أحد كيفية الخروج من هذه الحلقة الرهيبة.

إنها حالة تعبر عن الانفصام بين السلطة والجماهير. ولو أن الإنسان العربى خلال هذه العقود الماضية استطاع إلى حد معقول أن يشارك فى صنع القرارات السياسية التى أثرت على مصير حياته لتغير كثير من معالم الصورة التى نعيشها الآن.

إن كل ما تمناه المفكرون فى هذه المرحلة هو أن نخطو خطوة أبعد من روح المجتمع القبلى الذى تعيش فيه كثير من المجتمعات العربية إلى المجتمع المدنى، ذلك المجتمع الذى تقوم فيه الجماعات التطوعية والنقابات والاتحادات والأحزاب التى لا تشارك فى الحكم وجمعيات النفع العام بدورها فى أداء خدمات للمجتمع وفرض نوع من المراجعة والرقابة على السلطة التنفيذية. ربما لم تكن مسألة تداول السلطة واردة حتى الآن فى أذهان الذين يملكون مقاليد الحكم، ولكن المؤسسات مثل مؤسسات المجتمع المدنى سوف تكون خطوة متقدمة لامتصاص الكثير من طاقة الغضب الموجودة فى نفوس الجماعات المعتدلة التى ترغب فى التغيير بشكل سلمى والمشاركة فى تشكيل المجتمع المرجو دون أن تجد السبيل

لذلك.

إن على هذه الجماعات الأصولية الغاضبة أن تقدم برنامجا إصلاحيا واضحا تستطيع من خلاله أن تكون جزءا فعالا من نشاطات المجتمع المدنى وأن تنبذ طريق العنف الذى قطعت فيه شوطا طويلا بلا طائل. وعلى الدولة أن تتيح لها الفرصة قليلا وأن تعطى الفرصة لمؤسسات المجتمع المدنى بعد أن حاصرتها طويلة وسلبتها استقلاليتها وشخصيتها بل وأضفت عليها الطابع العسكرى بدعوى تأمينها من الداخل.

إن إنجاز مؤسسات المجتمع المدنى ورد الاعتبار والفاعلية إليها يمكن أن يمثل القاعدة الأولى لغاية الديمقراطية التى نطمح إليها وهى الكفيلة أن تتيح الفرصة للجماعات المتناحرة فى المجتمع لأن تخرج من خلف أسوار العزلة الدينية أو الطائفية أو القبلية.

الإنفاق العسكرى والتنمية

وتكشف لنا «الأعراض اليمنية» عن بعد آخر من أبعاد التنمية العربية الآخذة فى التباطؤ ففى الوقت الذى تنهض فيه دول فقيرة وتتحول إلى نمور شرسة تبحث عن طريقها المستقل فى التنمية تكشف الحرب اليمنية عن صورة مفجعة لمصير التنمية العربية. فهذه البلاد التى ظلت طويلا تعانى من نقص الحاجيات الأساسية وتدنى مستويات التعليم والصحة

والخدمة الاجتماعية بها، جاءت هذه الحرب الأخيرة لتكشف عن مخزونها الهائل من الأسلحة. كأنما كانت اليمنان تنتظران هذه اللحظة كي تطلقا ما فيهما من طاقات العنف وتفتحا أبواب هذه الترسانة المخيفة بكل ما فيها من صواريخ مدمرة ودبابات سريعة ومدافع بعيدة المدى.. وهكذا فى الوقت الذى كانت تتعلل فيه السلطة بندرة الموارد المالية اللازمة لاستيراد الدواء والغذاء والضروريات الأخرى كانت تدفع بسخاء لاستيراد أحدث المعدات العسكرية فى بلد مثل اليمن لا يوجد لها عدو خارجى يهدد أمنها، استيراد مثل هذه الكميات من العتاد لا مبرر له إلا أن هذا النظام يحاول أن يحجب نفسه من مواطنيه.

وسوء استخدام الثروة والمداخيل القومية هو السمة الغالبة فى كثير من دول العالم العربى. فقد بلغ الإنفاق العسكرى فيها حوالى ألف بليون دولار عام ١٩٨٩ ثم انخفض قليلا فى عام ١٩٩٠ أى بعد انتهاء الحرب الباردة إلى ٩٠٠ بليون دولار ثم عاود الارتفاع إلى أرقام فلكية وبعد صفقات هائلة بعد العدوان العراقى على الكويت إلى ١٥٠٠ بليون دولار.

وفى اليمن مثلا - وهى مثلنا الكلاسيكى الأثير - يوجد طبيب واحد فى مقابل كل ٥٠٠ جندى، ومدرس واحد فى مقابل كل ٤٥٠ جنديا. وعلينا أن ندرك بعد ذلك لماذا تباطأت التنمية

ولماذا أصبحنا نعتمد يوما بعد الآخر على العالم الخارجى فى استيراد مستلزمات الصناعة أولا ثم فى استيراد الغذاء الضرورى اللازم لنا أخيرا..

إن الوطن العربى لا يشكو من قلة الموارد ولكنه بالتأكيد يشكو من سوء إدارتها، ففى الوقت الذى توجد فيه دول عربية على وشك الانهيار الاقتصادى نجد أن استثمارات الأموال العربية فى الخارج ما يقارب من ٧٥٠ إلى ٨٠٠ مليار دولار وهو رقم يدل على أن رأس المال العربى يفضل الهروب إلى الخارج بعيدا عن عوامل الإفساد السياسى والتحكم البيروقراطى وهى ضربة أخرى موجعة لمسيرة التنمية العربية.

إننا مقبلون على مأساة اقتصادية حرجة.. فالعمل العربى الاقتصادى آخذ فى التعثر، وبدلا من حلم «السوق العربية المشتركة» توضع المخططات الآن لوضع ما يسمى «السوق الشرق أوسطية» التى يأمل الغرب أن تنضم إليها الدول العربية وتركيا وإيران وإسرائيل، وهكذا نفقد أساسا كبيرا من الأساسيات التى كان يجب أن يقوم عليها النظام العربى الجديد.

عوائق الوحدة

ماذا نفعل.. هل يمكن أن نتغلب على هذه «الأعراض اليمنية» المزمنة.. هل يمكن أن نصل إلى الحد الأدنى لنظام

عربى نتمسك به جميعا، أن نخرج من حالة إطلاق النار العربية على بعضنا، إلى مرحلة التفاهم العربى. إننا لم نعد نطمع فى استعادة حلم الوحدة، ولكننا نريد أن ننقذ أنفسنا من مزيد من التشويهات وأن نوقف هذا المسلسل الفاجع الذى يشل حركة الوطن ويوقف تقدمه، فهل يمكن أن تكون حرب اليمن هى آخر حروب القبائل العربية؟

إن لدينا ذاكرة عربية مثقلة بكل مرارات الماضى وثارات التاريخ، محتشدة بأسباب العصبيات والطائفيات والنزعات العرقية والدينية، وكلما وقفنا على أبواب المستقبل ردتنا هذه الذاكرة إلى الخلف. والفكر العربى مطالب بأن ينقذنا من هذه الذاكرة، وعليه أيضا أن يعيد التفكير فى كل البديهيات التى كنا نستند إليها. وإذا كنا نستخرج من هذه الذاكرة حلم الوحدة والقومية العربية بشكل عاطفى ووجدانى فإن هذا الحلم كان مثاليا إلى حد كبير. إن علينا الآن أن نفكر فى كل العوائق التى تقف ضد الوحدة. ليس علينا أن ندرس ما يجمعنا فقد اكتفينا من هذا طويلا، ولكن علينا أن نتأمل وبموضوعية كل ما يفرقنا ويقف عائقا دون تكاملنا من أجل البحث عن وفاق مقبول يصون مواردنا البشرية والاقتصادية، يجب أن نسأل أنفسنا لماذا فشلت كل أنواع الوحدات التى قامت. الثنائية والثلاثية والرباعية؟ لماذا تقف المجالس العربية

عـاجـزة عن دفع التـعـاون العـربى فى أى اتجـاه؟ لماذا تـرتفـع شعارات الحب والإخاء ثم فى لحظة نلجأ إلى حمل السلاح؟

كيف يمكن أن نرصـد هذه «الأعـراض اليمـينة» قبل أن تنمـو وتتفاقم بين كل فكر وآخر.. وبيننا جميعا؟

إنهـا دعوة لكتـابة فكر قومـى جديد وعقلانى بعنوان «عـوائق تحكيم العقل»، لعلنا نصل إلى دراسة موضوعية وواقعية تتيح لنا الاعتراف بأهمية التكامل رغم الاختلاف وأهمية التنافس دون أن نصل إلى مرحلة العداء، وبهذا لن نكون قد تخلينا عن فكرة الوحدة ولكن تخلينا فقط عن هذا الحلم المثالى الذى لا يقدم ولا يؤخر، وتجـاوزناه إلى تفكير واقـعى يحـقن دمـاءنا ويصـون ثروتنا البشرية، ويقف بنا فى مكان مـعقول بين دول العالم!! إنها مهمة المفكرين، وأنا أدعوهم للتصدى لها.

١٣

الخيار الذى يواجهه المسلمون فى البوسنة والهرسك إما الشحن كقطيع، أو مواجهة الذبح كالخراف

إن شاهدت التليفزيون أو استمعت إلى الإذاعة أو كان لديك الوقت لقراءة الصحف اليومية أو المجلات الأسبوعية، فإن موضوعا واحدا لابد أن تصادفه هذا الموضوع هو ما يجرى فى البوسنة والهرسك، ومن متابعتى للموضوع وجدت أن هناك العديد من الخلط فى الحقائق والكثير من المعلومات، أو بسبب تدخل العواطف وتأججها، أو أسباب أخرى ثانوية عديدة.

لا شك أن الإنسان العادى، والعربى المسلم على وجه الخصوص، تهزه هذه الصور القادمة من البوسنة والهرسك عندما يرى المسلمين وهم شبه هياكل عظمية من وراء قضبان، أو سيدات مسلمات يحملن كالخراف فى سيارات النقل عاجزات باكيات، وعندما يرى الأطفال وقد قطعت أطرافهم راقدين على خرق بالية.

وتزودنا وسائل الإعلام بهذه الصور مع تعليقات مختلفة وتمر أمام أعيننا فتثير الغضب.

إلا أن المطروح هو لماذا يحدث ما يحدث من اقتتال يصل إلى البربرية، وتداخلات إقليمية ودولية تبدو عاجزة وغير قادرة على الفعل، وما هى جذور كل ذلك الصراع؟

شبه جزيرة البلقان

ما يحدث فى يوغسلافيا السابقة من حرب واقتتال، وعلى

(*) نشر هذا المقال فى مجله العربى - عدد ٤١٥ - يونيو ١٩٩٣ .

الأخص ما يحدث فى البوسنة والهرسك هو جزء من تداعيات سقوط الإمبراطورية السوفييتية، التى هيمنت لفترة من الزمن على مسار الأحداث السياسية والاقتصادية فى مناطق عديدة من العالم منها شرق أوروبا، والتى تشكل يوغسلافيا السابقة إحدى دولها. ولست ممن يعتقدون بأن التاريخ يعيد نفسه، إلا أن المرء يستطيع أن يقول إن هذا الاضطراب العرقى الاقتصادى السياسى الدينى وما يصاحبه من عنف نراه اليوم هو الاضطراب نفسه ـ تقريبا ـ الذى شهدته هذه المنطقة نفسها عندما سقطت الإمبراطوريات الأربع التى كانت مهيمنة على ما نسميه اليوم أوروبا الشرقية مباشرة بعد الحرب العالمية الأولى، وكانت وقتها الإمبراطوريات العثمانية والروسية والألمانية والنمساوية الهنجارية.

إن سقوط الإمبراطوريات يسبب خللا فى الكيانات التى تفرض على الشعوب من جهة، وكذلك يثير شهية من يعتقد أنه الأقوى والأحق بالهيمنة فى غياب تلك الإمبراطوريات أو القوى الحامية، من هنا يندلع الصراع ويتأجج ويدفع الأبرياء ثمنا فادحاً له.

بل وفى بعض الأوقات يدفع العالم ـ معظمه ـ ثمنا باهظا لهذه الخلخلة السياسية وما تسميه الأدبيات السياسية الدولية

بـ «الفـراغ الإقليـمى». ومن المفـارقـات التى تسـتـعـصـى على التجاهل أن الحـروب الدينية والعرقية التى انتشرت فى مناطق عديدة فى العالم بعد الحربين العـالميتين الأولى والثـانية كانت تقـاس على مـا حـدث فى شـبـه جـزيرة البلقـان. فـاللبننة والقبرصـة إشـارة إلى ما حدث فى لبنان وقبرص وقبلهما مـا حدث فى أيرلندا الشمـالية قيست على مفـهوم صك قبل ذلك هو «البلقنة» أى الانشطار العرقى والإقليمى والدينى والمذهبى الذى صاحب مرحلة الفراغ الإمبراطورى فيما بين الحـربين العالميتين. ولعلنا نعيد التذكير بأن التاريخ يحتفظ لهذه المنطقة ولمدينة سـرايـيفـوا بالذات المحاصـرة الآن، والتى تدور حولـهـا معارك طاحنة، بأن شـرارة الحرب العالمية الأولى انطلقت منها عندما اغتيل الأمير النمساوى فرنسوا فرديـنان فى تلك المدينة. وليس من المستبعد أن تنطلق حـرب أكبر وأوسع من شـرارة ما يحدث فى البوسنة اليوم.

منطقة البلقان عـرفت بتركيبـهـا البشرى والعـرقى والقومى والدينى والثقافى البـالغ التـعـقيد، كمـا عـرفت بتضـاريسـهـا الجـبليـة الوعـرة التى تكون مـلاذا لـلأقليـات المضطهـدة أو الخـارجين على السلطة، على الرغم من انتمـاء قـاطنيـهـا فى الغـالب إلى الجنس السـلافى. والبلقـان كلمـة تركـيـة تعنى الجبل. ويصـفـهـا الجـغـرافيـون بأنها أقصى شبـه جـزيرة فى

جنوب أوروبا ناحية الشرق، إذا حسبنا شبه جزيرة إيطاليا وأيبريا. ودول البلقان هى اليونان وتركيا (الجزء الأوروبى)وألبانيا وبلغاريا ومعظم يوغسلافيا

ولقد دفعت أيضا هذه المنطقة ثمنا سياسيا وإنسانيا نتيجة محاذاتها لخطوط المواجهة التاريخية، هذه الخطوط المتحركة إلى الأمام وإلى الخلف لعدة قرون بين كيانين كبيرين متنافسين: الإمبراطورية العثمانية المسلمة جنوبا، والإمبراطورية النمساوية المجرية المسيحية شمالا.

وإذا كانت بذور الصراع المتأجج الآن فى جزء من يوغسلافيا - البوسنة والهرسك - عرقية ودينية وقومية، فإن بقية دول البلقان، حبلى ببذور صراع قومى وعرقى ودينى أيضا.

يوغسلافيا السابقة، وهى تعنى السلاف الجنوبيين، هى أكثر المناطق فى البلقان اختلافا قوميا وثقافيا، وكانت تضم ست جمهوريات وإقليمين، وهى جمهوريات سلوفينيا، كرواتيا، الجبل الأسود، مقدونيا، صربيا، البوسنة والهرسك وإقليما فويفودينا وكوسوفو. وتوجد بها ست قوميات رئيسية، هى الصرب، الكروات، السلاف، الألبان، المقدونيون والمسلمون، وتتحدث ثلاث لغات وتتوزع على عدة مذاهب وأديان. يوغسلافيا كانت فى الأدبيات الاشتراكية هى نموذج التعايش

القومى والثقافى، ولكن هذا النموذج تبين أنه موضوع فى قفص أجبرت القوميات المتعددة على دخوله، وما انفك قيد القفص حتى تناثر سكانه وأخذت هذه القوميات تنهش بعضها بعضا.

يمثل الصرب أكبر مجموعة قومية فى الاتحاد اليوغسلافى السابق، وهم أقلية بالنسبة لمجموعة الأقليات الأخرى، هم أغلبية فى صربيا والجبل الأسود، وتتفاوت نسبتهم فى بقية الجمهوريات، ويمثل الكروات ثانى أكبر مجموعة قومية فى الاتحاد اليوغسلافى ويتمركزون أساسا فى كرواتيا والبوسنة والهرسك.

بينما المسلمون يمثلون القومية الثالثة ويتمركزون فى البوسنة والهرسك، وبعضهم فى الجبل الأسود. توجد أقليات صربية فى معظم اتحاد يوغسلافيا القديم، كما توجد أقليات كرواتية ومسلمة فى مناطق القوميات الأخرى.

يعتنق الصرب مذهب الروم الأرثوذكسى، فيما تعتنق الأغلبية الساحقة من الكروات المذهب الكاثوليكى، ويستخدمان لغة واحدة هى الصرب/ كرواتية بأبجديتين مختلفتين، فالصرب يستخدمون الأبجدية السريلية، بينما الكروات يستخدمون الأبجدية اللاتينية، فيما السلاف كاثوليك ولغتهم ألمانية.

من هذه الخرائط الثقافية والقومية المتشابكة السابق ذكرها والتى تزخر بالصراع فيما بينها نتبين أن مصادر الصراع هذا هو التناقض العرقى والدينى إضافة إلى رواسب الماضى وأطماع الحاضر.

المسلمون فى الاتحاد اليوغسلافى

المسلمون فى يوغسلافيا القديمة ينحدرون من أصول عرقية مختلفة، غالبيتهم من أصل سلافى وبعضهم من أصل تركى وأقلية منهم من أصل غجرى رومى، وتاريخ وصول الإسلام إلى تلك المناطق تاريخ قديم يرجع فى أصوله إلى محاولة المسلمين الانتشار بدينهم فى القارة الأوروبية.

ولقد كانت محاولات هذا الانتشار عديدة، ولكن وجود القسطنطينية (اسطنبول اليوم) تلك القلعة المنيعة بحصونها وقتذاك، ومساعدة الغرب المسيحى لها خوفا من الامتداد الإسلامى لوسط أوروبا جعلها تستعصى على الفتح لمدة طويلة. إلا أن المحاولات العديدة أخذت بعدا جهاديا فى القرن الرابع عشر الميلادى، فأصبح فتح القسطنطينية هو جهاد لإنقاذ الدولة الإسلامية فى الأندلس من السقوط، بعد أن أخذت الأخيرة تترنح تحت ضربات الجيوش المسيحية المتحالفة والقادمة من شمال أيبرنا. وتماما كما فكر المسلمون بعد فتح الأندلس فى الاندفاع منها واختراق أوروبا لفتح

القسطنطينية من الغرب،قرر العثمانيون الاندفاع من حول القسطنطينية إلى أوروبا وتجاوزها، إلا أن ذلك التجاوز كان محدودا.

وبعد أن تمكن السلطان محمد الفاتح من فتح القسطنطينية فى مطلع النصف الثانى من القرن الخامس عشر أزاح من أمامه أكبر مدينة أوروبية مسيحية كانت تقف حجر عثرة أمام دخول أوروبا.

وفى السنوات الخمس والعشرين اللاحقة لسقوط القسطنطينية، استطاع الأتراك المسلمون بسط سلطتهم على معظم شبه جزيرة البلقان.

وأصبحت البوسنة والهرسك ولاية عثمانية فى حدود عام ١٤٦٤، وكان يسكنها وقتذاك شعوب من الصرب والمجر والكروات.

و ـا كان العثمانيون يفرغون من فتح منطقة كانوا ينصبون عليها مسئولين إداريين ويحصون الأراضى ويرسمونها ويمنحونها للأهالى على أساس الخراج، وفق نظام كانوا يطلقون عليه التيمار.

فى هذا المنعطف تقع أخطاء كبيرة وأساسية حول إسلام البوسنيين. فبعض الكتابات الغربية وأخرى عربية تتبعها مع الأسف من غير استقصاء تقول - وهو قول يردده الصرب

أيضـا ـ إن المسلمين الأتراك قد أعطوا امتيازات لأصحاب الأراضى تلك، وحتى يستمروا فى الإفادة من هذه الامتيازات دخلوا الإسلام. ولكن الاستقصاء التاريخى والمنطقى يدحض هذا الادعاء والذى يقول به الصرب المتعصبون اليوم. فمن المعروف أن الأتراك لم يجبروا أحدا على ترك دينه، وكانت الجزية بالنسبة لهم حدا معقولا للوفاق والتراضى، كما كان التنظيم الاجتماعى للصرب وقوة شعورهم بالهوية القومية يمنع ذلك، كما أن المنطق يفترض أنه لو تم تحويل أصحاب الأراضى والمنتفعين بها إلى الإسلام لكان ذلك صحيحا فى المناطق الأخرى من شبه جزيرة البلقان، والتى كانت تحت حكم المسلمين الأتراك وأقرب إلى ديارهم، فلماذا كان طرفها الغربى هو الذى دخل أهله فى الإسلام؟

أساس الصراع العقائدى

الأقرب إلى التفسير المنطقى ما تقوله المصادر التاريخية المحايدة وهو أن البوسنيين كانوا فى الأصل أصحاب عقيدة مسيحية خاصة تعرف ب «البوجوميلية» وذلك نسبة لمؤسسها الراهب «بوجوميلى». والمصادر التاريخية حول هذا المذهب قليلة وبعضها غير محايد، إلا أن تميز هذا المذهب عن بقية المذاهب المسيحية مرده إلى إنكار الولادة الإلهية للمسيح، واعتبار معجزات السيد المسيح حدثت بالمعنى الروحى وليس

المادى، ورفض المراسم والاحتفالات الدينية، وعدم الاعتراف بالهيكلية الدينية وإباحة ممارسة الصلاة فى أى مكان، وليس بالضرورة فى الكنيسة، كما يمكن أن يترأس الصلاة أى واحد من المؤمنين.

انتشر هذا المذهب الذى انطلق من بلغاريا وامتد إلى صربيا، إلا أن ارتداد ملك صربيا ستيفن نيمانيا عن «البوجوميلية» واعتناقه لمذهب الروم الأرثوذكس أدى إلى اضطهاد أصحاب مذهب «البوجوميلية» وإعدام الكثيرين منهم ومطاردتهم، فهاجروا إلى مناطق مختلفة منها البوسنة والهرسك، وظل أتباع هذا المذهب يتعرضون لحملات عسكرية حتى دخل الأتراك فتعرف البوجوميليون على الإسلام واعتنقوا الدين الجديد عن طيب خاطر.

وقد وجد البوجوميليون أنفسهم أقرب إلى الإسلام فاعتنقوه، ولو أنهم فعلوا ذلك من أجل المحافظة على أملاكهم - كما يدعى الصرب والكروات اليوم وينقل بعض العرب المسلمين عنهم ذاك الادعاء - لما وقفوا سنوات طويلة ضد الروم الأرثوذكس - وهم الصرب - ولا ضد الكاثوليك - وهم الصرب ولا ضد الكاثوليك - وهم الكروات - ولما آثروا الهجرة بمعتقداتهم الدينية من بلغاريا إلى صربيا، ومن صربيا إلى البوسنة والهرسك، بل لما حاربوا فى بعض الفترات التاريخية

أنفسهم.

وكان اعتناقهم للإسلام أيضا هو انتعاقا لهم من الحروب الدينية التى شنت عليهم، إلا أن الصرب قد أسقطوا الصفة القومية المحلية عن المسلمين الصرب وربطوهم بالقومية التركية، كما اتجه الداخلون فى الإسلام إلى التخلى عن بعض عاداتهم وتقاليدهم القومية السابقة وإخلال عادات وتقاليد نابعة من الإسلام، حتى صارت تشكل نمط حياة واحدا يجمع هؤلاء السكان بصرف النظر عن انتمائهم العرقى السابق.

حرب أرض وعرض

ينزع بعض الكتاب والمحللين العرب والمسلمين إلى تصوير أمر الصراع الدائر اليوم على أرض البوسنة والهرسك على أنه صراع دينى فقط، لذلك فإن بؤرة الاهتمام لكثير من وسائل الإعلام هو الحديث عن هتك الأعراض والاغتصاب، ولكن ذلك - على بشاعته - يجب ألا يخفى حرب الأرض أيضا، فإن الأمل الحاسم وهو محاولة الصرب إنشاء صربيا الكبرى بطمس الهوية الكرواتية من جهة، وطمس الهوية الإسلامية من جهة أخرى. كما أن المسلمين فى البوسنة والهرسك متمسكون بحسم بالأرض التى يعيشون عليها، ويرفضون مغادرتها، مما جعل هوية الانتماء إلى الأرض تمتزج بهوية الانتماء إلى الإسلام وتكون هذه الرابطة. وذلك ما يفسر

تمسك المسلمين فى إقليم كوسوفو - الذى يمثل المسلمون المنحدرون من أصل ألبانى معظم سكانه - بأرضهم. والدين الإسلامى يوحد المسلمين فى كوسوفو مع إخوانهم فى البوسنة والهرسك فى وجه عمليات الإبادة رغم التمايز العرقى فيما بينهم.

فالقومية المسلمة فى البوسنة والهرسك هى خلاصة اندماج عرقى وقومى تم خلال مئات السنين وذاب فيها صرب وكروات وأتراك، وقاسوا ما قاسوه فى سبيل الحفاظ عى هويتهم من الإمبراطوريات المختلفة. وبعد الحرب الأولى وفى مؤتمر السلام الذى انعقد فى باريس ١٩١٨ - ١٩١٩، استقر الرأى الدولى على تشكيل دولة اتحادية تضم عددا من الشعوب هى الدولة اليوغسلافية، فانتقل مسلمو البوسنة والمسلمون فى أقاليم يوغسلافيا الجديدة من السيطرة النمساوية إلى السيطرة الصربية أساسا والكرواتية والسلوفونية بالدرجة الثانية، ولم تكن فترة ما بين الحربين هى فترة سلام للمسلمين هناك، بل عانوا من محاولات إخراجهم من الإسلام بالقوة، وحرمانهم من الحدود الدنيا للتمتع بثقافتهم، وكان المسلمون - خارج البلقان - وقتئذ مغلوبين على أمرهم. حتى تركيا وقعت معاهدة مع بلجراد قبيل الحرب الثانية لتجهيز نصف مليون مسلم من يوغسلافيا

إلى تركيا بحجة أنهم أتراك!

إلا أن الخلافات الأخرى الصربية الكرواتية فى فترة ما بين الحربين، ثم تفجر الحرب العالمية الثانية، أدخلت القوميات المتنازعة فى حروب أهلية حتى انتصار (الأنصار) بقيادة جوزيف بروز تيتو وإنشاء الاتحاد اليوغسلافى بعد الحرب الثانية بأيديولوجية اشتراكية وأفكار جديدة.

الهندسة الاجتماعية

الأفكار الجديدة للاشتراكية والشيوعية لم تستطع أن تقدم حلولا ناجزة للصراعات القومية فى يوغسلافيا، فقط سكنتها، فالشعارات الثلاثة التى رفعها جوزيف بروز تيتو بعد الحرب العالمية الثانية، وقد حكم لمدة تقارب أربعة عقود، وهى التسيير الذاتى - والذى ظهر فى شكله المعروف بمجالس العمال - والأخوة والوحدة فى شعارها التوافق العرقى من خلال حكم الحزب الواحد، والحياد فى السياسة الخارجية. هذه السياسة المعتمدة على الركائز الثلاث ظهر - فى بداية الأمر - أنها تحقق مصالح القوميات المختلفة، إلا أن اعتماد تيتو على التعددية الإقليمية بدلا من التعددية السياسية، جعل بذور الصراع القومية تخبو تحت طائلة القسر السياسى وشبهة الرفاه الاقتصادى بدلا من أن تنطفىء وتقطع جذورها باعتماد التعددية السياسية، فاعتمدت نظرية الهندسة الاجتماعية وهى

التكيف القسرى للتجمعات العرقية والدينية والقومية لعلاج المسألة القومية، والاعتماد على البعدالطبقى مع إهمال أو القفز على الواقع العرقى والثقافى. وكانت عوامل الاستقطاب العرقى تنمو فى الاتحاد اليوغسلافى دون أن يعترف به أحد من القيادات علنا، ولكنه يمارس فى الواقع، وأصبحت عوامل التآكل السياسى فى الاتحاد اليوغسلافى تنمو وتتجذر. وما أن توفى جوزيف تيتو فى ١٩٨٠ حتى أصبحت القيادة الجماعية المسنة للحزب الشيوعى اليوغسلافى غير قادرة، ولا راغبة فى تطوير سياسى صحى. وفاجأتها أحداث الليبرالية النامية فى الاتحاد السوفييتى من أفكار عن العلنية والمشاركة والانفتاح وتداعى النظام الاشتراكى القديم من حوليها فى أوروبا الشرقية، وقد ساد العقدين الأخيرين من حكم تيتو اضطراب اقتصادى أخذ يتزايد بمرور الزمن، فبعد أن كانت يوغسلافيا أرخص بلد فى أوروبا فى الستينيات، أصبحت منذ السبعينيات أكثرها غلاء، ونافست عواصم البلدان الكبرى من حيث الأسعار مع ارتفاع مطرد فى نسبة البطالة وانخفاض فى مستوى المعيشة. وتضاعف التضخم المالى بصورة رهيبة حتى أصبحت تنافس أكثر بلدان أمريكا اللاتينية سوء إدارة وفسادا، ووجدت يوغسلافيا نفسها فريسة لفوضى اقتصادية عارمة مهدت لإشعال نيران الفتنة

وظهور نعرات القومية، ودفع ثمن هذه الفوضى الاقتصادية - أول من دفع - القوميات الأقل حظا فى السلطة الاتحادية وبدأت مرحلة الاستقطاب القومى والعرقى.

الاستقطاب العرقى

الاستقطاب العرقى فى الاتحاد اليوغسلافى يمكن تقصيه منذ بداية الثمانينيات عندما انفجر شغب فى إقليم كوسوفو فى أبريل ١٩٨١، وقام مواطنو الإقليم من القومية الألبانية بمظاهرات ضد فشل السياسة الاقتصادية لبلجراد فى تحسين أحوالهم المعيشية، واتجه الشغب إلى أخذ اتجاه ضد الصرب، وكانت ردة فعل الصرب المحليين الغضب والادعاء أن الألبان قد اعتدوا على نسائهم. كما أخذ الصرب فى المناطق الأخرى خاصة صربيا فى تبنى فكرة أنهم قد اضطهدوا تحت الحكم الشيوعى، وظهر ذلك فى وثيقة أصدرتها الأكاديمية الصربية للعلوم والثقافة، ورغم أن هذه الوثيقة لم تنشر فى يوغسلافيا - وهى تذكرنى ببروتوكولات حكماء صهيون - إلا أن الرأى العام العالمى قد وقف على أهدافها ومضامينها، واتهمت هذه الوثيقة النظام اليوغسلافى الشيوعى بأنه قد حرم الصرب من أية امتيازات وقطع أوصال مناطقهم وأعطى القوميات الأخرى حقوقا تفوق ما أعطاهم، وأصبحت هذه الوثيقة دستور عمل للقوميين الصرب

المتشددين وقاعدة العمل لتكوين الصرب الكبرى، عن طريق التطهير العرقى لكل ما لا ينتمى إلى الصرب فى جمهوريات وأقاليم يوغسلافيا السابقة، خاصة فى تلك المناطق التى تعيش فيها مجموعة كبيرة من الصرب وعلى رأس هذه المناطق جمهورية البوسنة والهرسك. فصرب البوسنة والهرسك - مدعومين بالصرب فى جمهورية صربيا وكذلك فى جمهورية الجبل الأسود - يبغون تطهير البوسنة والهرسك من المسلمين، ويمكن أن يحدث التطهير العرقى للمسلمين فى جمهوريات يوغسلافية أخرى مثل جمهورية مقدونيا التى توجد فيها أغلبية مسلمة ألبانية وأقلية صربية. خاصة أن كوسوفو تعتبر «قدس الصرب» لأنها فى وقت ما كانت جزءا أساسيا من دولة الصرب فى القرون الوسطى.

كما أن احتمالات الصراع ليست فقط محصورة بين المسلمين والصرب، ولكنها أيضا موجودة بل ومتفجرة بين الصرب والكروات وبين الأخيرين والمسلمين.

تفكك الاتحاد

شهدت الثمانينيات مخاض التفكك اليوغسلافى على خلفية سياسية تتوسع فى نبذ الأيديولوجية الاشتراكية وتحت ضربات الوضع الاقتصادى المتردى، ففى نهاية ١٩٩١ عقد قادة الجمهوريات اليوغسلافية مجموعة من الاجتماعات

للوصول إلى مخرج دون جدوى. فهددت سلوفينيا وكرواتيا بالخروج من الاتحاد فى نهاية يونيو إذا لم يتوصل الاتحاد إلى حل مشكلاته، وبالفعل أعلنت كرواتيا وسلوفينيا خروجهما من الاتحاد، وفى ٢٥ يونيو ١٩٩١ أعلنتا استقلالهما، فما كان من الجيش الاتحادى الصربى إلا أن هاجم أولا سلوفينيا ثم انسحب منها معترفا باستقلالها بعد مفاوضات، بسبب وجود أقلية ضئيلة صربية، ليهاجم كرواتيا، وأصبحت مدن كرواتيا التاريخية تحت رحمة المدافع الصربية خاصة المدينة التاريخية دوبروفنك، وعطلت أغلب المصانع الكرواتية وزحف الصرب على المناطق الكرواتية فى أولى عمليات التطهير العرقى، وقد مارس الصرب هناك جميع أشكال العنف والدمار على مدى ستة شهور قبل أن يتفق الجانبان فى يناير ١٩٩٢ على إنهاء الحرب التى أسفرت عن مقتل عشرات الآلاف من الضحايا، وتزامن ذاك الاتفاق مع اتفاق الطرفين الكرواتى والصربى على اقتسام البوسنة والهرسك والتى يوجد فيها حجم معقول من الكروات والصرب بجانب المسلمين.

وبعد أن اختار المسلمون والكروات الاستقلال وإعلان دولة لهم فى البوسنة والهرسك امتدت الحرب إلى هناك، ومن أجل السبب نفسه: تحقيق حلم صربيا الكبرى، وقررت مليشيات

صرب البوسنة والهرسك أن تبسط سيطرتها على أكبر جزء من الجمهورية لإلحاقها بالدولة الصربية الأم، وعلى الرغم من أن الصرب لا يشكلون أكثر من ثلث السكان هناك، فإنهم الآن يسيطرون على حوالى ٧٠٪ من الأرض.

وشهدت هذه الحرب جرائم تقشعر لها الأبدان واستخدم مخزون السلاح الهائل للجيش الاتحادى لتغذية المليشيات الصربية والجماعات المرتزقة لارتكاب أكبر فظائع إنسانية أمام سمع العالم وبصره، وتحالف الكروات فى البوسنة والهرسك مع المسلمين، إلا أن ذلك لم يمنع اندلاع قتال بينهما أيضا.

الأبعاد الدولية

استحوذت الأوضاع فى جمهوريات يوغسلافيا القديمة وفى البوسنة والهرسك على وجه الخصوص على اهتمام عالمى، فهناك جنود روس يحاربون مع الصرب الأرثوذكس، وجنود ألمان أو نمساويون يحاربون مع الكروات، وهناك مجموعات صغيرة من المسلمين يحاربون مع البوسنيين، والغرب يمنع السلاح ويسد الطريق على وصوله إلى المحاربين المسلمين فى الوقت الذى تتدفق فيه الأسلحة والمعونات من الصرب والجبل الأسود على المليشيات الصربية.

ومستقبل الموقف ينطوى على تفاعلات بالغة الحدة والعنف،

ويمكن أيضا أن تقود إلى انعكاسات دولية من جراء استمرار مثل هذه الحرب.

الاستراتيجية الصربية المتبعة فى الحرب قائمة على الإبادة الجماعية أو التطهير العرقى للبوسنيين المسلمين. وقد قتل عشرات الآلاف فى هذا الصراع ومئات الآلاف هجروا موطنهم ليصبحوا لاجئين فى مناطق عديدة فى الغرب وبعض دول العالم الأخرى.

والآن.. فإن أمام الغرب أساسا والعالم بعد ذلك قضية بالغة التعقيد، فالقرارات الدولية التى أصدرتها الأمم المتحدة من خلال مجلس الأمن، ومنها الحصار الاقتصادى على جمهورية الصرب (ما بقى من يوغسلافيا) عديمة الأثر، ولقد كانت مثل هذه القرارات ـ المقاطعة الاقتصادية ـ قليلة التأثير فى أمثلة أخرى من العالم مثل كوبا وجنوب إفريقيا، كما أن تدفق مئات الآلاف من المهاجرين هربا بحياتهم من مناطق القتال الدموى فى البوسنة يشكل عبئا ضخما على المجتمعات الأوروبية والتى تشكو من أوضاع اقتصادية صعبة بسبب التحولات الهيكلية فى اقتصادها والمتغيرات الناتجة من جراء تفكك الإمبراطورية السوفييتية (اتحاد ألمانيا مثلا).

كما أن فداحة الأزمة اليوغسلافية وصعوبة حلها مرده إلى التعقيد الشديد لشبكة التحالف الدولية، فهناك دول كروسيا

تعتبر نفسها حليفا تاريخيا للصرب وراعيا للقوميات السلافية، وتخشى من تراجع دعمها للصرب أن تتآكل مكانتها القيادية لدى الشعوب السلافية الأخرى فى القارة الأوروبية، وهذا ما يشكل ضمانة نسبية للصرب كيما يستمروا فى العدوان بوحشية ودون خشية من ردود فعل حاسمة، بل إن أى تدخل دولى فى نظرهم مرحب به لأنه سيكون فرصة لتوسيع النزاع وتدويله.

ماذا عن المستقبل؟

تبدو احتمالات استمرار وتوسيع الصراع العرقى القومى الدينى فى يوغسلافيا السابقة احتمالات ممكنة، فالموقف الدولى تجاه هذا الصراع غير محسوم، والأمم المتحدة من خلال تدخلها سواء عن طريق فرض الحصار الاقتصادى، أو وجود قوات دولية تحمل شاراتها على أرض الصراع، أو من خلال اللجنة الدولية (أوين ـ فانس)، وتقديمها لحلول تقسم بها أرض البوسنة والهرسك بين الأطراف المتنازعة، يبدو أن هذه الحلول ـ مجتمعة ومنفردة ـ فى المدى المنظور على الأقل غير قابلة للتنفيذ، كما أن الخلافات بين الدول الكبرى ـ وعلى وجه الخصوص بين الولايات المتحدة من جهة وبريطانيا وفرنسا من جهة أخرى ـ حول أنجع الحلول لمعالجة المشكلة تعطل من اتخاذ قرارات حاسمة، بالإضافة إلى أن التناقضات

والصراعات الأخرى فى يوغسلافيا القديمة خارج البوسنة والهرسك تهدد بانفجار قومى ودينى يشابه ذاك الموجود فى البوسنة والهرسك. فجميع الرواسب التاريخية مؤهلة للظهور على السطح.

أحد المخارج المحتملة هو التدخل العسكرى النشط، إلا أن هذا الاحتمال غير وارد فى المدى المنظور، فالخلاف الغربى حوله قائم، كما أن أى حرب ستكون مكلفة الثمن وطويلة الأمد، فمن يمول هذه الحملة العسكرية الضخمة ومن يضمن نجاحها؟

وحتى يصل المجتمع الدولى إلى حلول فسوف يظل المسلمون فى البوسنة والهرسك تروسا فى المذبحة ترتفع صرخاتهم ولا من مجيب!!.

١٤

الميراث المر

الأيديولوجيا العربية..
إلى أين ؟

قليلة هي الكتب التي تشبعك وتضيف إلى معلوماتك. وفي خضم هذه السيولة في الأفكار والمشارب السياسية والاجتماعية التي يشهدها وطننا العربي المضطرب، يظهر على السطح بين وقت وآخر عمل ثقافي لا يستطيع المرء أن يتجاوزه، مثل هذا العمل ما نحن بصدده في هذا الحديث وهو كتاب صدر بالإنجليزية لكاتب عربي،والكتاب عنوان «الميراث المر.. الأيديولوجيا والسياسة في العالم العربي»، والكاتب هو العربي اللبناني «بول سالم»، وقد نشر الكتاب في الولايات المتحدة سنة ١٩٩٤.

يتصدى الكتاب لقضية مهمة، وهي دور الأيديولوجيا في الوطن العربي في القرن العشرين، أين نجحت وأين أخفقت. وتناو ل في هذا الإطار أربعة توجهات أيديولوجية تبناها بعض العرب، أو الحركات السياسية العربية، وهي أربعة من حيث الشمول والتأطير، ولكن في كل واحدة منها توجهات يتداخل فيها النور والظلال. وفقط لتحديد المنظور الشامل، فإن التوجهات الأربعة هي: القومية العربية، الأصولية الإسلامية، الماركسية، والقومية القطرية أو المناطقية.

ويدرس الكاتب هذه التوجهات من منظور أعتقد أنه محايد، يسبرأغوارها، وجذور نشأتها، وما حققته أو أخفقت في تحقيقه. ويقدم الكاتب كتابه ويذيله بفصلين أتصور أنهما

زبدة الكتاب، إن صح التعبير، فهو يبدأ بفصل سماه «عصر الأيديولوجيا العربية» ، وينتهى بفصل هو «مستقبل الأيديولوجيا فى العالم العربى» وفى الفصلين الأول والأخير محاوله للتنظير والإجابة عن أسئلة ما زالت عالقة فى العقل السياسى العربى وهى: ما هو جدول أعمال العرب السياسى، وشكل تنظيماتهم المستقبلية وهم يدخلون القرن الواحد والعشرين؟ وهل يتعظ الجيل الجديد من العرب وهم يواجهون تحديات ضخمة، اقتصادية وسياسية، داخلية وخارجية، فيتجهون إلى البناء والتعاون أم يعيدون سيرة قرن كامل من الخلاف والنزاع والفرقة وتضييع الفرص؟

ما هى الأيديولوجيا ؟

أحسب أن الكاتب قد حاول أن يفهم مسيرة العرب السياسية والاجتماعية فى القرن العشرين، من منظور ماطرح ويطرح عالميا حول فكرة موت الأيديولوجيا واندثارها فى البلدان والمجتمعات التى بنتها وروجت لمفهيمها. فبين (موت الأيدلولوجيا) و (نهاية التاريخ) يحاول الكاتب أن يؤصل فهما عربيا لهذه المصطلحات ولكنه ـ وهنا التناقض الذى لا يزال يؤرقنا ـ يكتب هذا التأصيل ويناقشه بلغة غير اللغة العربية وهى الإنجليرية!

يحدثنا الكاتب عن مفهوم الأيديولوجية والذى كان شيئا

معروفا ولكنه غير مفسر لدى المفكرين السياسيين منذ الفكر اليونانى القديم مرورا بمفكرين أوروبيين فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، وكان وقتها يشار إلى أهمية الاعتقاد والأفكار فى العمل السياسى. ولكن المصطلح حسم فى أواخر القرن الثامن عشر من المفكر الفرنسى (أنطوين دستوت دى تراسى) ولكن كارل ماركس هو الذى أخذه من فلسفة هيجل ودفع بمفهوم ومصطلح الأيديولوجية تعبيرا عن الوعى الكاذب أو المزيف للجماعة الاجتماعية والناشىء من موقعها فى علاقات الإنتاج.

فكل طبقة- فى رأيه - فى المجتمع، أكانت صاحبة رأس المال أو العاملين الفقراء الذين يبيعون قوة عملهم، كل طبقة فى المجتمع، لها عقائدها الفكرية،وهذه المصفوفة من العقائد والأفكار تستخدم لتأكيد موقعها فى المجتمع، وتقنينه. إلا أن مفكرين مثل ماكس فيبر وجرامش، وهنرى سوريل وآخرين طوروا هذا المفهوم الماركسى للأيديولوجيا، وأكدوا أن الأيديولوجية أو منظومة الأفكار لها ديناميكية مستقلة عن الواقع المادى، وليست فقط انعكاسا مزيفا غير واقعى لذلك الواقع - كما ادعى ماركس - بل إنها إلى حد كبير تنتج نفسها وفى النهاية - كما قال جرامشى – فإن الإنسان هو الفكرة، فالإنسان يتأثر بعمق بتوجهات (أيديولوجية) وثقافية

تؤثر فى العقل وتدفع الإنسان للقيام بنشاط فى هذه الوجهة أو تلك.

سوريل أصر على فكرة استقلالية ما يترتب على الأيديولوجية من إجراءات تشبه الخرافة من وجهة نظره (خرافة الإضراب العام مثلا لتأكيد التضامن الطبقى) وكارل مانهايم هو أول مفكر يطور نظرية خاصة بالإيديولوجيا، فى حين أن المفكرين السابقين ناقشوها من جملة أفكار أخرى.

كارل مانهايم طور - كما هو معروف - سوسيولجيا المعرفة (علم اجتماع المعرفة) فتجاوز بذلك التاريخيين الألمان والماركسيين، وهو الذى حدد أن الأيديولوجيا) نظام أو مصفوفةمن الأفكار المتداخلة والمبادىء والغايات لها علاقة وثيقة بالنشاط الاجتماعى والسياسى) مصفوفة أو نظام بمعنى أنها تعطى تصورا كاملا ومبسطا للموضوعات السياسية والاجتماعية عن طريق شرح الواقع من خلال اختزاله فى مجموعة من الشعارات والنظريات والمعتقدات يفهمها رجل الشارع ببساطة ووضوح. مثلا الماركسية تختصر الظواهر الاجتماعية والاقتصادية العقدة على أنها صراع عرقى أو ثقافى بين الجماعات المختلفة، كالقول مثلا (أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة). بينما الإسلاميات تقدم تفسيرا مبنيا على المبادىء الدينية (الإسلام هو الحل). بهذا

المعنى فإن الإيديولوجيا مضادة للسوسيولوجيا، أى أنها مضادة أو متناقضة مع العلوم الاجتماعية، لأن الأخيرة تعتمد على البرهان والمنطق ومقابلة الفكرة بنقيضها، بينما الايديولوجيا شاملة وغامضة وعامة، وهذه أحد أسباب قوتها، حيث الاختصار والتبسيط وشحن المشاعر الإنسانية، وهذا هو ما يقبل بسرعة من الجمهور العام فى ظل تطورات اقتصادية/اجتماعية/سياسية معقدة.

لهذا نرى أن فكر الأحزاب فى كل العصور هو ذو طبيعة أيديولوجية.

مانهايم قدم لنا تفسيرا آخر هو الفرق بين الأيديولوجيا والمثالية (اليوتوبيا)، فالأيديولوجيا هى منظومة فكرية للدفاع عن الجماعة المستفيدة فى المجتمع، بينما اليوتوبيا أو المثالية هى منظومة فكرية للدفاع عن المستضعفين. والمفهومان كلاهما بعيدان عن الحقائق العلمية الصلبة كما أسلفنا.

وعلى الرغم من أن الأيديولوجيا من المفاهيم الأكثر نقاشا فى العلوم السياسية والاجتماعية، فإنها الأكثر غموضا وتشويشا فى آن، وبرغم كل الدراسات التى تتناول الأيديولوجيا بشكل مباشر، أو غير مباشر، فلا يوجد تحديد مقبول على نطاق واسع للمفهوم. هناك عدة تفسيرات لهذا التشوش، منها خبرة الغرب مع تجربة الفاشية والشيوعية،

التى ضخت تيارات قوية فى الجسم الأكاديمى الغربى قوضت حياديته، للنظر فى هذا المفهوم، والثانى أن العديد من الدارسين الجادين والمحايدين ابتعدوا عن تناول شرح هذا المفهوم لكثافة ما به من مواقف سياسية. إن الإشكالية تكمن فى أن الأيديولوجيا ليست مصفوفة أو نظاما ما للأفكار والمبادىء فقط ولكنها نظام للفعل السياسى والاجتماعى. الأيديولوجيا - ولنتذكر قول ماركس - ليست فقط لتفسير العالم وإنما أيضا لتغييره. الأيديولوجيا إذن متداخلة مع الأحزاب والحركات السياسية.

إن المجتمعات تعتنق الأيديولوجيا خلال الأزمات .. ويعتقد المؤلف أن مرحلة الأيديولوجيا العربية ناتجة من انكسار الأنظمة القائمة. وأن عصرالأيديولوجيا العربية بدأ مع نهاية الحرب العالمية الثانية وسقوط الدولة العثمانية. التى عرفها العرب وخبروها لقرون طويلة، وتواصل صعود الأيديولوجيا العربية منذ ذلك الوقت مع تواصل أزمة العرب السياسية والاجتماعية حتى وصلت إلى قمتها فى الخمسينيات والستينيات مع فورة القومية العربية، خاصة بعد فقدان فلسطين ووصول الطبقة الوسطى إلى الحكم. وفى ظن المؤلف أن تلك المرحلة الصاعدة قد شهدت تراجعها فى السبعينيات والثمانينات من هذا القرن، لأن الايديولوجيا تزدهر بتزايد

الضغوط الاجتماعية والاقتصادية والسياسية خلال المواجهات التاريخية، وتتراجع عندمايحدث العكس.

عصر الأيديولوجيا بمعناه الغربى يتوسط، افتراضا، بين عصر الأديان والعصر الحديث المبنى على تحكيم العقل وازدهار العلوم، ويودع الغرب اليوم بقايا عصر الأيديولوجيا، بينما بعض العرب مازالوا يتوقون إلى شىء من الأيديولوجيا، أكانت قومية،أو دينية، أويسارية، كمواجهة لأزمات التحديث والتصنيع والتخصيص وانتشار وسائل الإعلام ونمو الاقتصاد الوطنى، وهيكلة السلطة بشكل جديد، وهى عمليات ليست سهلة ولا متوازنة ومشوبة بالصراع والاختلال الوظيفى. الأيديولوجيا تظهر كوسيلة عبور للاختلالات والإحباطات - فى هذه الأوقات العصيبة - وكوسيلة لنجدة ومعالجة الواقع غير المرضى عنه.

بين الأيديولوجيا والبيئة الاجتماعية

نظرية الضغوط تؤكد العلاقة بين الأزمات الاجتماعية والسياسية وبين ظهور وانتشار الأيديولوجيا. الأيديولوجيا تظهر لإشباع حاجات مطلوبة بقوة من هذه الشرائح، وهى تظهر لشرح تجارب وتأطير تصرفات وتأكيد قيم لأولئك الناس الذين يشعرون بتلك الحاجة عندما يغادر المجتمع ثوابته التى عرفها من قيم وثقافة وتراث.

ودون شك فإن المجتمعات العربية كانت مركز تأثير لضغوط ثقافية/ اقتصادية/اجتماعية ـ مثل ما تعرضت له جميع مجتمعات العالم النامى ـ لقد مرت المجتمعات العربية بنكبات الاستعماروظهرت الدولة الوطنية (القطرية) على شكل جديد من الهوية، وأطرت الجماعات القبلية والعرقية واللغوية والدينية والمذهبية، وحدثت نكبة فلسطين. كل هذه العوامل ضخمت من شهية قبول الايديولوجيا فى الوطن العربى.

لقد كان الإسلام يلعب دورا مهما ومركزيا فى تنظيم الحياة العربية السياسية والاجتماعية القديمة، فظهرت جماعات تريد زعزعة هذا الدور تحت شعارات الحداثة والتطوير، فخلقت بذلك صراعا خفيا وظاهرا فى الحياة السياسية العربية منذ مطلع القرن بين الرجوع إلى القديم من جهة ومسايرة التحديث من جهة أخرى، مما خلق الحاجة إلى قيم سياسية واجتماعية جديدة فنتج عن ذلك صراع آخر.

مجموعة الصراعات تلك أبرزت دورا مهما للأيديولوجيا فى الفكر السياسى العربى. وكما وصف ذلك فؤاد عجمى «الخلط بين النظرية والتطبيق فى الثقافة السياسية العربية عرّض العرب لقبول أفكار وخطط ومذاهب جاهزة». وهناك من الدارسين من يقرر أن هناك نزوعا للأيديولوجيا فى الثقافات العالمية الغنية، خاصة إذا كانت هذه الثقافات تعتمد على ديانة

تعمل كمهيىء سابق لظهور الأيديولوجيا .لأن هذا يعنى أن هناك تراثاً أيديولوجياً موجوداً .

القبول العربى بالأيديولوجيات كان نتيجة التغيرات الثقافية والسياسية والاجتماعية السريعة التى بدأت تظهر ضغوطا منذ بداية القرن. سقوط الخلافة، والاحتلال الأوروبى، وظهور القوميات (بما فيها القومية العربية)والهجرات التى صاحبت الحرب العالمية الأولى، ووقوع البلدان العربية تحت أشكال من الانتداب الأجنبى، كل ذلك أظهر أسئلة جوهرية فى الوطن العربى؟ ماذا تعنى الأمة وما هو محتواها؟ هل يحمل المرء ولاء سياسيا لمجموعة الإنسانية القريبة- القبلية، الطائفية، أو الجهوية، المناطقية؟ ما هى النتائج التاريخية لسقوط الدولة الإسلامية والخلافة وما دور المبادىء العلمانية فى الأخلاقيات الاجتماعية؟ ماهو موقف المجتمعات العربية تجاه الغرب ؟ وغير ذلك من الأسئلة التى تبحث عن تحديد للهوية.

لقد أرسلت هذه الكوراث والنكبات والتغيرات الجذرية موجات من الصدمات غيرت بسببها بعض الأنظمة السياسية بالعنف كما حدث فى مصر وسوريا والعراق، ووصلت مجموعات بشرية جديدة إلى السلطة، ومعها جاءت معالم جديدة، وقيم جديدة، وباختصار أيديولوجيا جديدة.

الخمسينيات من هذا القرن تمثل صعود الأيديولوجيا

العربية إلى قمتها، قيادات جديدة، وأهداف جديدة ، وقيم جديدة وعدت بالقوة والتحرير والتقدم والرفاه وطرد الأجنبى والتصنيع، واختزلت المشاكل المعقدة إلى فكرة، والفكرة إلى كلمة أو كلمات (وحدة، حرية، اشتراكية)على أى شكل من الأشكال تريد تنظيمها. إنها صورة مشوشة لليوتوبيا العربية. ولم يكن أحد يجرؤ على نطاق واسع على تحدى تلك الموجة، هذه الموجة فقدت قوتها وبدأت تنحسر أولا عندما فشلت الوحدة المصرية السورية، وتبين أن الشعارات لا تنطبق على الواقع، ثم ازدادت انحساراً بعد هزيمة١٩٦٧وبدأت تتراجع مع موت بطلهاجمال عبد الناصر١٩٧٠. النصر المحدود - يقول الكاتب - فى سنة١٩٧٣وتزايد أسعار النفط الذى تلاه مثّلا فترة جديدة لسياسيات عملية وواقعية تبتعد عن الأيديولوجيا لتنظر إلى الواقع. نشأت بعدها سياسيات عملية محافظة وأقل أدلجة وجدت فيها بذرة الحلول الوسط.

الاقتصاد كعامل ضغط

المجتمعات لاتتغير فجأة، إن تغيرها تدريجى، وقد يكون بطيئا فى البداية حتى يصل إلى مرحلة يصير التغير فيها سريعا وجارفا. فى القرن التاسع عشر كانت أوربا هى مركز الاقتصاد الدولى. وبدأت منذ ذلك الوقت التسرب إلى النظام الاقتصاد فى الشرق الأوسط الإسلامى. فى البداية كان

التسرب إلى المدن والمناطق الساحلية ثم بعد ذلك إلى الداخل العربى، هذه العملية فى شكلها البسيط عنيت بتدفق البضائع المصنعة، والزيادة فى تصدير المواد الأولية الزراعية والمعدنية العربية إلى أوربا، ونتج عنها تآكل فى الصناعات العربية التقليدية الشرقية والتى وفرت حاجات المجتمع الاسلامية لقرون عديدة. ومع ربط الإنتاج الزراعى العربى بالسوق الأوربية تغيرت طبيعة ذلك الإنتاج، كى تستفيد منها طبقة صغيرة هى طبقة أصحاب الأراضى. وجعلت الاقتصاد المحلى معتمدا بشكل أكبر على الاقتصاد الصناعى المركزى فى أوربا.

ومع وصول السفن البخارية وإقامة شبكات السكة الحديدية التى أقامتها شركات أوربية تدنت أهمية شبكة التجارة التقليدية العربية وطرق القوافل التجارية والسفن الشراعية التى كانت تنقل البضائع التجارية بين أقطار العالم العربى والاسلامى.

مؤلف عربى، هو سمير أمين، وجد أن تراجع النشاط الاقتصادى العربى كان أساسا نتيجة تنافس البضاعة الأوربية غير المتوازن مع مثيلتها العربية الإسلامية منذ فترة مبكرة تصل إلى القرن السادس عشر، عندما هزمت الطبقة التجارية العربية المسلمة أمام التجار الأوربيين الصاعدين،

الذين استطاعوا أن يحصلوا على امتيازات تجارية مجزية من الدولة العثمانية. منذ ذلك الوقت بدأت المدن العربية في الضمور، ومع ظهور الإمبريالية في نهاية القرن التاسع عشر كان الوطن العربي كله قد وضع تحت مظلة النظام الرأسمالي كمناطق نفوذ. المناطق العربية المتصلة والمتداخلة فصلت من جديد لصالح القوى الأوروبية الاستعمارية.

الاستجابة العجلى من حكومتي اسطانبول والقاهرة للتدخل الأوروبي كانت لها نتائجها التمزيقية على الوطن العربي أيضا، والإصلاح العلماني قلل من نفوذ الطبقة الدينية في التعليم وفي الاقتصاد وفي القضاء.

تحديث الجيوش من جهة أخرى فتت الطبقة المحاربة التقليدية التي كانت تشارك الطبقة الدينية في الحكم. كما أن المصروفات الباهظة والإدارة السيئة عرضت هذه المجتمعات إلى الإفلاس - كما في الدولة العثمانية - وبينما كانت هذه المجتمعات تحاول تطوير اقتصادها على شاكلة ذلك الموجود في أوروبا، ساعدت تلك الخطوات على تحطيم الأشكال الاقتصادية القديمة، وفشلت في نفس الوقت في الوصول إلى بدايات الاقتصاد الرأسمالي، وأصبحت العلاقة بالغرب متضخمة وغير سوية.

تدخل قوى السوق الدولية والإصلاحات القلقة وغير

الواضحة للحكومات المحلية كان له نتائج سلبية على ملكية الأراضى وإنتاجياتها فى المناطق العربية وفى الإمبراطورية العثمانية فى آن. لقد حُطمت المنظومة الزراعية القديمة لتطويعها لمتطلبات التجارة الأوروبية فأصبحت الحيازة للأراضى كبيرة. وحولت ملكية الأرض للنخبة من رؤساء القبائل والمتنفذين، بينما زادت أعداد الفلاحين دون أرض.

باختصار، كانت مظاهر عدم المساواة بين الغرب والعرب تتفاقم وأصبح الأجانب والأقليات الدينية ـ بسبب المال المتوافر عندهم أو بسبب الامتيازات الممنوحة لهم والإعفاءات التى حصلوا عليها ـ مسيطرين على الاقتصاد فى الإمبراطورية العثمانية، كما أن المهارات التى حصل عليها كثيرون من هؤلاء من مدارس التبشير الغريبة ومن عملهم كوسطاء وشركاء للشركات الغربية الناجحة، أهل هذه الفئة للسيطرة الأجنبية على الاقتصاد العربى. وما إن بدأت الحرب العالمية الأولى حتى كان الأوروبيون ووسطاؤهم يملكون كل القمم الرئيسية فى الاقتصاد ـ ما عدا امتلاك الأراضى ـ بينما كان أبناء الأقليات يشكلون الفئات الوسط. وأثارت سيطرة الأجانب وغير المسلمين فى الشرق العربى حساسية العرب المسلمين.

بجانب التغيرات الاقتصادية كان هناك تغير ديموغرافى غير مسبوق وزيادة هائلة فى السكان، مما أسقط أعدادا أكبر من

العرب المسلمين فى قاع الفقر والفاقة. لقد زاد عدد سكان الشرق الأوسط فى القرن التاسع عشر ٣٠٠٪ ، فيما تفتتت الصناعات التقليدية وصاحب ذلك انحطاط اقتصادى، وبدأت الهجرات المبكرة من الريف إلى المدن والحواضر.

وأخيرا كانت الإدارة العثمانية، وبعد ذلك الإدارة الاستعمارية - لما قبل الحرب العالمية الثانية - منبعا قدّم للشرق الأوسط بيروقراطية عتيدة وقوانين حديثة. فى هذا الخضم من التطورات الاقتصادية والاجتماعية، والتأثيرات السياسية كان لابد من ظهور أيديولوجيا تقدم منظومة فكرية لضبط وتقنين كل هذه التغيرات.

تغير البيئة السياسية

البيئة السياسية للعرب تغيرت جذريا فى المائة سنة الأخيرة كما تغيرت البيئة الاقتصادية والاجتماعية، فى البداية كان التوسع الاستعمارى، فهزمت البلاد العربية، أمام هذا التوسع،فى مصر ١٨٤٠، ١٨٨٢وفى المشرق العربى سنة١٩٢٠، بجانب هزيمة الجزائر١٨٣٠، و١٨٧٠، ١٨٨٢فى تونس، و١٩١١فى المغرب .انتصارات القوة الغربية هذه غيرت جذريا فى السياسية العربية، ليس فى هياكلها ومؤسساتها فقط، بل فى رموزها والمواقف الشعبية والعاطفية المتصلة بها، فقد كانت مرحلة انفصام عن الماضى وموقف تمزيق ساعد

على ظهور علاقات صراع بين المجتمع والدولة، وأنتج كل ذلك العداء الظاهر والباطن الذى توارثته الحركات السياسية للدولة كمظهر من مظاهر السلطة فى الوطن العربى، ولا تزال نتائج هذا الصراع ماثلة لنا فى الواقع، فإن القرن العشرين شهد تدريجيا مركزية وبيروقراطية عمل الدولة - والتى كان نفوذها قبل ذلك - وتدخلت الدولة فى شئون الأفراد، وكانت سابقا متروكة للممارسات الدينية والشخصية.

أصبحت المطالبة بالاستقلال الوطنى بعد ذلك والمشاركة السياسية والثقافية السياسية سمة الثلاثينات من القرن العشرين. ووسعت الروح الثورية فى الخمسينات والستينات المشاركة السياسية لتضم عدداً كبيراً من الناس، على الرغم من أن المشاركة تقلصت فى السبعينيات والثمانينيات.

خبرة المشاركة السياسية كان لها نتائج، يتعذر محوها أو إزالتها، على المجتمع العربى. باختصار، فإن البنية السياسية للوطن العربى فى القرن العشرين صارت قليلة الشبه بالبنية السياسية فى القرن الذى سبقه.

المواقف السياسية والقيم، لم تكن قادرة على التكيف بسرعة كافية مع التغيرات فى المعتقدات السياسية. وكما هو الحال فى الإطار الاجتماعى/السياسى، فإن المعتقدات السياسية والمواقف تأخرت كثيرا عن سرعة التغيرات السياسية

الحقيقية على الأرض، تاركة الفرصة لظهور وتطور الإيديولوجيا. فظهور تركيا الحديثة كمثال لاحظه بيرنارد لويس وكتب عنه عام١٩٨٦يعتبر نموذجا على الكيفية التى حولت بها الثقافة المادية الغربية من بنية وتوجهات المجتمع الإسلامى فى قطاعات كبيرة ـ غالبا إلى الأسوأ ـ وجعلت كثيرا من الأفكار الغربية تؤثر فى التوافق الاجتماعى، وتخلق مسارات جديدة لتحديد الهوية والولاء.

النبض العلمانى الذى كان من قبل محوا للتنوير الأوربى، تبين أنه جذرى أكثر مماكان فى البداية مع الإصلاح البروتستانتى، وبينما بدأ كتأمين ضد تدخل الكنيسة فى الشئون السياسية، حتى فى الأخلاق وفى العدالة. هذه الثورة انزلقت بعد ذلك إلى حد التطرف (رفض وجود الله من قبل ماركس «اليسار» ونيتشه «اليمين»)وفى البلاد العربية استقى البعض هذ الأفكار من الغرب وأصبح لها نتائج ثقافية حادة وغير متوازنة أدت إلى رفع شعارات ثقافية مثل: إصلاح النظام الاجتماعى والسياسى ـ عزل الدين عن الدولة... الخ.

وإن محاولة عزل الدين عن العوالم الأخرى للحياة، يعنى أن مصادر القيم الجديدة تتطلب تنظيم المواقف الاجتماعية والسياسية، لتأكيد القومية ـ التى لا يعترف بها الإسلام.

وبقاء الدين فى الحياة بعد سقوطه من السياسة ـ بعد أن

صارت السياسة علمانية - حالة ليست خاصة بالعالم الإسلامى وحده - برغم أن أداء الإسلام فى السياسة أكبر - لذلك بقيت المراوحة حتى اليوم والنقاش العميق حول هذا المفهوم.

لقد شهدت بداية ميلاد القومية الجديدة - فى الغرب - تحولا فى المواقف الدينية فى السياسة «من الرب إلى الشعب» وكان واضحا أن المذبح لم يبن للرب بل لأرض الآباء، كما تغيرت الإجازات، والأعياد، وخصصت الصلوات للمعبود الجديد «العلم» الذى حل بديلا عن الصليب كهدف رمزى للحب والتقدير، مع تقاليد حازمة تحكم رفعه وإنزاله وتحيته. النصب الوطنية أصبحت بديلا للأماكن المقدسة كقبلة للزيارة. والأبطال الوطنيون حلوا محل القديسين. وجاء الزواج المدنى، والتعميد المدنى، وأخيرا فإن تهمة الخيانة حلت محل تهمتى التجديف والزندقة.

أما القومية الحديثة فى الوطن العربى فكانت واعية للمحتوى الروحى للقومية، وعملت جاهدة على إظهار ذلك فى ندائها «باسم الله وباسم العروبة» - بينما قال أنطونيوس سعادة (الحزب القومى السورى) إنه أوجد دينا جيدا..!!.

التنافس بين الإسلام والقومية فى المجال الروحى أظهر اضطرابا فى الثقافة السياسية العربية، ولايزال.

نزوع المجتمع لتبجيل وتوقير ماضيه يمكن أن يكون قويا كالدين المتجذر فى الماضى والممتد فى الحاضر فهو يزود المجتمع بإحساس بالهوية والكينونة الاجتماعية كمنظومة من القيم المشتركة، والأهداف المشتركة، وكإطار للنماذج الاجتماعية. أهمية الماضى هى إعطاء شرعية للحاضر.

المجتمع العربى اعتمد على التراث، بينما أوروبا اعتمدت على الشكل المتوازن للتاريخ والتراث.

الأزمة النفسية

التغيرات الهائلة فى البعد الاجتماعى/ الاقتصادى/ السياسى وفرت الفرص لظهور الأزمة فى القيم الاجتماعية، والمواقف والتفسيرات لم تعد كافية لتنظيم وتقييم حياة الأشخاص.

وبعدت الشقة بين المراد والممكن خاصة لدى هؤلاء الأشخاص الذين مرت خبرتهم بالحراك الاجتماعى الجديد، الأفقى منه، أى من قرية إلى مدينة، أو الرأس الذى يعنى حراكا اقتصاديا اجتماعيا من طبقة إلى أخرى. وكثير من هؤلاء الأفراد وقعوا فى تناقض بين الفعالية الموروثة والحقيقة القائمة وأدخلهم هذا التناقض فى صراع مباشر مع المجتمع، وقد خلف هذا شعورا قويا بالضعف، والخوف، والقلق، وفقدان الإحساس بالمشاركة والاتصال مع المنظمات

الاجتماعية القائمة. على المستوى العاطفى فإن الناس صاروا يشعرون بالوحدة، وأنهم غير محبوبين وخائفون، ومغمورون بالأسى.

كل ما سلف أدى إلى الالتصاق المرضى بالرموز، فالحركات الشعبية التى يمكن أن تقدم للناس الهوية المفتقدة، والدور والإحساس بالقيمة الذاتية - السلطة والرفعة - بينما هم جاهزون للموافقة وقبول تفسيرات جامدة للمواقف المشوشة التى يواجهونها. بهذه الطريقة فإن الأيديولوجيا والحركات الأيديولوجية تزداد وتنتشر بسبب الضغوط النفسية للأفراد المنخرطين فى التحديث، وقد عبر عن ذلك العالم النفسى إيريك فروم بتفسيره: «إن كانت الفكرة تستجيب لحاجة نفسية قوية لمجموعة من الناس فسوف تكون قوة فعالة فى التاريخ».

مسألة الهوية والهوية الشخصية، ودور الشخصية، ومن هم الآخرون وما هى صورة الأنا؟ كلها صارت أسئلة معلقة فى الواقع الجديد. فدون هوية اجتماعية فإن الأشخاص يكونون معزولين بعمق عن بيئتهم الاجتماعية، وبيئتهم الثقافية، ودون تحديد الآخر لا يستطيع الفرد تحديد هويته الاجتماعية.

من هذا المنطلق فإن الأيديولوجيا تستطيع أن تساعد بطريقتين إذ تحول البيئة المشوشة إلى متسقة، وتوفر فرصة القيادة لتحديد الذات أو لتتحدد من خلالها الذات. وينطبق

هذا أكثر ما ينطبق على الفئات القلقة فى المجتمع خاصة الشباب والأقليات.

مستقبل الأيديولوجيا.. عربيا

لا شك أن عصر الأيديولوجيا هو عصر التغيرات فى المنطقة العربية فأولها كان سقوط الإمبراطورية العثمانية بكل تأثيراتها المشوشة على المنطقة، وثانيها كانت مجموعة الهزائم العربية البادئة من حرب ٤٨ إلى حرب ٦٧، وثالثهما ـ كظاهرة ونتيجة ـ كان بروز الإسلام السياسى فى الستينيات.

هذه التغيرات وما صاحبها من صعود وهبوط اجتماعى واقتصادى أنشأت فئات اجتماعية جديدة، وكانت الأيديولوجيا إحدى الوسائل التى سُخِّرت كآلة حرب (أو هجوم) لعزل طبقات نقيضة حتى يتسنى لمن يشن الهجوم أن يصل إلى السلطة.

لقد قامت الأيديولوجيا العربية بمهمات إيجابية عديدة، إذ لعبت دورا ملحوظا فى تحديد صورة بعض قطاعات المجتمع، وعملت على إسقاط الأنظمة التقليدية فيما بين الحربين، ومهدت التربة لمجيء الأنظمة الجديدة. وبشكل عام فقد كانت وسيطا للتطور، وإطاراً أوليا للأفكار الجديدة.

لكن، وبعد سبعة عقود من النشاط الأيديولوجى، فإن الثقافة السياسية فى البلاد العربية لاتزال تسبح فى خضم فوضى

كبيرة. فلا يوجد تحديد واضح لملامح المجتمع السياسى، ولا قواعد متفق عليها للشرعية السياسية، ولا يوجد مفهوم واضح وجلى للحقوق والواجبات السياسية فى المجتمع العربى وبشكل عام، فإنه لا يوجد هناك إطار مستقر للتفاعل السياسى ترشيده «أجندة» (جدول أعمال) معترف بها على نطاق واسع لتحديد الأهداف السياسية. وهذا كله يعتبر فشلا للأيديولوجيا.

وإذا كانت إرهاصات العقود السبعة فى دائرة الأيديولوجيا العربية قد انتهت بالفشل أو ما يشبه الفشل، فإن الأفق العربى الذى صار مقتحما بالتغيرات العالمية الهائلة - سياسيا واقتصاديا وتقنيا وثقافيا تبعا لذلك - لا يمكن أن يعد بالكثير للأيديولوجيا العربية.. وبعبارة أخرى، فإن الأصوات العالية لبقايا الأيديولوجيا العربية (بشتى ألوانها ما هى إلا دفاع النَفَس الأخير. وإن كان هذا لا يمنع أن تظهر فى الأفق بدائل جديدة للأيديولوجيا القديمة وهو ما لم يتبلور بعد.

١٥

لا عن غـــزة ولا أريحـــا ولكـن عن الحلـم الضـــائع

هناك موضوعات الكتابة فيها أشبه بالسير على الرمال المتحركة، والقضية الفلسطينية الآن قد أصبحت موضوعا متحركا بل شديد التحرك. هناك مخاطرة تتمثل فى أن الوقت الطويل نسبيا - الذى يمضى - بين الكتابة والنشر، فى نفس الوقت فالعجلة السياسية تدور دون أن تتوقف تفاعلات الأحداث وتداعياتها مما قد يفوت على الكاتب بعض التفاصيل فى الصورة. وأعترف أن القضية التى كانت تقليدية فى أحداثها طوال السنوات الماضية قد أصبحت حافلة بالمفاجآت والتغيرات، فى زمن قصير. ففى مثل هذا الشهر من كل عام كنا نتذكر وعد بلفور ونأخذ فى تدبيج المقالات فى وصف صلف هذا الوعد وخلوه من العدالة حتى غدت فكرة «لقد أعطى من لا يملك وعدا لمن لا يستحق» تكاد أن تكون مقولة متكررة نبدأ بها مقالاتنا المتكررة فى تأبين الحدث لنصل بها إلى نفس النتائج المتكررة.

إلا أن رياح التطورات السياسية تقاذفت الموضوع بين مد وجزر حتى كادت أن ترسو به أخيرا فى ميناء الاتفاق الأخير بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل. والتعليق على هذا الموضوع شائك ومتشعب وملىء بالانفعالات العاطفية، فجيلنا لا يمكن أن يمحو صورة اللاجىء المشرد فى الخيام والمنافى من خياله، يعانى من الجوع والغربة والاغتيال اليومى، كما أنه

لا يمكننا أن نتجاوز صلة الدم والعروبة والإسلام التى تربط العرب والمسلمين ببعضهم، كما لا يمكن أن تحمل جريرة البعض على الكل. ومعضلة الكتابة فى مثل هذا الموضوع متشعبة فالتاريخ القريب يشدّك إلى وقائع مذهلة لا يستطيع حتى من ادعى الحياد أن يصرفها عن ذهنه وقوى الواقع تفرض مسيرة صعبة ومعرجة.

فأنت بين ألم الماضى وأمل المستقبل وبينهما وقائع بها أشخاص وحوادث استقرت فى العقول.

بين هذا كله تكاد بوصلة التوجه والتحليل أن تتذبذب بين اتجاهات كلها متناقضة.

إنه تاريخ العرب الحديث بعد الحرب العالمية الثانية! أى ما يقارب نصف قرن من الآمال والآلام والفرص المتاحة الضائعة وتاريخ أكثر من جيل انغمس حتى أذنيه فى الصراع والشقاق، فضيع على نفسه فرصا وعلى أبنائه إمكانات. تاريخ الآلاف من القتلى والمعتقلين والمشردين وآلاف الأرامل والأيتام. كم تبدلت التحالفات وزاغت الأبصار. إنه تاريخ اتسم بالعنف والانقلابات والتصفيات. وكان أساسه وعد بلفور وحلم الآخرين فى : أولا تكوين أمة وثانيا تحرير فلسطين وربما تأتى ثانيا قبل أولا، وربما جاء الاثنان ـ لدى البعض ـ فى نفس الدرجة من الأهمية.

القومية العربية.. حلم مبدد

قبل بداية الحرب الأولى كانت هناك بؤرة فكرية نمت حتى سميت بـ «القومية العربية» ولقد كتب فيها ونظر إليها مجموعة لا بأس بها من المفكرين، كما تبنتها أحزاب وحركات سياسية، وتلونت هذه الفكرة فى كل مرة بلون الحزب أو الحركة السياسية التى تبنتها خاصة بعد الحرب العالمية الثانية واستقلال معظم الدول العربية عن الاستعمار المباشر.

ولقد ازدادت الفكرة القومية تجذيرا (بنكبة) فلسطين والتى كانت فى البداية أن شعبا ليس له حق قد اقتلع شعبا عربيا وأزاحه إلى المخيمات واغتصب أرضه من (النهر إلى البحر) وتداخلت مصالح وقوى وأهواء، تعارضت وتوافقت باسم (القومية) وباسم المساعدة على تحرير فلسطين، من السهل الآن إلقاء اللوم على هذه الفئة أو تلك - وإن فعلنا فإننا لم نتقدم خطوة على (الحرس القديم) - إنما المراد فى هذا الحديث هو سبر الأغوار الفكرية والتماس الدوافع الموضوعية وبيان الحقائق كما هى على الأرض، التى قد تفسر هذا التذبذب وهذا الصراع الذى كان فى بعضه صراعا عبثيا ومدمرا.

لقد رفعت شعارات الهدف منها هو كما قيل (تعبئة الجماهير) وراء شعار التحرير وحرب العدو، وباسم هذه

الشعارات هدمت دول وأطيح بمؤسسات وشتتت قوى (الأمة) وأزيح مفكرون ومثقفون، وهم خلاصة المواهب المتوافرة فى بلدانهم، كل ذلك باسم التحرير، وقد سارت الجماهير - نتيجة لغياب الوعى أو نقصه أو قلة المعلومات - تبارك هذه الخطوات حتى لو كانت متناقضة ومتعثرة، ومن يقرأ بيانات وأدبيات السياسة العربية فى الستينيات والسبعينيات يجد هذا التناقض واضحا. وإن كان المثل ورادا فإن قارئ بيانات الوحدة والانفصال السورية/ المصرية فى الستينيات يتعرف على حقيقة متناقضة وهى أن كلتا العمليتين قد تمت (للدفاع عن القومية العربية) وأيضا تحرير فلسطين!!.

ولم يخل بيان سياسى فى تلك الفترة عن وضع اللوم كله أو معظمه على إسرائيل تبريرا للإخفاقات العظيمة التى منيت بها دول عربية.

فى السياسة النتائج هى التى تحسب وليس الشعارات، لقد امتهن استخدام شعارات القومية العربية، بل وأسئ استخدامها مرارا وتكرارا حتى عانت من جراء ذلك (الأيديولوجيا) واكتشف الناس أن تلك الشعارات استخدمت فقط - فى أحسن أحوالها - لإبقاء هذه الفئة أو تلك أو ذاك الحزب فى السلطة لا أكثر ولا أقل.

الفلسطينيون الذين شردوا من ديارهم واقتلعوا من أرضهم،

كانت لهم قضية واضحة وعادلة، وقد حرموا لفترة من أن يمثلوا أنفسهم حتى بداية السبعينيات. لقد عانوا ما عانوه من ظلم واضطهاد وحرمان وشتات.

وكان من المفروض أن يأخذوا على عاتقهم أولاً التصدى لهذا الظلم، وتم بالفعل قيام منظمة التحرير وأصبحت منذ الثلث الأول من السبعينيات (الممثل الشرعى الوحيد) للشعب الفلسطينى، كان من المفروض أن يكونوا هم أول من وعى الدرس واستفاد منه، إلا أن ذلك لم يتم فى معظم الوقت، فلقد ظن أو تخيل البعض فى قيادة المنظمة أنه أصبح دولة ودخل فى مناورات وصراعات دول المنطقة يقفزون من النقيض إلى النقيض ظنا منهم - وهو ظن خاطىء - أن ذلك يصب فى مصالحهم «وثورتهم» والتى كانت ترفع شعارات «ثورة حتى النصر». وخلفوا وراءهم فى الأردن ولبنان وأماكن أخرى شريطا من الألم والحسرة، والمرارة أيضا، وكذلك حدث فى الكويت.

التناقض أن وجود المنظمة كممثل للشعب الفلسطينى بحد ذاته، اعتراف بالدولة والأقاليم العربية، ونقيض لفكرة الوحدة العربية، وظهور (دولة) إن شئت على حساب الدولة (الأردنية). إلا أن كل هذه الحقائق قد تم تجاوزها على طريقة تسمية الشىء ونقيضه بنفس الاسم. واستخدام قادة المنظمة - متى

ما يحلو لهم - الغطاء العربى فى آن والإقليم الفلسطينى فى آن آخر ويرروا كلا التناقضين بوهن (الدعم العربى)!.

نعم للوحدة.. لا للموظفين

حقيقة الأمر أن معظم السنوات الخمسين عاشتها السياسة العربية فى ديماجوجية هى انعكاس لعوامل هيكلية داخلية فى المحيطات العربية مثل نقص التعليم وضيق الحرية السياسية والأحادية فى التعبير السياسى، كما هى نتيجة بعض العوامل الخارجية ومنها بالطبع آثار الحرب الباردة. وقد أثرت الحرب الباردة بشكل أكثر قسوة فى منطقتنا العربية لأن تكتيكاتها وجدت تربة خصبة فى العامل السياسى المحلى وهى محاولة الاستفادة من طرف على حساب طرف آخر دون - أو هكذا كان المقصود - أن تقدم دعما حقيقيا للطرف المعاضد! ولم يكن ذلك كله يخفى على جميع الأطراف!.

لم نستطع - حتى فترة متأخرة - أن نتبين المصالح المتباينة والشرعية أيضا بين الأطراف العربية، كنا نمارسها نعم ولكن لم نعترف بها علنا فكنا والحال كذلك نعيش شخصية مزدوجة، وهى بالمناسبة ليست جديدة على سلوكنا السياسى، فساطع الحصرى - السورى، اليمنى المولد - عندما تولى وزارة التربية فى العشرينيات فى العراق وأراد أن يوظف مجموعة من الأساتذة السوريين فى مدارس العراق خرجت

مظاهرة (كما يقول فى مذكراته) تهتف نعم للوحدة.. لا للتوظيف!!.

ومثال جديد وحديث فالمحادثات السورية/ العراقية للوحدة فى بداية السبعينيات كانت تسير حثيثة وعندما ذكر السوريون الثروة النفطية تباطأ العراقيون ثم اخترعوا (العقبات) لوقف المحادثات. أما فى نهاية السبعينيات فإن (الاختراع) كان الإطاحة بمجموعة من رءوس النظام العراقى على أنهم مناوئون، بل خونة! بعد محادثات سورية عراقية «وحدوية». وهكذا تحولت القومية العربية عند كتابها التقليديين إلى «دوجما» سياسية ذات اتجاه واحد، تركز على العوامل المتشابهة وتنفى الاختلافات النوعية بين الأقطار، تعتمد على المتتاليات وليس تفاعلات البنى الاجتماعية والاقتصادية. كما تحولت عند الممارسة السياسية إلى شعار لإلهاء الجمهور والتنصل من تبعاتها فى أول فرصة، وأصبحت الجماهير العربية حائرة بين الثقافة القومية السائدة التى تؤكد أن كل شىء متشابه إلى درجة التطابق وبين الاختلاف النوعى المعيش فى الواقع فى قضاياها وتطلعاتها. ورغم اختفاء هذا النوع «التوتالارى» اليوم من التفكير من العالم كله إلا أن بعض الجماعات المتشددة والداعية للأيديولوجية الشاملة تحاول أن تعيد نهج التفكير

ذاته ولكن بطرق مختلفة وتحت مسميات جديدة.

الحلم يتضاءل

وبانتهاء قضية فلسطين إلى هذا الاتفاق الثنائى الأخير فإننى أعتقد أن آخر أحلام القومية العربية آخذ فى التضاؤل هو الآخر. ذلك الحلم باستعادة فلسطين وطنا لكل الفلسطينيين.

ويبدو أن الهزيمة التى تم تأخير إعلانها طويلا منذ أعوام ٤٨ و٦٧ قد حان وقت إعلانها الآن وسط ضباب ملىء بحبر المعاهدات والوعود الغامضة. فهل كانت منظمة التحرير الفلسطينية هى حقا الممثل الوحيد والشرعى والممكن للشعب الفلسطينى، وهل كان ياسر عرفات هو رمزها وقائدها عندما كان يقول قريبا جدا فى عام ١٩٨٩: إن منظمة التحرير الفلسطينية عندما تعرض السلام لا تعرضه من موقف ضعف.. ولكنها تعرض سلام صلاح الدين.. «وليس أقل من ذلك» فأى سلام هذا الذى عرضه وأى سلام هذا الذى قبله؟

يبدو أنه كان غامضا مثل غموض معاهدة السلام التى وقعها.. يروى الكاتب الفلسطينى الشهير إدوار سعيد أن عرفات كان يخطب وسط جماهيره الفلسطينية المحتشدة وكان كعادته يصيح ويشير ويبكى أحيانا من شدة الانفعال وعندما سأله واحد منهم عن الصورة التى سوف تكون عليها شكل

الدولة الفلسطينية المقبلة أشار عرفات إلى طفل صغير يقف فى مقدمة أحد الصفوف وهو يقول «عليك أن تسأل كل طفل فلسطينى ماذا يريد؟» وصرخت الجماهير فى إعجاب باهر وانخرطت فى التصفيق.. ويتساءل إدوار سعيد حائراً. «بحق السماء ماذا يقصد.. وماذا كان يعنى بالضبط..».

إلى أى مدى كانت مصداقية هذا الرجل الذى تحول فى وقت ما إلى أمل لكل المستضعفين فى المخيمات.. هل كان الدور الذى يقوم به مرصودا بدقة حتى أن رفاقه تساقطوا من حوله وبقى هو حيا كأن معجزة إلهية ترعاه. لقد اجتاحت إسرائيل بيروت عام ١٩٨٢ وقصفتها بوحشية شديدة ولكن مقر عرفات لم يقصف. بل وانتشرت إحدى القصص التى تؤكد أن عرفات عندما كان متجها لركوب السفينة لمغادرة بيروت استطاع أحد الجنود الإسرائيليين أن يضعه فى دائرة الإصابة ببندقيته ولكنه لم يطلق النار. وربما كانت القصة زائفة ولكن رسالتها واضحة، لقد أبقى عليه حتى يكون ذا فائدة فى المستقبل فمن كان يتوقع أن نصل إلى هذه النتيجة؟!.

التقزز الإسرائيلى والرضا الفلسطينى

«إننى أفعل ذلك بتقزز..» هكذا وصف إسحاق رابين محادثاته مع منظمة التحرير الفلسطينية.

قال ذلك أمام الكنيست الإسرائيلى دون أن يبالى بالاعتذار لأحد. وحين جاء وقت المصافحة الشهيرة تردد لبضع لحظات سينمائية بينما بقيت يد الرئيس الفلسطينى معلقة فى الهواء.. كأن يد رابين ظلت تحاول إظهار تقززها حتى اللحظة الأخيرة

كالعادة جاء شهر أغسطس الحار حافلا بالمفاجآت. وخرج إلينا الاتفاق السرى من أحراش أوسلو الباردة، ربما كانت فيه بعض النقاط الإيجابية التى لا يمكن لمحها منذ الوهلة الأولى، ولكن الطريقة السرية والمريبة التى خرج بها جعلت كل شىء محفوفا بالشكوك للبعض ووصلت هذه الشكوك إلى درجة الاتهام بالعمالة والخيانة وغير ذلك من التهم العربية المعروفة.. والجاهزة. فلا يوجد أحد ضد السلام وضد التفاوض. بل إن منظمة التحرير كانت ممثلة قولا وفعلا فى المباحثات العلنية التى كانت تتهيأ لدخول جولتها الحادية عشرة فى واشنطن. ولكن نفس المنظمة التفت من خلف مفاوضيها وقبلت كل الأشياء التى كانت مرفوضة. كان المفاوضون فى واشنطن مصرين على أن قرار مجلس الأمن ٢٤٢ هو الأساس لقبول أى تسوية من أى نوع. لأن هذا هو القرار الوحيد الذى من شأنه أن يلزم إسرائيل بالانسحاب من كل الأراضى التى احتلتها، ولأنه كان قرارا دوليا له شرعيته وأمريكا هى أول المعترفين به فقد كانت إسرائيل تجد نفسها

في موقف صعب تفاوضيا، وجاءت المنظمة في محادثاتها السرية وألغت هذا الشرط. نفس الأمر بالنسبة لسلطات الحكم الذاتي واستمرار إقامة المستوطنات ومبدأ تقسيم المياه. شروط واضحة ومحدودة كان الوفد المعلن يسعى لاتفاق واضح وصريح حولها وجاءت المفاوضات السرية لتنسف كل هذه الأشياء وتكتفي بمعالم غير واضحة وبقطعة ضئيلة من الأرض وبمكسب متواضع لا يوازيه في تواضعه إلا الطموحات السياسية لأصحابه

ربما كان الأوان قد فات لكل هذه الانتقادات المريرة. ولكن قادة المنظمة وعلى رأسهم ياسر عرفات قد أثبتوا قصر نظرهم في التعامل مع أراضيهم بنفس الدرجة التي تعاملوا بها معها أثناء غزو العراق للكويت . فهؤلاء الذين عانوا من مرارة الاحتلال واستلاب الأرض باركوا احتلال الكويت واستلاب أرضها وهم الآن يقنعون بحل مرحلي غامض يكرس الاحتلال ويضيع الجزء الأعم من أرض فلسطين.

لقد أخذوا قطعة من الأرض متفجرة بالألم والحزن، فقطاع غزة الذي اشتهر بأنه يصدر البرتقال والمدرسين يحتوي على أكداس من البشر الذين شهدوا المأساة وكانوا دائما أكثر من طاقة هذا الشريط الضيق على استيعابهم، والخوف ألا يتوقف تدفق البشر عليه، فالمخيمات سوف تنزح إليه بحثا عن الوطن

وإسرائيل تطرد إليه المبعدين نفيا من الوطن. ولا أحد يعلم متى ستخرج المفاوضات من مرحلتها الأولى لتصل إلى المرحلة الثانية، ولا أحد يعلم كيف يمكن أن توضع معالم الحكم الذاتى وسط غابات المستوطنات التى اقتنصت الأرض.. ولكن يبدو من كل ما مضى.. أن الأصعب مازال قادما فى الطريق.

لا أحد يؤيد.. لا أحد يعترض

لم يستطع أحد أن يؤيد. لم يستطع أحد أن يعارض. هذه هى حالة الشلل التى تعانى منها السياسة العربية حتى الآن. وانقلبت العملة على وجهها الآخر، وتذكر الجميع أن فلسطين هى قضية تخص الفلسطينيين فقط. وعندما عرضت نصوص الاتفاق قلب السياسيون العرب شفاههم وغرقوا فى الصمت مرة أخرى.. هل كان هذا الاتفاق هو ممكن السياسة العربية فقط فى وضعها الراهن وفى ظروفها الراهنة.. يبدو أن الأمر كان ذلك.. والعقبات كثيرة، ففى الوقت الذى يتحدث فيه فلسطينيو الاتفاق أنهم قد أصبحوا على طريق الدولة الفلسطينية يصر الإسرائيليون على أن الحكم المؤقت لمدة خمس سنوات لن يؤدى إلى قيام مثل هذه الدولة، فإدارة الحكم الذاتى لا تستطيع أن تمارس أى حق من حقوقها فى السيادة ولا تستطيع أن تمنح مواطنيها أى نوع من الهوية،

وهو أمر يخالف حقوق الإنسان ويكرس وضع اللاجنسية بالنسبة للفلسطينيين داخل الأرض المحتلة، ولا يتحدث الاتفاق - ولو بالمصادفة المحضة - عن الفلسطينيين الذين سكنوا الخيام منذ عام ١٩٤٨ فى الأردن وسوريا ولبنان.. ماذا سيحل بهم وأى وضع قانونى سوف يكونون فيه بعد أن أسقطت كلمة اللاجئين تماما من قاموس الاتفاق؟..

إسرائيل لا تراهن ولكن تحاول أن تأخذ.. ولكن ليس أمام منظمة التحرير غير المراهنة.. فهى تراهن أولا على النوايا الإسرائيلية.. وثانيا على قطعة الأرض الصغيرة لعلها تكون نواة لدولتها الغامضة.. وتراهن على حصة من أموال المساعدات التى تتوقع أن تتدفق عليها، وتراهن على آلية انتخابية تضمن لها أكثرية فى انتخابات المجالس المحلية فى الضفة والقطاع.. مراهنات لا تنتهى، ربما انتهت ببعض المكاسب.. ولكن ما العمل أمام خصم يحتكر كل أوراق اللعبة؟

وقت الحسابات الثقيلة

ربما كان على قادة منظمة التحرير الفلسطينية وهم يستعدون للتوقيع على الاتفاق أن يتذكروا أنه فى هذه اللحظة حان وقت دفع الحساب لقائمة من الأخطاء الكبيرة، وعلى رأسها بطبيعة الحال موقفهم من احتلال الكويت..

لقد أورثت أزمة الخليج وحرب تحرير الكويت منظمة

التحرير جبهة، أقل ما توصف به أنها غير مبالية بمصير المنظمة، بعد أن كانت أكثر الجبهات المساندة لها تحمسا. وقد أدرك القادة ذلك عندما توقفت التحويلات المادية السخية التى كانت تأتى لهم من بلدان الخليج العربى، وكذلك توقف الدعم السياسى والمعنوى. وفى حالة بلد مثل الكويت كانت تحتضن ٤٠٠ ألف مواطن فلسطينى أخرجهم الاحتلال وقصر نظر قادتهم عنوة بعد أن كانت تعتمد عليهم آلاف الأسر فى الأرض المحتلة، مما أعطى للانتفاضة هذا البعد الزمنى والمادى فواصلت صمودها على مداه، وهو الأمر الذى لم يملك أمامه الشاعر الفلسطينى سميح القاسم إلا أن يقول فى مجلة المصور القاهرية أخيرا «نحن لا نملك إلا أن نزجى الشكر إلى الكويت».

وحين أرادت أمريكا أن تقدم لهم حلا فى إطار متغيرات النظام العالمى الجديد اكتشفت أنه لا يوجد لهم سند حقيقى يقوى ظهورهم. لقد كف العرب عن مجاراة بعض الفلسطينيين فى أخطائهم وممارساتهم السياسية، لأن خطأ موقفهم فى حرب تحرير الكويت كان أساسيا وعميقا ولا يمكن التغاضى عنه بسهولة، ومازالت آثاره تفرض نفسها على المنظمة، وليس توقيع اتفاق غزة أريحا آخر هذه الآثار.

العرب، والعرب الآخرون

بإجراء الاتفاق الإسرائيلى/ الفلسطينى لم يعد مبررا أن تحتل إسرائيل جزاء من لبنان أو جزءا من سوريا، فقد كانت القضية هى أن إسرائيل معتدية على شعب وأرض فلسطين وأن الإخوة العرب يساعدون أخاهم. ومادامت المنظمة قد اتفقت وأعطت وأخذت بالطريقة التى تناسبها فلم يعد مبررا إذن بقاء الجولان أو الجنوب اللبنانى فى أيد إسرائيلية.

المؤسف بالطبع أن (العرب الآخرين) - وهو تعبير غير دقيق وغامض - ملومون من قبل بعض ما كتب قريبا من قيادة المنظمة بأنهم السبب فى هذا (القليل) الذى أخذ، وأعتقد أن مثل هذه الاتهامات تابعة للتفكير الماضى وليس المستقبل، والنصيحة هى أن يكف البعض عن التلميح لذلك، لأن ما أخذ، أو أعطى هو نتيجة توازن قوى لم تلعب فيه السنوات الأخيرة إلا القليل وإنما كانت تراكماته تتزايد منذ عقود، وهى كما قلت تراكمات هيكلية، قاد إليها قصر النظر وحب (المغامرات) السياسية، التى تبناها قادة المنظمة.

ومن المؤسف أن هناك قوى وتيارات بدأت تنظر إلى التطورات الأخيرة فى الشرق الأوسط نظرة تلك الجماعات التى حشدت الجماهير منذ الخمسينيات فى اتجاه التحرير الكامل، ومرة أخرى دون حساب للثقل النوعى للقوى المختلفة

على أرض الواقع... البعض يعود ليتشبث بأهداف الأيديولوجيات القديمة فى أثواب أيديولوجيات جديدة، متناسين أن الاختلافات فى شئون الدولة والسياسة يحكمها الصواب والخطأ لا الكفر والإيمان، وتحددها القوة والضعف لا الآمال والأمانى، ويحاول هؤلاء من جديد استغلال عدم الوعى أو الوعى الخاطئ بإشاعة أطروحات وشعارات لا يختلف محتواها ومقاصدها عن شعارات السبعينيات والستينيات وإن تدثرت بعباءة أخرى.

والسؤال: هل من المحتم علينا أن نكرر أخطاء الماضى بصيغ جديدة وننتظر أربعة أو خمسة عقود أخرى لنكتشف القوى المؤثرة على أرض الواقع، ونستبدل من جديد طريق العلم والمعرفة وملاقاة التحدى الاقتصادى بتحد كلامى فضفاض وأطروحات عبثية جديدة؟.

الدور العربى المطلوب

لا أعتقد أن إسرائيل تطمح من وراء هذا الاتفاق إلى إرضاء الفلسطينيين. فقد أثبتت التجارب المريرة أنها قادرة على مواجهتهم بشراسة. ولكنها بالتأكيد تتطلع إلى منطقة الشرق الأوسط بأكملها وإلى عالمنا العربى الذى تحول إلى منطقة عالمية تتصارع فيها كل القوى... وهى تطمح إلى أن يكون هذا الاتفاق الغامض الهزيل هو حصان طروادة الذى تتسلل

بواسطته إلى أعماق البلاد العربية.

إنها تريد أن تؤكد تفوقها العسكرى بتفوق من نوع آخر هو التفوق الاقتصادى والتقنى.

وهنا يأتى الدور العربى الغائب.. فإذا كان الفلسطينيون مرغمين على توقيع هذا الاتفاق الذى يتيح لهم جزءا ضئيلا من الأرض، فإن الدول العربية غير مرغمة على تبادل الاعتراف مع إسرائيل إلا إذا تم هذا الاعتراف بشروط هذه الدولة (العربية) ووفقا لمصالحها.

أيا كان نوع الاتفاق القادم فإننا نريده أن ينهى الدموع والألم والعذابات الفلسطينية المتصلة منذ ضياع الأرض. ومهما كانت المواثيق - وهى غامضة - فلن تؤكد نفسها إلا على أرض الواقع ولن يصبح هذا الاتفاق ساريا إلا إذا نفذ الجانب الإنسانى منه وأن يتمتع فلسطينيو الداخل... وفلسطينيو غزة وأريحا بنفس الدرجة من الحرية والمساواة التى ترفع عن كاهلهم عبء الاحتلال الثقيل، وإلا إذا تم الاعتراف بأن الجولان وجنوب لبنان قطعتا أرض عربية، آن أوان عودتهما إلى وطنيهما.

إننا فى حاجة إلى الانتظار حتى يخرج إلينا زعيم فلسطينى - وليس مهما أن يكون ياسر عرفات - يتمتع بالأمانة والمصداقية كما فعل الزعيم الإفريقى نلسون مانديلا وهو

يدعو العالم إلى رفع المقاطعة عن جنوب إفريقيا. نريد نحن أيضا دعوة فلسطينية حقيقية تدعو الدول العربية إلى رفع المقاطعة عن إسرائيل وأن تكون الأسباب واضحة وجلية وليست بنفس حبر الاتفاق. وحتى هذه اللحظة فإن على البلاد العربية أن تواصل إغلاق حدودها فى وجه كل الأحصنة الخشبية ويكفى ما أضعناه من أوطان.

ربما كان علينا أن نتفاءل قليلا، ورغم أن ما حدث هو توقيع اليائسين... إلا أن هناك قدرا من التفاؤل يبدو عند حافة الأفق البعيد. فقد حصل الشعب الفلسطينى على جزء من أرضه. ولعل هذا يقلل كثيرا من اكتمال الحلم الإسرائيلى بالاستيلاء على كل فلسطين وإقامة دولة دينية يهودية مهيمنة على المنطقة العربية.

وربما يلعب العنصر الديمغرافى دوره وتعطى الجغرافيا ميزتها لأهلها الذين افتقدوا كل ميزة. ولعلنا نذكر قول بسمارك «إن واحدة من معطيات التاريخ تبقى ثابتة مهما تغيرت المعطيات الأخرى... هى الجغرافيا...». وهو أمر لا فضل لنا فيه ولا حيلة لإسرائيل فى مواجهته... فهى موجودة وسط محيط عربى، والفلسطينيون يتكاثرون، وإذا أحسنا استثمار هذه القوى البشرية واستوعبنا خبراتها المتراكمة من المنافى المختلفة فسوف تكون لدينا طاقة جبارة وقوة دافعة. إن

هذا الأمر سوف يفرض وجوده على أرض الواقع ويبقى عليهم معا ـ الفلسطينيين والإسرائيليين ـ أن يعيدوا البحث عن صيغ مشتركة للتعايش على ألا تكون بالضرورة مجحفة مثلما نشاهد فى هذه الأيام.

هل هى عودة إلى التفكير الصحيح ؟

كان من أبرز ملامح خطابنا السياسى الماضى هو وضع اللوم على (الصانع الغائب) وعادة ما يكون صانع إخفاقاتنا الغائب هو إسرائيل أو الغرب أو الاثنين مجتمعين. وكأننا أولا نريد أن نعادى الآخرين ولا ننتظر منهم أن يعاملونا بالمثل. لقد عكس الصراع العربى/ الإسرائيلى بين ١٩٤٧ و١٩٩٣ تاريخا من الإخفاقات، وكان معظمنا يبرر أسباب الإخفاق بمقاصد الغير السيئة ـ إلا فى فترته الأولى ـ عندما وضع السبب على عسف الأنظمة الجديدة والتى أطيح بها واحدا تلو الآخر دون أن تتخلص من شوائبها الأساسية حتى لو تغير البشر.

. العودة إلى الصحيح هو أن الشعارات القديمة لم تعد قادرة على أن تكون بؤرة للتحشيد والتضحية بالمصالح الحقيقية فى سبيل آمال لم تثبت صحتها. فلابد من التفكير بإطار قومى جديد يؤكد مصالح الأمة المفترض وجودها، هذه المصالح هى القاسم المشترك لمصالح الدولة وليست مصالح دولة أو عدة

دول، تحمل شعارات مضللة وتسلب مصالح الآخرين باسم هذه الشعارات. بالتأكيد المظلة العربية مطلوبة لأننا ببساطة فى هذا العالم من جهة نعيش عصر التكتلات والمصالح الجماعية، ومن جهة أخرى هناك آخرون خارج الإطار العربى يريدون أن يعظموا مصالحهم على فرقتنا. ولكن ما هى بالضبط مصالحنا المشتركة؟ بالتأكيد ليست المصالح هى تلك التى توقظ أحلام أو أوهام العودة مع كل خطاب يلقيه سياسى طامح ومع كل دبابة تقلب حكما مستقرا، ومع كل كارثة تحل بوطن مسالم. تلك مصالح مرضية وجب التخلص منها. المظلة العربية مطلوبة بعد تحديد دقيق لمفاهيم مثل التضامن العربى والأمن العربى، فى إطار ما يحفظ الكرامة والاستقرار والاستقلال لكل بلد عربى.

لقد تزامنت العقود الأربعة الأخيرة بشىء من التصرفات (الصبيانية) فى السياسة العربية وهى تصرفات وسلوكيات لن يفسح لها المجال فى المستقبل. بل من المطلوب أن تحل محلها علاقات عقلانية على مستوى الوطن وعلى مستوى العلاقات العربية البينية. والتفكير الصحيح على مستوى آخر هو القول إن التحدى الاقتصادى هو التحدى الصحيح. لقد اخترنا أعداء وهميين وخياليين وربما بعضهم حقيقى فى الماضى وحاربنا طواحين الهواء من منطلق عدم المعرفة

بالنفس، وبعد إنجاز اتفاقية السلام الإسرائيلية ـ الفلسطينية وعودة الجميع إلى أرض الواقعية بانسحاب إسرائيل من الجولان ومن جنوب لبنان، فإن التحدى الصحيح سيكون هو التحدى الاقتصادى وهو القوة التى تواجهنا وتدعونا إلى خوض المعركة، بعد أن انتهينا أو كدنا من تحديد الهوية وتحديد موقعنا الحضارى..

يتعين علينا جميعا أن نتساءل فى آخر المطاف ما إذا كان السلام الشامل المراد سوف يولد الثقة والتعاون أم أنه سيكون فقط إنهاء قسريا لحالة العداء، حيث إن السلام القادم لا يمكن مقارنته بما مضى، فالاتفاقات المصرية/ الإسرائيلية مثلا (وهى الأولى من نوعها) لم تغادر مرحلة فك العداء، إذ بقى التبادل التجارى مع الاستثمارات المتبادلة محددة بين البلدين، إلا أن وجود كيان فلسطينى مشارك فى المصالح والأرض والثروة مع إسرائيل مع التداخل المعروف فى المستوطنات سيحتم شكلا أو آخر من التعاون الاقتصادى. وإذا تذكرنا فقط أن الاقتصاد الإسرائيلى هو ضعف اقتصاد أكبر دولة عربية (مصر) وأن عدد سكان إسرائيل محدود نسبيا فسوف نتبين الإمكانات الكبيرة لإسرائيل بالنسبة لجيرانها، عدا بالطبع الإمكانات العلمية والتقنية، فى الوقت نفسه الذى أهدرت فيه إمكانات الاقتصاد العربى لعقود من

الزمن.

فى خطاباتنا السياسية السابقة تجاهلنا قوة العلم وأهمية التقنية وكانت القوة بالنسبة لبعضنا هى حناجر مدوية والعلم شعارات مطروحة. وواقع الأمر أن عصب التقدم الحديث هو العلم بكل أشكاله وجميع مجالاته، وما يرتبه على سلوك المواطن والوطن فى المجالات السياسية والثقافية والتقنية والاقتصادية فى الإطار الاقتصادى، ولم تتمكن إلا أنظمة عربية محدودة من تقديم إصلاحات بنيوية تهدف إلى إنعاش اقتصادى واجتماعى معقول، كما أن غالبية المحاولات العربية لإنشاء مجموعات اقتصادية إقليمية بمسميات مختلفة فشلت أو تعثرت بسبب الخلافات والنزاعات السياسية وليس الاحتياجات الاقتصادية. وبقيت معظم الاقتصاديات العربية مغلولة ومكبلة بقيود داخلية وحصار سياسى واستنزفت لأهداف بعيدة عن مصالح الشعوب.

لقد تغلبت السياسة على العلم، والأهواء على المصالح، والمطامح الفردية على مصالح المجموع فأنتجت وضعا لا تحسد عليه أى مجموعة بشرية حول العالم الذى نعيش فيه. فهل جاءنا زمان نتعظ من متغيراته؟ أرجو - مخلصا - ذلك.

١٦

زيارة لوطن الكلمة
لبنان.. الدرس العربي الباهظ الثمن

قضيت خمسة أيام فى لبنان، ولم أزر لبنان منذ خمسة عشر عاماً، وكنت أعرف لبنان ما قبل الحرب الأهلية التى تفجرت سنة ١٩٧٥، وكنت أتابع المأساة اللبنانية، كعربى، من بعيد. فقد كانت نار الحرب الأهلية اللبنانية لا تسمح لأحد بالاقتراب، ولبنان بالنسبة للبنانى هو كل الدنيا وبالنسبة للآخرين هو وطن صغير هناك عند ساحل البحر الأبيض المتوسط تكتنفه الصعوبات، وهى لست أكبر أو أصغر من صعوبات عديدة تكتنف العديد من الأوطان خاصة فى هذه الفترة الصعبة. لبنان بالنسبة لى ليس بالضرورة كما يراه اللبنانى وليس بالضرورة كما يراه الآخرون ولكنه منزلة بين المنزلتين.

قد لا يعرف الجيل العربى الجديد لبنان ولا الدور الثقافى والحضارى الذى قام به فى مرحلة بناء الدولة العربية بعد الحرب العالمية الأولى، قد يعرف صورة ممسوخة قدمت له هنا أو هناك بالتضخيم أو التبسيط، بينما لبنان للجيل العربى الوسط له تاريخ وصدى، وأحسب أن لبنان الجديد سوف يجدد ذلك التاريخ الايجابى والصدى الثقافى.

بعد خمسة عشر عاما من فراق لبنان عدت اليه من جديد ولم تكن الفترة التى أمضيتها فى ربوعه بكافية لإصدار حكم نهائى ولكنها بالتاكيد أوحت لى بمؤشرات استأذن القارىء

فى إشراكه معى فيها.

هناك العديد من الثوابت اللبنانية- التى كنت أعرفها- لم تعد حتى الآن ولكنها بقيت كما كنت، وهناك العديد من المظاهر الجديدة إنسانية وعمرانية، اجتماعية وسياسية أفرختها التغيرات التى مرت أو هى أفرخت نفسها إبان الحرب الأهلية. الثوابت والمتغيرات كثيرة ولا يمكن حصرها فى مقالة إلا أن العنصر الأساسى فى الثوابت اللبنانية أن هناك دائما مؤيدين ومعارضين، موافقين ورافضين لأى شىء ولكل شىء من مشروع إعمار وسط بيروت إلى السلام العربى الإسرائيلى، ومن السماح لدخول رءوس الأموال من الخارج إلى ثمن شطائر(السندوتش) التى تباع فى المحلات الصغيرة. المعارضة والاختلاف سمتان أساسيتان من سمات لبنان وستظلان كذلك، ومع الاختلاف اللبنانى تأتى إجادة تقديم الخدمات بكل الكلمات الطيبة والمعسولة التى يستقبلك بها اللبنانى فى المطعم والمتجر والبنك وفى البيت، هى سمة تجعلك تحتار وتتساءل:كيف حارب اللبنانيون بعضهم بعضا بالقنبلة والمدفع والرصاص وهم على ماهم عليه كأشخاص من دماثة الخلق ورقة الطباع؟

باختصار اللبنانيون يصعب تحليل سلوكياتهم، لذلك فإن الموضوع اللبنانى يبدو على السطح بسيطا وواضحا ولكنه فى

العمق معقد مثل كرة من الخيوط التى دخلها عندما دخلت كل طوائفه وشخصياته السياسية فى حرب أهلية، ولكنه وبرغم انتهاء الحرب لم يخرج بعد من المستشفى، إنه يتعافى وبسرعة ولكن محبيه - وأنا منهم - يخافون عليه من الانتكاسة أيضا سواء كان سببها داخليا أو خارجيا.

لا يستطيع عربى إلا أن يتعاطف بعمق وبعاطفة مع لبنان الانسان، فالانسان اللبنانى - وأنا هنا أتحدث عن الغالبية- قد طحنته الحرب الأهلية الضروس فشتت تجمعاته وهجرت رجاله وطحنت بالغلاء بعضا من فخره واعتزازه، وتستطيع أن تلحظ ذلك فى القرية اللبنانية الجنوبية وساكنيها، كما تلحظه فى الأحياء الفقيرة فى بيروت، وكذلك تشاهده فى هياكل الدمار التى مازالت ماثلة فيما كان يسمى بخطوط التماس بين القوات المتحاربة. مازالت هناك عائلات بأكملها تعيش فى عمارات بلامياه ولا كهرباء ولا حتى جدران أيضا، وما زالت الهجرات مستمرة أيضا بحثا عن مكان آمن فى بلد افتقد الأمان لمدة طويلة.

بجانب هذا المنظر الإنسانى، يبرز منظر اللبنانى الآخر وهو يشيد العمارات الشاهقة ويقيم الكبارى الممتدة ويستورد من الخارج أفضل أنواع المأكولات والمشروبات والملبوسات. وقد سألت أحدهم وهو شرح لى مواصفات البناء الجديدالذى

يتكون من عدة طوابق ومجموعة من المتاجر وناد اجتماعى وصحى حديث فى إحدى قرى الجبل السياحية:كيف قمتم بكل هذا فى السنوات القليلة الماضية؟وأجابنى وكأنه قد حفظ الإجابة ويعرف وقعها على غير اللبنانى:«لقد كنا نبنى والحرب الأهلية دائرة وعندما تهدأ نعود من جديد» أحد متعهدى البناء أشار إلى عدة عمارات متقابلة فى إحدى ضواحى بيروت الفاخرة وقال::«لقد كان على أن أدفع أجور العمال وأقدم لهم الأكل.عملواأو لم يعملوا . وحتى لا أخسرهم قررت أن أستضيفهم وعائلاتهم فى معسكر قريب من موقع البناء.

لقد كان على أن أدفع بأى شكل فقررت أن أدفع وأبنى أيضا»!!

مثل هذه القصص كثيرة إلى درجة أنها لا تصيب اللبنانى بأى دهشة كما تصيب الآخر حتى لو كان يعرف قدرة اللبنانى المطلقة على البناء.

لبنان الحرب والطائفية

منذ أن تكون لبنان الحديث وهناك عقدتان تحكمانه، عقدة الإحساس بالغبن لدى المسلمين، وهواجس الخوف لدى المسيحيين، وفى إبان حكم الجمهورية اللبنانية الأولى منذ الاستقلال حتى نهاية الحرب الأهلية سنة١٩٩٠ظلت هاتان العقدتان بارزتين فى ظل أوجه الصراع اللبنانى على كثرة ما

تبدلت الأوجه. لذلك كان العنصر الخارجي دائما حاضرا ومساندا لأحد الطرفين إما لتغليب فئة على الأخرى، أو تقليل نفوذ فئة لبنانية لحساب فئة أخرى، جيل الاستقلال هو فقط الذى استطاع أن يحافظ وبصعوبة بالغة على هذا التوازن لفترة ولكن سرعان ما انهار هذا التوازن تحت ضغوط الشد والجذب المحلى والإقليمى والدولى، ودفع اللبنانيون ـ معظم اللبنانيين ـ ثمنا فادحا من المال والأرواح واستقلال الوطن أيضا.

ومن المفارقات أن جيل الاستقلال اللبنانى فى محاولة منه لتخطى هاتين العقدتين معا(عقدة الخوف وعقدة الغبن) فقد ضمن وثائق الاستقلال اعترافه باعتماد النظام الطائفى منذ أوائل الأربعينيات على أنه (تدبير انتقالى محدود) وكان هذا الأمر يمثل ضرورة سياسية وقتها حتى يخرج لبنان المستقل إلى الوجود.

مهندسو الصيغة اللبنانية الأولى هذه كثيرا ما حذروا من المخاطر الملازمة لمثل هذه الصيغة التى اضطروا للاعتراف بها، إلا أن الطائفية السياسية فى لبنان تحولت من تدبير انتقالى محدود إلى ممارسة فعلية مؤثرة لدرجة أدخلت مفردات هذه الصيغة. نتيجة التنافس السياسى - إلى حلبة القوانين، وبلغت قمتها فى نص قانون الموظفين الصادر عام

١٩٥٩والذى كرس قانون التوزيع الطائفى للوظائف العامة. وهكذا تكرست الطائفية فى لبنان فى نصوص تشريعات عديدة ومنحت الطوائف اللبنانية بموجب هذه التشريعات صلاحيات واسعة لإدارة شئونها الداخلية ومؤسساتها. حقيقة الأمر أن ما حدث فى دولة الاستقلال هو تعزيز الطائفية فيما كان التصور الأصلى للآباء المؤسسين ان الزمن كفيل بإزالة هذه الظاهرة ليتحول لبنان المأمول من دولة للطوائف إلى دولة للجميع ولكن ترسيخ هده الظاهرة لم يتوقف عند التعددية فى المراجع السياسية فقط، وإنما امتد ليصبح تعددية فى المراجع الروحية أيضا.

ليس بالإمكان سرد العوامل الكثيرة التى أدخلت لبنان فى حرب أهلية يسميها كل اللبنانيين اليوم بأنها كانت حربا قذرة بكل معنى الكلمة، وليس فى الإمكان أيضا تبرئة العناصر الكامنة فى صميم الصيغة اللبنانية والتى ساعدت على هذا التفجير جنبا إلى جنب مع المصالح الخارجية التى أرادت ان تجعل من لبنان ساحة صراع لقوى وأيديولوجيات يراد اختبارها فى الشرق الأوسط. ومهما تعددت العوامل فقد كانت الساحة مهيأة، فكلما اهتزت منطقة الشرق الأوسط بحدث كبير كان لابد أن يسمع صدى هذا الحدث فى لبنان. لقد نأى اللبنانيون بالدولة اللبنانية من دخول حروب العرب مع

إســرائيل فـى سنوات١٩٥٦، ١٩٦٧، ١٩٧٣، فكسـبـوا الدولة مؤقتا ولكنهم خسروا الوطن بعد ذلك فى حرب أهلية استمرت منذ ١٩٧٥ إلى ١٩٩٠ لأن اللبنانى ببساطةلا يستطيع أن ينزع نفسـه عن الحديث فى السياسـة، فـهو كـمـا يقال كـان قـبل الحـرب الأهليـة يتـحـدث فـى السـيـاسـة ست سـاعـات ويعـمل ساعتين فقط فى اليوم، هذا إذا كان له عمل، أما إذا لم يكن له عمل فـإنه يتحدث فى السياسة ست عشرة ساعة وينام ثمانى ساعات.

هذا المناخ اللبنانى على ضوء الترتيب الطائفى الذى يفر ض على المواطن ان يفـصـح عن هويتـه الطائفـيـة جبـراً وبموافـقـة القـوانين - إن لم يكن عن رضـا- سـمـح للبـعض باسـتـغـلال المشاعر الدينية لأهداف سياسية ضيقة فى مـجـتمع بدا أقل ترابطا نتيجة تبـاين الحـقـوق السـيـاسـيـة والاجـتـمـاعـيـة مما أضـعـف الشـعـور بالتضامن الوطنى وولد إحباطا وكبتا دائمين فى قلة تكافؤ الفرص وتحديد أنصبة مسبقـة للطوائف تحت ظل سقوف جامدة، وانقسم هذا المجتمع - مادامت الطائفة هى الأسـاس - إلى سـبع عشـرة طائفة مـعـترفـا بهـا قـانونا، ومن المصـادفـات المرعبة أن عمر الحرب الأهلية اللبنانية هو أيضـا سبع عشرة سنة..!!

والطائفية فى لبنان فى مرحلةاستقرارها أو صراعها تنبش

دائما عن تحالفات إقليمية ودولية تتلاءم مع مصالحها، وبالتالى إن كان هناك صراع فلأن هناك حليفا آخر للدعم السياسى وفى نطاق واسع.

وقد كانت شكوى كل الطوائف من الطائفية علنية. والكل يلعنها والكل يتمسك بها حتى جاء اليوم الأغبر واشتعلت شرارات الحرب فتحولت الطائفية إلى سيوف ماضية يطعن بها كل صديق صديقه اللدود.

..فى يوم الثالث عشر من أبريل ١٩٧٥ تعاقبت فى صبيحة واحدة من يوم الأحد وفى حى سكنى واحد هو «عين الرمانة» بضاحية بيروت الجنوبية سلسلة معقدة من الأحداث قتل فيها مقاتل مسيحى وحوالى عشرين راكبا فلسطينيا كانوا يمرون - بالمصادفة - على مقربة من المكان الذى قتل فيه المقاتل المسيحى قبل ساعات، ومنذ ذلك الحادث كرت مسبحة الحرب الأهلية متقطعة تاره أخرى، وتبدلت فيها التحالفات أكثر من مرة فدخلها الحلفاء معا، ثم دخلوها ضد بعضهم بعضا، ثم تحالفوا وتفرقوا وتصالحوا وتقاتلوا فى حروب صغيرة، ولكنها لا تتوقف. وشهدت ممارسات هذه الحرب أبشع ما يمكن أن يوقعه الإنسان على الإنسان، وأكلت الحرب جيل الوسط من السياسيين اللبنانيين فلم توفرهم ولم تحفظهم من أن يكونوا حطبا لها.

وسيكون من المبكر كتابة تحليل كامل لهذه الحرب:مسبباتها ونتائجها إلا أن العديد من اللبنانيين من كتاب ومفكرين يكادون أن يُجمعوا اليوم على عبثية هذه الحرب التى خرج الجميع منها مغلوبين.

نتائج حروب الدمار ظاهرة فى لبنان، وهى ليست فقط على الجدران وهياكل البنايات المحروقة، بل فى داخل صميم الإنسان نفسه، داخل أنسجة اللبنانى الذى صمد فى مراحل هذه الحرب ولاحقه الرصاص، ولدى اللبنانى الذى هاجر من وطنه قسرا إلى بقاع أخرى من العالم، هذا الإنسان الذى لا يريد الآن أن يتذكر أهوال هذه الحرب بل إن هناك جيلا شابا يتحسر على سبع عشرة سنة من حياته ولا يعرف كيف مرت عليه. ويتسابق الكتاب والمفكرون اللبنانيون على نقد المرحلة برمتها وعلى الإشارة إلى (أمراء الحرب) بشكل سلبى يكاد يصل إلى حد الذم فيهم، وقد قال أحد المثقفين اللبنانيين:«يبدو أنه فى لبنان لا يوجد الأقوى فعندما أطلق بيار جميل زعيم حزب الكتائب فى بداية الحرب الأهلية شعاره «لتقم الحرب وليربح الأقوى» كان يعتقد أن هناك من يمكن أن يكون الأقوى فى لبنان، والمطلق، والصيغة اللبنانية تجعل مثل هذا التصور فى حكم المستحيل.

الجمهورية الثانية

يرى أغلب البنانيين أن التركيبة السياسية التى توصل اليها زعماء لبنان بعد مؤتمر الطائف فى ١٩٨٩ والتى على أساسها أنهيت الحرب الأهلية اللبنانية كانت بداية الجمهورية الثانية بعد أن سقطت تركيبة الجمهورية الأولى فى أوحال الحرب الأهلية، وتجد بين المثقفين والسياسيين اللبنانيين من ينتقد توليفة اتفاق الطائف، ونجد بينهم القابل بها كمرحلة فى سبيل دولة أخرى شبه موحدة. ولقد غيرت اتفاقية الطائف فى المعادلة السياسية اللبنانية، وأدخلت على أثرها مجموعة من الإصلاحات على الدستور اللبنانى ووسعت من قاعدة التمثيل السياسى فى البرلمان كما وازنت بين الطائفتين الكبيرتين:المسلمين والمسيحين.

وقد قادت هذه الإصلاحات التى أحدثتها صيغة الطائف ـ والتى توصل اليها اللبنانيون بمساعدة عربية تمثلت فى ثقل المملكة العربية السعودية وسوريا بشكل أساسى ودعم دولى ـ إلى أولويات عمل جديدة فى الجمهورية الثانية، وتبدلت صيغة الرأس الواحد الذى يصدر الأحكام وهو غير مسئول أمام أيه مؤسسة دستورية. وهى الصيغة التى عاشتها لبنان حتى اتفاق الطائف ـ تبدلت إلى مسئولية كاملة بين الرؤساء الثلاثة:رئيس الجمهورية، رئيس الوزراء، رئيس مجلس

النواب، وهى الصيغة التى يطلق عليهااللبنانيون «الترويكا» مع ميل واضح لدور رئيس الوزراء الذى لا يعين إلا بعد الاتفاق مع أعضاء مجلس النواب.

المراقب المحايد، الباحث فى الأدبيات السياسية اللبنانية، بعد الطائف، يلاحظ أن هناك إنجازات حقيقية، فقد انفتحت المناطق اللبنانية على بعضها البعض انفتاحا كاملا، وتستطيع اليوم أن تسير فى لبنان من أقصاه إلى أقصاه دون أن يوقفك أحد أو يدقق فى أوراقك، اللهم الا فى مناطق الجنوب. أما المناطق الأخرى فيكفى أن تخفف سيرك ليشير إليك من بالحاجز بالمرور. بجانب ذلك فإن النشاط الاقصادى فى لبنان يستعيد قدرته، ويعود ذلك إلى سببين:الأول هو حيوية اللبنانيين أنفسهم والثانى هو عون الدول الصديقة والعربية على وجه الخصوص فى معاناة لبنان. يلاحظ القادم إلى بيروت أن النشاط فى المطار بدأ يدب ولو على استحياء، إلا أن النشاط فى شوراع بيروت فى شق الأنفاق والطرق السريعة وصولا إلى القرية الصغيرة يدل على أنها ورشة عمل. ومن يطلع على الخطة العشرية التى أطلقتها الحكومة اللبنانية سنة ١٩٩٣كى تتحقق سنة ٢٠٠٢ لابد أن يوقن بالعزم على تحقيق نهوض اقتصادى اجتماعى للبنان جديد، ومع ذلك فإن الأشجان اللبنانية عديدة ومتشعبة:منها ماهو خاص

بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لمعظم اللبنانيين ومنها ما له علاقة باحتمالات السلام مع إسرائيل ومساراتها القادمة.

الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية

الحزن الذى رافق وحرك الإنسان فى كل حروبه - على مر التاريخ - كان ولا يزال الجانب الآخر للشخصية اللبنانية، فلقد شعرت بحزن دفين فى عيون أصدقائى اللبنانيين مهما بدا على وجوههم من ابتسام، هذا الحزن هو فى جزء منه حسرة على الماضى وقلق على المستقبل، فأمراء الحرب - أو بعضهم على الأقل - بعد أن خاضوا الحروب المتعاقبة وصلوا إلى النادى السياسى اللبنانى، بعضهم تعلم لغة المرحلة الجديدة وأجاد التحدث بمفرداتها وبعضهم لا يزال يحن إلى مرحلة(الميليشيات) والسلطة المطلقة حتى لو كانت تفرض سيطرتها على حى صغير. ومن فقد المجد من هؤلاء الأمراء يحن إلى الأزمنة الشاذة السابقة، فالغياب الطويل لسلطة القانون قد سهل للبعض انتهاكه. هذا البعض سواء كان متسببا فى الحرب الأهلية أو عمل على ملء الفراغ الناجم عن غياب سلطة الدولة تعلم لغة وممارسة تمت صياغتها فى قاموس الميليشيات وما زال له حنين فى العودة إليها بل ممارستها بأشكال أخرى.

التحدى الذى يواجهونه الآن هو ان يصبح لبنان الحرب

الأهلية هو لبنان التعايش والتنمية، وهو تحد ليس من السهل قبوله لدى بعض المنتفعين بنيران الفرقة. إن النادى السياسى الذى تشكل بعد الطائف من وجوه جديدة ووجوه قديمة لايزال بعضها يمارس السياسة اللبنانية من زاوية الحصول على كل شىء الأمر الذى جربوه إبان الحرب الأهلية فخسروه بقوة السلاح ويريدون ربحه بواسطة بلاغة الحنجرة السياسية. والملاحظة التى قد تصدم الزائر إلى لبنان أنه لم يبق من الأحزاب اللبنانية القديمة شىء تقريبا فقد احالت الحرب الأهليةالأشكال القديمة من الأحزاب اللبنانية إلى التقاعد وبعضها شيع بالفعل إلى القبر. ولقد كان الشكل التقليدى للأحزاب اللبنانية هو التحزب لزعيم أوعائلة واستولدت الطائفة الواحدة فى لبنان حزبا أو أكثر حتى قارب عدد الأحزاب اللبنانية السبعين حزبا أو اكثر. قلبت الحرب معظم الأحزاب تلك إلى مليشيات أو(مقاومات) وعرت بذلك القشور الهشة عن الطبيعة العسكرية لهذه الأحزاب التى لم يعد لها هدف سوى إرضاء الزعماء الجدد الذين ثبتوا زعامتهم فى أيام الحرب على ما تبقى من تلك الأحزاب.

لقد بدلت الحرب البيئة اللبنانية القديمة وأصبح الرهان بعد الطائف هو: هل هناك مكان تشغله الأحزاب فى العمل السياسى اللبنانى القادم أم أن هناك جيلا من اللبنانيين

يمكن أن يمارسوا السياسة بلا أحزاب، أو على الأقل دون الأحزاب التقليدية السابقة. ففى زمن الحرب الأهلية تأجلت وتبددت كثير من القيم التى كانت تسود المجتمع اللبنانى وحلت بدلا منها قيم (المليشيات) القائمة على .. اضرب واخطف واهرب.قيم هى أعراض من سعار الحرب الذى لف فى أتونه كل طبقات المجتمع وأصبحت المشكلة الآن هى كيفية الخروج من قيم الحرب إلى قيم الاستقرار. فهناك تركة مثقلة من المخاوف والقلق والتوتر فى نفوس الشباب اللبنانى وتكفينا دلالة على هذه الحالة تلك المسابقة التى عقدت لكتابة القصة القصيرة عند الشباب ووجد أن التيمات والأجواء الغالبة فى هذه القصص هى الموت والقلق والافتقاد والرغبة فى الهجرة.

فى الأجواء التى أعقبت الحرب برزت قضيتان مستجدتان تبدوان متناقضتين، الأولى هى الوضع المعيشى العام الذى يواجه صعوبات تنذر بالخطر. فرجل كالدكتور سليم الخص الاقتصادى الموثوق يرى أن هناك أجواء من الثقة المتجددة فى المعطيات الاقتصادية اللبنانية ومظاهرها ارتفاع معدلات الإنتاج والإيرادات الجمركية وانخفاض عجز الخزانه وارتفاع نسبى فى الحد الأدنى للأجور وغيرها من مظاهر التعافى الاقتصادى، فى الوقت الذى تتوافر فيه تقارير تقول إن

الغالبية من اللبنانيين ما زالوا يواجهون شظف العيش، فهناك دراســـة تقـــول إن ثلاثين فى المائة من السكان فى لبنان يعيشون تحت خط الفقر، كما تتفاقم ظاهرتا البطالة فى المدن والهجرة من الريف إلى المدينة أو هجرة الشباب إلى الخارج عندما يواجهون فترات طويلة من التبطل.

الظاهرتان تعيشان جنبا الى جنب.قلة ميسورة فى إطار اقتصاد خدمى نشط وأغلبية معوزة، كما أن نسبة الأمية بين الشباب آخذة فى التفاقم فقد كانت نسبتها قبل الحرب ١٢٪فارتفعت بعدها لتصبح ٣٤٪ بمن فيهم من تركوا التعليم وهم فى سن الثامنة. والمتفائلون فى لبنان يؤكدون أن الأمور تسير فى شكل أفضل والمتشائمون يرفعون عقيرتهم بصياح الشكوى، كأنه مشهد من المسرحية التى تشهدها بيروت الآن بعنوان (ابتسم أنت لبنانى)وخرجت منها بانطباع ان اسمها كان يجب أن يكون (ابك أنت لبنانى)وبين التفاؤل والتشاؤم يظل لبنان حيزا جغرافيا مليئا بالحيوية.

التسوية والتوطين

حقيقة الأمر أن المجتمع اللبنانى اليوم على مفترق طرق، فلبنان الواقع لا يستطيع أن يخرج مما ارتضاه اللبنانيون لفترة طويلة سابقة وهو التعايش الحرج بين طوائفه، كما أنه على مفترق طرق فى المدى القصير حيث الحديث جار عن

انتخابات رئيس جمهورية- قديم أو جديد ـ لا تتعدى مدته أكتوبر سنة ١٩٩٥وأمام هذين المطلبين الملحين تبدو المعضلة الرئيسية فى مواجهة عملية السلام فى الشرق الأوسط، ففى إطار متاهات السلام السورى/ اللبنانى/ الإسرائيلى، سوف تترتب أوضاع البيت اللبنانى فى المدى الطويل بطريقه مختلفة وجديدة.

لقد كانت مدينة بيروت كلها ترتجف تحت وطأة العسكر وهدير ناقلات الجنود عندما اتخذت الخطوات الأولى نحو سلام مع إسرائيل خلال اتفاقية كامب ديفيد وما تلاها ، وقد اشتد هدير الدبابات واصوات المدافع فى لبنان فى سباق مع مداخل السلام العربية/ الإسرائيلية، وكان فصل الاجتياح الإسرائيلى للبنان سنة ١٩٨٢أحد الفصول الدامية والحزينه فى طريق ما عرف بالسلام بعد بذلك.

واليوم يقف اللبنانيون أمام التسوية السلمية والتطبيع وهم يحملون هماً آخر هو توطين الفلسطينيين فى لبنان. هذه القضايا تشغل بال السياسة اللبنانية والشارع اللبنانى. وكعهد اللبنانيين يواجهونها بالانقسام فى الاجتهادات العلنية، وفى الموافقة والاختلاف مع الأطراف الخارجية. إلا أن أحد الدروس فى هذه القضية والتى يبدو أن لبنان الدولة على الأقل قد استوعبها هو أن لا حل بالاعتماد على قوة أجنبية،

فلقد خابت ـ فى رأى المحللين اللبنانيين الثقات ـ مراهنة طائفة من اللبنانيين على الولايات المتحدة منذ كميل شمعون إلى أمين الجميل . والعلاقة مع الولايات يرى العقلاء أن تكون متوازنه، وينقل عن الرئيس صائب سلام فى هذا الصدد قوله:«إنه من غير الممكن لأى مسئول فى العالم أن يسقط ما تريده واشنطن من حساباته السياسية، ولكن من الصعب جدا الاتكال على واشنطن فى حل المشاكل الصعبة التى تعانيها بلاده» ولعل هذا القول الذى نقله الكاتب اللبنانى باسم الجسر يؤطر صعوبات لبنان السياسية تجاه التسوية المرتقبة.

وقد صك اللبنانيون فى علاقتهم بأمريكا شعارا سموه «الوعود والتخلى» كناية عن الوعود العديدة التى تقدمها واشنطن ثم تتخلى عنها. وتحظى المسألة اللبنانية فى الواقع باهتمام من واشنطن ولكنها فى الشكل تبدو ثانويه وهى حيرة يقف أمامها اللبنانيون بكل اجتهاداتهم موقف التساؤل. ومن المفارقات اللبنانية أن الجبهة اللبنانية- الإسرائيلية التى ظلت باردة إبان حروب العرب مع إسرائيل هى التى أصيبت بالسخونة لفترة أطول من أية جبهة أخرى. ويشير اللبنانيون إلى السلام الآتى على أنه شر لا مفر منه، بعضهم يتخوف على دور لبنان الاقتصادى والعربى والعالمى وبعضهم يرى أن

هناك العديد من عناصر الدور اللبنانى لا تستطيع دولة أخرى أن تأخذها منه، ومتى ما استقر السلام فإن لبنان مرشح إلى أن يعود لدور أفضل على الإطلاق من أى دور لعبه فى الماضى. تجربة بعض الدول العربية- حتى فى السلام مع إسرائيل لا تشجع الكثيرين على توقع نمو اقتصادى خارق للعادة أو حتى معقول. فالدول العربية التى وقعت السلام لم تستفد - حتى اللحظة - بأداء دور اقتصادى عالمى، ولن يكون لبنان استثناء من ذلك إنما يراهن البعض على أن ديناميكية اللبنانيين أنفسهم وموقع بلادهم وطبيعتها قد تجعل من لبنان - إن صح العزم - أفضل مكان اقتصادى يستفيد من السلام الا أن النقاش دائر بين الموافق المعارض والمنتظر.

وتبقى قضيتان هما: التطبيع والتوطين، والأولى أكثر سخونة من الثانية. وهناك تيار واسع لأسباب متعددة يرفض التطبيع مع إسرائيل، أما التوطين فإنه هاجس الدوائر المسئولة ولكنه ليس مطروحا للنقاش بنفس الدرجة من الحدة على الساحتين الفكرية والإعلامية.

دروس العرب من تجربة لبنان

فى لقاء تأخر طويلا مع الكاتب والمفكراللبنانى معن بشور دار الحديث حول تجربة لبنان والدروس العربية فيها قال لى: «لقد عدت تواً من زيارة قصيرة الى الرياض لحضور

مهرجان الجنادرية الثقافى السنوى، وقد كانت هذه زيارتى الأولى.

يضيف معن:إننى على قناعة الآن أن أفضل أنواع التغيير هو التغييرالبطىء لأنه ثابت ومستقر، ولقد نادينا نحن المصلحين بل كل «الثوريين»العرب بالتغيير السريع فى الخمسينات والستينيات فلم نحصد سوى الريح. ولقد كانت نتائج الحرب الأهلية اللبنانية خير دليل يؤكد أهمية التغييرالبطىء المركب.

وعندما نعود لنستخلص دروسا عربية من المأساة اللبنانية فاننا نجد أن لبنان لم يكن أكثر من مختبر لإنتاج جراثيم التمزق الطائفى المذهبى ولتصديرها إلى الجسم العربى، ولم يكن هذا الجسم فى بعض أجزائه محصنا فانفلت شيطان (الحرب الأهلية) البشع فى أنحاء متعددة من هذا الجسم، بأسماء وشعارات مختلفة ولكن بنفس الآلية، وبنفس الأسباب. وإن كان ثمة دروس نستقيها من تجربة لبنان الدامية فهى سبعة:

الأول:احترام التنوع وحق الآخرفى القول والتعبير فى إطار الواحد، فالتنوع موجود فى كل بلادنا العربية ويمكن أن يكون مصدر إثراء وانفتاح حضارى إن تمت صياغته بشكل ديمقراطى سليم لأن تجاهل هذا التنوع ومحاولة إلغائه أو

القفز عليه يقود حتماً إلى حرب أهلية تبدأ كلامية ثم تنتهى بالسلاح.

الثانى:موازنه العلاقات بين الداخل والخارج لقد كشفت الحرب الأهلية خطأ تصور الأوضاع اللبنانية بعيدا عن محيطها وخروجاعن علاقات متوازنة مع دول الجوار.

الثالث:لقد أظهرت تجربة لبنان بشكل قطعى وواضح أن لا رابح فى الحرب الأهلية، فكل الأطراف خاسرة والخاسر الأكبر هو الوطن. بل أظهرت الحرب أنها تبدأ بصراع بين متناقضين وتنتهى بصراع أكثر شراسة بين متنافسين من الجماعة الواحدة، فهى تلتهم نفسها بنفسها.

الرابع:لا يوجد شىء اسمه حسم عسكرى فى معالجة الحروب الداخلية فالحسم وإن تم فهو مؤقت لأنه يبذر فى التربة الوطنية بذور حرب أخرى.

الخامس:لقد أظهرت الحرب اللبنانية أن الحروب الأهلية هى صراع على الهوية، وكشفت بعمق أن الحروب الأهلية تبدأ فى ميادين الثقافة والتربية والإعلام قبل أن تبدأ فى الميدان العسكرى. إن المتاريس الثقافية والتربوية والإعلامية توضع قبل المتاريس العسكرية، وثقافة الفتنة تولد قبل أن تولدالفتنة ذاتها . فالرؤية الأحادية للهوية كثيرا ما تنطلق من جهل لتقود إلى جهل أشنع.

السادس:الحروب الأهلية تولد آلياتها، فقد توقع الجميع أن تنتهى حرب لبنان الأهلية بعد عام أو عامين ولكنها امتدت إلى سبعة عشر عاما وأصبح استمرار هذه الحرب مع الوقت هو الثابت الوحيد، فإشعال حرب أهلية قد يكون سهلا نسبيا أما وقفها فإنه شبه مستحيل.

السابع:الدولة القطرية العربية تحتاج إلى تعزيز واحترام من داخلها ومن خارجها، فالتوازن بين الدولة والمجتمع مع الجوار يعزز التعاون دون تعال أو أطماع

تلك هى دروس الحرب اللبنانية..وما علينا حتى نستفيد منها فى أقطارنا العربية إلا المرور على لبنان، قبل أن تندمل جراح هذه الحرب. لعل هذا الجرح الذى نزف طويلا يفيدنا فى تطبيب عشرات الجروح العربية التى تقرحت .

١٧

المعلوماتية العربية

ننظر من حولنا فنرى أننا نعيش عصر المعلوماتية، لقد وصفت عصور تاريخية للإنسانية بأوصاف مختلفة كعصر الحديد أو عصر البخار أو حتى عصر الذرة، ولكننا نعيش فى ربع القرن الأخير على الأقل عصرا عالميا جديدا هو عصر المعلومات.

والمعلومات هى العلم بالشىء أو معرفته، إلا أن الاستفادة من هذه المعرفة وتطويعها للارتقاء بالحياة، هى نتيجة تسبقها خطوات أخرى أهم وأعظم هى تنظيم المعلومات، وللأخيرة طرق ومناهج ومؤسسات لا يمكن الاستغناء عنها أو تخطيها إن أردنا أن نصل إلى النتائج المرجوة من استخدام المعلومات.

لقد توصلت الإنسانية بعد شقاق طويل إلى حقيقة أن ما تستطيع أن تحققه بالقوة تستطيع أن تحقق أفضل منه بالمعرفة.

ونحن على مشارف نهاية القرن العشرين تتحقق هذه المقولة أكثر وأكثر، خذ بلدين على سبيل المثال هما ألمانيا واليابان اللذان خاضا حربا شعواء، كان هدفهما أن يحكما العالم بالقوة وفشلت القوة فى تحقيق هذا المشروع الضخم، وبالمعرفة والعلم والصناعة والاقتصاد يكاد هذان البلدان أن يتحكما - إن أردنا ألا نستخدم تعبير يحكمان - فى العالم، فهذا هو المارك الألمانى يضرب أخواته من عملات النقد

الأوروبى فيقرر هو لا غيره مستوى أسعارها، وكذلك الين اليابانى ومن خلفه الصناعة والمعرفة اليابانية.

وتحقق المعرفة من جديد اتحاد أوروبا الغربية دون دماء وبلا مقابل فى الوقت الذى فشلت فيه فى عصر آخر كل وسائل القوة فى تحقيق ذلك. المعرفة هنا قادت إلى تحديد المصالح المشتركة، والمصالح المشتركة قادت إلى شىء من الوحدة، أو هى فى طريقها الأكيد إلى ذلك

وتتعدد الأمثلة على مساحة الأرض المعروفة، ويستبدل العالم المتحضر بالسلاح الحوار معتمدا على المعرفة والمعلومات. المعرفة قادت مجتمعات أخرى إلى استصلاح أراض لم تكن صالحة للزراعة فزرعتها وأطعمت أفواها جائعة، والمعرفة استنبطت أدوية لأمراض مستعصية فوضعتها فى طريق الشفاء، بل إن المعرفة خلصت الإنسانية من أنواع من الأمراض كانت تحصد البشر فلا تبقى ولا تذر.

المعرفة فى الغرب

المعرفة فى الغرب عملية منظمة زادتها المنتجات الحديثة تنظيما وسهولة فى الحفظ والاسترجاع، فلا يوجد كتاب أو كتيب أو نشرة تصدر فى بلد غربى إلا وكان لها رقم مسلسل ومكان تحفظ فيه فى المكتبة ومرجع سنوى تظهر فيه مصنفة حسب موضوعها، وتتعدد هذه الموضوعات حتى تصل إلى أصغر موضوع.

وعندما يريد الباحث أن يرجع إلى معلومات ظهرت فى أى من هذه المطبوعات يستطيع أن يرجع إليها بسهولة ويسر، وكذلك ما تصدره الصحف والمجلات على كثرتها وتشعب تخصصاتها. وفى إطار المعلومات المسموعة والمرئية نجد التنظيم الدقيق نفسه، فإن احتجت أنت إلى صورة معينة لمعركة حربية أو تعثر رئيس وهو ينزل من على سلم طائرة أو أى لقطة ظهرت فى التلفاز أمامك، فإن الحصول عليها عملية سهلة تبدأ بإرسال خطاب صغير تحدد فيه المعلومة التى تريد وتنتهى بحصولك على هذه المعلومات فى البريد، بعضها مدفوع الثمن وبعضها دون ثمن.

وسهّل الإنسان حفظ واسترجاع المعلومة، والتى عندما تتراكم تصبح معرفة، سهلها بوجود الآلات الإلكترونية والتى نسميها الكمبيوتر، فأنت تستطيع أن تخزن عشرات الآلاف من المعلومات فى حيز ضيق وتعيد استرجاعها فى وقت قصير، بل لقد أصبحت صناعة المعلومات هذه (التخزين والاسترجاع) صناعة قائمة بذاتها، فأنت تستطيع أن تحصل على اسطوانة فى حجم الكف محفوظ عليها موسوعة كاملة، وإذا أدخلتها فى الكمبيوتر وطلبت الفهرس وانتقيت منه ما تريدوبمجرد ضغطه واحدة على زر تخرج لك تلك المعلومات التى تريدها جاهزة ومطبوعة وحديثة أيضا.

حتى بدون هذه الأسطوانة صار ممكنا الحصول على هذه

المعلومات سواء كانت نصوصا أو صورا أو رسوما، فعلى سبيل المثال صار باستطاعة سكرتير تحرير مجلة ما أن يضغط على عدة أزرار فتأتيه على شاشة الكمبيوتر الشخصى المتصل بوكالات الأنباء المصورة عبر شبكة الهواتف الرقمية، وخلال ثوان قليلة، صور عديدة للموضوع الذى يريد نشره، وما عليه إلا أن يفاضل بينها ليختار ما يناسب العدد المراد إخراجه، كل ذلك دون أن يغادر سكرتير التحرير مقعده، حتى ربة المنزل صار بإمكانها أن تحصل على ما تريده من معلومات دون أن تغادر عتبة بيتها، فثمة جهاز يتيح الحصول فى المنزل على إجابات لأسئلة يتم إلقاؤها تليفونيا فتأتى الردود على شكل نصوص مكتوبة مرسلة من بنوك المعلومات، وتبث بواسطة الألياف البصرية لتظهر على شاشة التليفزيون التقليدية بالمنزل.

ديمقراطية المعرفة فى الغرب

وإذا كانت السمة السياسية البارزة للمجتمعات الغربية هى الديمقراطية التى تتجلى بأوضح معانيها فى الاستجابة لضرورات الاختيار وموجبات المشاركة، فإن المعرفة فى الغرب تأخذ هذا الطابع أيضا، فثورة المعلومات التى قامت على قاعدة استخدام أجهزة الكمبيوتر ارتبطت بتقنية نقل المعلومات منذ تفجراتها الأولى. وإذا كان عام ١٩٤٠ يسجل لاكتشاف «السيبرنطيقا» بواسطة العالم الأمريكى «توربير فيز» وهى علم

دراسة ميكانيكيات الاتصال والسيطرة ليس فقط بالنسبة للآلات وإنما أيضا بالنسبة للمجتمعات الإنسانية. وإذا كانت «السيبرنطيقا» هى المدخل إلى نظم تقنية المعلومات أى علم المعالجة العقلانية - بآلة أوتوماتيكية - خصوصا للمعلومات التى تعتبر دعامة للمعارف، ومن ثم فهى تتعلق بعملية تشغيل الآلات الحاسبة ومجموعة المعالجات التى ترتبط بها، فإنه فى ذلك العام نفسه ١٩٤٠ تحققت أول تجربة لنقل المعلومات من كمبيوتر إلى مكان بعيد، فقد نجحت معامل «بيل» العلمية فى هذا النقل من كمبيوتر فى نيويورك إلى نهاية مركبة فى كلية «دار تموث» فى «نيوهامبشير». وكانت هذه هى الخطوة الأولى لنجاح الاستغلال الأوتوماتى لأنظمة نقل المعلومات التى تستخدم شبكات المواصلات السلكية واللاسكية، والتى تجعل من المعرفة حقلا متاحا للنهل منه تبعا لتنظيم دقيق يشبه الأنظمة الديمقراطية التى ترعرع فى بيئتها هذا الشكل المعرفى.

ومع التطور الهائل الذى يلحق بنظم الاتصال متمثلة فى الهاتف سواء كان السلكى أو اللاسلكى صارت قنوات تبادل المعلومات مفتوحة على مصاريعها متمثلة فى نقل المعلومات المخزنة فى قاعدة مركزية وعرضها على الشاشات الطرفية، وهى ما يعرف بالمعطيات المنظورة View Data، كما أن نقل المعلومات من كمبيوتر إلى كمبيوتر صار ميسورا عبر أجهزة

«المـودم» Modem التى تحول العلامات الرقمية المخزنة فى كـمـبـيـوترها إلى شكل يمكن نقله بالـهـاتف (السلكى أو اللاسلكى) إلى كمبيوتر آخر يتحول عنده هذا الشكل إلى علامات رقمية من جديد تختزنها ذاكرة الكمبيوتر المنقول إليه المعلومات وتعرضها شاشته.

والمعرفة عندنا

بيت القصيد أن المعرفة عندنا متأخرة وغير منظمة، والأسوأ من ذلك أن ليس لها بين اهتماماتنا أولوية، فهى آخر ما نهتم به بعد أن نتحدث عن السياسة والاجتماع والبيئة والاقتصاد، قد نتحدث عن المعرفة وقد نتجاهلها، وليس لأنها غير ذات بال، بل لجهلنا العظيم بأهميتها خذ مثلا: كم من الكتب تصدر فى العام فى بلادنا العربية فى المغرب وتونس والجزائر ومصر وليبيا واليمن والمملكة العربية السعودية وكل البلاد العربية ؟ هل هى بالآلاف أم بعشرات الآلاف؟، لا أحد يعرف على وجه الدقة، ليس عددها فقط ولكن حتى موضوعاتها، أما الأسوأ من ذلك فهو أن البحوث العلمية والأدبية وحتى مشروعات بحوث الدكتوراه لا يعرف جامعى فى بلد عربى ما تقدم به جامعى فى بلد عربى آخر فى نفس الموضوع . بل أتجاوز ذلك فأقول ما لا تعرفه جامعة عن بحوث جامعة أخرى فى نفس البلد.

ومن المفارقات الغريبة أن طبيبا عربيا يريد تسجيل موضوع

لدراسة الدكتوراه على سبيل المثال، يمكنه أن يعرف أين، ومتى وأى الجوانب من موضوع بحثه تم تسجيله فى كليات الطب الغربية حتى عشر سنوات مضت، كل ذلك خلال دقائق يلقم فيها جهاز كمبيوتر متصلا بشبكة معلومات طبية فى الغرب برؤوس عناوين قليلة تلخص اتجاه بحثه، أما إذا أراد هذا الطبيب نفسه الوقوف على ما تم تسجيله من بحوث فى موضوع دراسته فى كليات الطب ببلده فى سنتين مضتا - فقط - فإنه سينفق شهورا فى مطالعة أضابير الأرشيف وتقليب عناوين صفوف الرسائل المكدسة فى المخازن.

وليسمح لى القارئ أن أشاركه فى قصة مثيرة للعجب، منذ فترة وقع فى يدى نص لأطروحة دكتوراه فى إحدى الجامعات العربية وكان موضوعها «مجلة العربى»، وعندما قرأت تلك الأطروحة تبين لى إخفاق الباحث فى بعض المعلومات الأساسية وقد حصل على الدكتوراه بالطبع، ولم يكن استكمال تلك المعلومات يحتاج إلى سفر أو مشقة أو بحث فى مناطق بعيدة، كان يكفى فقط خطاب محول من الباحث يظهر فيه قصده والمعلومات التى يحتاجها ويرسله فى البريد العادى إلى إدارة مجلة العربى، وكان بذلك قد يصل إلى معلومات أدق وأشمل يعتمد عليها باحثون آخرون بدلا من أن يأتى بحثه مفضوحا وفى بعض الفقرات مشوها

ضربت المثال السابق حتى أدلل على أن القضية فى جزء

منها اتباع منهج والتعود على مستوى تفكير، دون إنكار بالطبع أن القضية فى جزء منها هى تمويل وإقامة مؤسسات. نعتنى نحن العرب بالكتاب ونعتنى به على أنه خير جليس ويحتفظ بعضنا بأمهات الكتب - على مستوى الدولة والأفراد - ولكن ذلك التغنى هو ديكور لا أكثر، فالباحث العربى عندما يعن له البحث فى موضوع ويكون جادا فيه، فإنه يرجع إلى الكتب الصادرة فى الغرب والبحوث التى تمت هناك، وقد يكون الموضوع ذا صلة وخصوصية بوطن عربى وبموضوع عربى، وقد يكون كتب فيه عرب آخرون وتأتى الاستعانة بمعلومات المصدر الغربى تعويضا حضاريا لمن يتناول الموضوع على أساس أن مصدر المعرفة الحديثة هو الغرب.

وتزخر الكتب الأكاديمية باستشهادات فى مقدماتها بما قاله فلان الأجنبى عن الموضوع، ولو بحثنا فى كتب بعض كتابنا العرب لوجدناها أكثر عمقا مما يحصل عليه المستشهدون من الغرب، ولا أريد أن أدفع بهذه المناقشة إلى شكلها السلبى بمعنى أن كل ما جاء من الغرب هو غث غير سمين، ولكن ما أريد الإشارة إليه هو نقص فى تبادل المعرفة بيننا كعرب وعلى أرفع مستوياتها، وهم النخبة المثقفة.

وتجرى اليوم حركة تأصيل ثقافية فى أجزاء من الوطن العربى بمعنى إمعان النظر فى المهم والعاجل من قضايانا ومشكلاتنا إلا أن نقص الحصول على المعلومات - أو قل

معظمها - يشكل عائقا حقيقيا لنمو المعرفة فى أى فرع من فروعها العديدة، فلا أبحاثنا الاقتصادية أو السياسية أو الاجتماعية فى العلوم الحية والتطبيقية واجدة لها مسارات وقدرات للاستقبال الأفقى بين العربى والعربى، أو متوافرة لقارىء العربية، وقد يجد بعضها استقبالا رأسيا إلى لغة أجنبية - فى الغالب الإنجليزية وإلى حد أقل الفرنسية - ثم تعود إلينا من جديد وهى لابسة حلة قشيبة، وكم من نقاد فى المشرق العربى عرفوا بكاتب من المغرب العربى الكبير نتيجة كتابته بالفرنسية لكتاب أو بحث علمى أو رواية أو قصة، ونحتفل بذلك الكاتب احتفالا يليق به، وكم من الكتاب والمؤلفين فى بلد عربى ذهبت إبداعاتهم دون أن يشير إليها أحد، وطويت فى صفحات النسيان. والعكس صحيح فكم من موضوع مشرقى كتبه أحد الكتاب من خارج البلاد العربية احتفلنا به وجعله البعض المرجع الرئيسى فى موضوعه.

أسباب ذلك بالطبع مركبة، فهى من جانب نقص فى الثقة بالإنتاج الفكرى العربى، ومن جانب آخر عدم وصول المعلومات بشل كاف وواضح. ويواكب ذلك كله التقصير فى استخدام الأجهزة الحديثة والمتطورة لمواكبة تدفق واتسا ع المعرفة فى العالم وفى البلاد العربية وحسن تبادلها.

وإن تحدثنا عن المؤسسات التى يناطب بها تبادل المعرفة - دعك من إنتاجها - فإننا نتلفت حولنا فلا نجد تلك المؤسسات

التى تأخذ على عاتقها ذلك التبادل

وحديث تبادل المعرفة هذا ينطوى على مفارقات ذات شجون، ومن أمثلته التى تسطع فى الذاكرة أن بلدا عربياً هزه زلزال قريب، اكتشف أهله أن منطقة إسكان جديدة جرى إقامة عمائرها على فالق من الفوالق الأرضية التى تسهل زلزلتها، والسبب أن البناة لم يتبادلوا المعارف مع أهل الجيولوجيا فى هذا البلد ومثال آخر فى بلد عربى به مركز متقدم لتحليل الصور الفضائية (الاستشعار عن بعد) أقيم فى صحرائه طريق لا يكمل عاما حتى تقصم ظهره السيول فيعاد تعميره سنويا، والسبب أن من شقوا الطريق لم يأخذوا رأى هذا المركز الذى لو سألوه لنصحهم بشق الطريق فى مكان آخر بعيدا عن مجرى السيول الذى تكشفه بوضوح الصور الفضائية لمركز الاستشعار عن بعد.

وحتى معارض الكتب التى بدأت فى الظهور منذ بضعة عقود هنا وهناك فى عواصمنا أخذت الشكل دون المعنى، والمظهر دون المخبر، فقد تحولت فى معظمها إلى مهرجانات يعتنى بكل شيء ترفيهى فيها إلا الكتاب، وأصبحت أسواق بيع كتب بدلا من الفكرة الرائدة لها وهى توفير الكتاب، وبالتالى المعلومة لمن يريدها.

تذهب إلى معرض كتاب من تلك المعارض فتسمع الضجيج بالأغانى السيارة والزحام على بيع منتجات أخرى غير الكتب،

ويتحول الأمر كله إلى سوق شرقى يعلو ضجيجه وتقل فائدته

من الحواضر الإسلامية إلى أقبية الكنائس

لقد فطن أجدادنا - غفر الله لهم ولنا - إلى أهمية تصنيف المعلومات وجمعها، ولعل كتاب «الفهرست» لابن النديم يوضح البذور الأولى لعلم الببلوجرافيا الحديث أو ما يطلق عليه علم ترتيب المكتبات. ويكشف هذا الكتاب عن عمق المأساة التى لحقت بثمار العقل العربى، فمعظم المؤلفات والتصنيفات التى يتحدث عنها ابن النديم لم تعد موجودة، ذهبت ضحية سنوات الانحدار والهزائم المتوالية، تحولت الكتب إلى جسور يعبر عليها الغزاة، وإلى وقود لنيران الفتنة بين أتباع المذاهب المختلفة، وإلى ضحية تتسلط عليها أهواء الحكام فتطمس سطورها وتمزق أوراقها، تراث زاخر تعرض للاغتيال أكثر من مرة على أكثر من يد، آخرها عندما تدفأ جنود الغزو العراقى على أحدث الكتب فى مكتبات الكويت!!

ويكفى أن نلقى نظرة عابرة على هذا التراث العربى الضائع حتى نصاب بالأسى والحزن، ففى بغداد كانت هناك مكتبة «بيت الحكمة» التى أنشأها الرشيد ونماها المأمون وبلغ مجموع ما فيها من مخطوطات مائتين وخمسين ألف مجلد، وكانت تضم جيشا من المترجمين والنساخ والوراقين. كذلك كانت هناك «دار المعرفة» فى مصر، تلك التى تحدث عنها ابن

خلدون، أنشأها الحاكم بأمر الله الفاطمى وأوقف عليها أوقافا كبيرة، وقد ضمت مائة ألف مجلد فى العلوم الدخيلة، أى غير الدينية، وحدها، كما اشتملت على أدوات القياس والفلك وخرائط العالم كما رسمها بطليموس. وكذلك الأمر فى «دار الكتب» التى أنشأها الحاكم بن الناصر فى قرطبة وكانت تضم أكثر من أربعمائة ألف مجلد. وقد حاول أحد ملوك فرنسا بعد ذلك بأربعمائة عام وهو الملك العالم «شارل الخامس» أن يكون أول مكتبة وطنية فرنسية ولم يستطع على مدى سنوات طويلة أن يجمع أكثر من ألف مجلد.

ولم تكن المكتبة بالنسبة للعقل العربى مجرد حلية ترفيهية، ولكنها كانت جزءا من طبيعة النشاط العقلى الجارف الذى صاحب صعود هذه الحضارة. وبقدر انتشار المكتبات الجماعية انتشرت المكتبات الفردية. وتقول إحدى الروايات أن سلطان بخارى استدعى إلى بلاطه طبيبا عربيا فاعتذر الأخير بحجة أن كتبه تحتاج فى نقلها إلى أربعمائة جمل، وكان الصاحب بن عباد يفخر بأن كتبه تملأ ستمائة صندوق.

ولكن هذه المكتبات تعرضت لنفس النكسات التى تعرضت لها الحواضر العربية والإسلامية، تحول رفاتها إلى مرثية طويلة تبكى هذه الحضارة الغازية.

وفى الوقت الذى بدأت فيه النهضة الأوروبية ووجدت أقبية الكنائس والأديرة محتشدة بكل التراث العقلى محفوظا

ومرتبا، لم يجد التراث العربى اليتيم أهلا يحفظونه، ففى الرواية الشهيرة التى كتبها عالم الإنسانيات الإيطالى «امبرتو ايكو» تحت عنوان «اسم الوردة» والتى تحولت بعد ذلك إلى فيلم مشهور عن أحوال الكنائس والأديرة فى القرون الوسطى، يصف المكتبات المحفوظة بداخلها وكيف أنها تحتوى على نفائس التراث العربى وعلى رأسها كتاب «الجبر» للخوارزمى. لقد أخذت كل هذه المخطوطات وحفظت وفهرست وخبئت إلى أن تحين فرصة الاستفادة منها

قامت الكنائس الغربية هنا بدور مزدوج، ففى الوقت الذى كانت تحشد فيه كل قوتها وعنفوانها من أجل خروج الحملات الصليبية «لتخليص الأراضى المقدسة من المسلمين الكفار»[1] كانت تجمع تراثهم العقلى والروحى، كانت تريد القضاء المبرم على الجانب المادى من هذه الحضارة، وتريد الاحتفاظ بالجانب العقلى منها. اختيار يحكمه منطق صارم ربما لايزال يحكم الحضارة الغربية حتى الآن.

وهكذا نرى أن الكنيسة كانت متعصبة حقا، ولكنها لم تكن عمياء، ولعل هذا الاتجاه يقدم إجابة لكل الذين يرفضون مظاهر الحياة الغربية المادية بما فيها من تحلل، ويقفون حائرين أمام مظاهر نشاطها العقلى والحضارى بما فيه من ازدهار.

هل يمكن أن ندرك أن هذا النشاط العقلى يجب ألا يخضع

لعوامل التعصب أو النظرة الضيقة؟

يجب أن نعترف بذلك، فالاعتراف هو الذى سوف يخلصنا من غرور الجهل ويقودنا إلى تواضع الرغبة فى التعلم والمعرفة، فالإصرار على الجهل هو نوع من الضلالة. وقديما قالوا «من قال لا أدرى فقد أفتى»ولا يعنى هذا الاعتزاز بالجهل بقدر ما يعنى التحذير من مغبة التضليل، فالاعتراف بعدم المعرفة يمكن أن يمثل عنصرا إيجابيا بدلا من الافتقار إلى أمور يمكن أن يؤدى الجهل بتفصيلاتها إلى كارثة جديدة.

ولأن المعرفة مطلب عقلى إنسانى فهى ليست إلا وسيلة جيدة تعرفنا بمدى اتساع دائرة ما نجهل، كما يعرف إسحاق نيوتن العلم.

المعلومة والمعرفة

كثير منا لا يفرق بين المعلومة والمعرفة التى تتحول إلى سياسة بمعنى اتخاذ القرارات، والذى قلنا فى صدر هذا الحديث إنه يفرض القوة.

المعلومة قد تكون صحيحة وقد لا تكون، ولا تنتج المعرفة من المعلومة فقط، وإنما تنتج من عملية تراكم المعلومات ومقارنتها ببعضها وتدقيقها، من هاتين العمليتين تنتج المعرفة، وإن حصولنا على معرفة دقيقة فى موضوع ما يقودنا بسلامة أكثر إلى تبنى سياسة واتخاذ قرارات تصب فى نهايتها لتحقيق الصالح العام.

هذه العملية من معلومة إلى معرفة إلى سياسة يمكن أن تطبق فى أى مجال سواء كان مجالا اقتصاديا أو اجتماعيا أو سياسيا أو علما تطبيقيا، ويختصرها البعض فى الحديث عن مجالات البحث والتطوير ويرمز لها بالإنجليزية بالحرفين R.D بمعنى Research & Development.

وقد تجاوزت هذه الفكرة الكثير من الأيديولوجيات القطعية والتى تخضع لتصور مسبق لما يجب أن تكون عليه حلول المشكلات التى تواجه الإنسان، فالبحث هو ما اصطلحنا عليه بأنه مقارنة المعلومات وتدقيقها (المعرفة) وإن عرفنا حلولا لمشكلات تواجهنا استطعنا تطوير مسلتزماتها لتحقيق الصالح العام أو ما نرغب فيه، وأساس كل ذلك المعلومة المنظمة والدقيقة، ومادام هناك شبه اتفاق أن المعلومة فى بلادنا غير دقيقة ولا منظمة فى مؤسسات فبالتالى يصعب مقارنتها وتدقيقها والخروج منها بنتائج بحثية تقودنا إلى التطور.

وليس سرا اليوم أن البلاد الأخرى تقيس مستواها فى التطور والتقدم بحجم إنفاقها من ميزانياتها العامة على البحث والتطوير. وتذهب الشركات الكبرى والمؤسسات الخاصة مذهب المجتمع والدولة فى ذلك، فكلما كانت الشركة أو المصنع قد صرف جزءا كبيرا من ميزانيته على البحث والتطوير، تقدم إنتاجه واستطاع المنافسة فى السوق. وما هذا

الزخم من التطور التقنى إلا نتيجة البحوث والتطوير، وما هذا التقدم فى المجال الطبى إلا نتيجة ذلك أيضا. وكان قد أعلن فى بريطانيا وأنا أكتب لك هذا الحديث - عزيزى القارئ - عن اكتشاف (الجينات) التى تسبب مرض باركسون (الارتعاش اللاإرادى) بعد بحوث استمرت عشر سنوات. ويستطيع أى إنسان اليوم أن يعرف على وجه كبير من الدقة ما إذا كان سوف يصاب بهذا المرض فى المستقبل ويكون انتقاله إلى الآخرة بسببه بطريقة بسيطة وهو كشف بسيط على الجينات عن طريق عينة من الدم.

لم يصل العلم إلى ما وصل إليه اليوم دون البحث والتطوير، ولم يصل إلا بعد أن نظم المعلومات.، وقد يكون مفاجئا لبعض القراء أن العالم الإنجليزى المشهور والمقعد «ستيفن هوكنج» والذى نشر الكتاب الأكثر مبيعا فى العالم فى السنوات الخمس الأخيرة وهو بعنوان «موجز تاريخ الزمان من الانفجار العظيم إلى الثقوب السوداء» وترجم إلى أكثر من عشر لغات حتى الآن من بينها العربية، قد يكون مفاجئا أن يقول فى مقابلة تلفازية أجريت معه فى العام الماضى إن العالم سوف يكتشف كل أسرار الكون فى الخمس عشرة سنة القادمة، ولن يبقى بعدها شىء لم يكتشف، قد تكون مبالغة من عالم ولكنها مبالغة العارف ببواطن الأمور والمطلع على البحوث الجديدة.

المعلومات وسرعة تراكمها

إننا نعيش فى عصر تتفجر فيه المعرفة وتتراكم فيه المعلومات بوتيرة متلاحقة. وعلى سبيل المثال فقد تضاعفت المعلومات فى الفترة من ١٨٥٠ إلى ١٩٢٥ إلى ١٩٥٠ - أى على مدى ٢٥ عاما - مرة ثانية. تضاءلت هذه المدة إلى ٢٠ عاما فقط فى الفترة من ١٩٥٠ إلى ١٩٧٠، ومنذ ذلك التاريخ وحتى الآن فقد تضاعفت بينما تتناقص الفترات الزمنية وهكذا نجد أن طرق الحفظ فى المكتبات التقليدية لم تعد كافية، والمكتبة التى كانت تضم آلاف الكتب أصبحت تضم الملايين منها. وفى الوقت نفسه فإن طرق الحفظ غير التقليدية مثل أجهزة الكمبيوتر هى التى تساهم أيضا فى تضاعف المعلومات، وبذلك فإن سيل المعلومات لن يكف عن التدفق فى مستقبل السنوات القادمة.

لقد انتهى الاعتقاد الذى كان سائدا بأن معرفة القراءة والكتابة تكفى حتى يكون الإنسان متعلما، كذلك لم يعد كافيا أن يكون الشخص على درجة معقولة من فهم اللغة حتى يستطيع استخدامها كوسيلة اتصال بينه وبين الآخرين، ولكن المختصين يؤكدون الآن على وجوب ما يسمى بـ «المعرفة الوظيفية» وهو اصطلاح يصف بعض المهارات ذات المستوى الرفيع التى تؤهل الفرد للتعامل مع آلية الكمبيوتر، كيف يقوم بتشغيله أو برمجته، وكذلك كيفية التعامل مع أرقامه وبياناته،

كما يتضمن أيضا الدوافع والاستعداد للتعامل مع هذه الآلة

وتنمية هذه المعرفة الوظيفية يجب أن تبدأ فى نفوس الأطفال مع سنوات التعلم الأولى، لأن تدريب الأطفال على استخدام هذه الآلات الإلكترونية يعطيهم الثقة فى أنفسهم ويعزز من قدراتهم النفسية والعقلية معا.

ولا يتوقف الأمر على هذا النحو المطرد فى المعلومات، ولكن هذا النمو يأتى وسط عالم قلق ملىء بالمتغيرات، فهناك متغيرات مستمرة فى عالم الاقتصاد والتجارة، ومخاوف من تناقص الطاقة، ومتغيرات مفاجئة فى الأبنية والنظم السياسية. كذلك هناك اختلال فى المفاهيم والأنماط الثقافية والاجتماعية، ويجب أن تمتلك المؤسسات الوسائل التى تتيح لها القدرة على التنبؤ بتأثير كل هذه المتغيرات. وبطبيعة الحال فإن تخزين معلومات وبكل هذا الكم من المتغيرات يحتاج إلى بحوث مضنية فى البحث والتطوير وتوفير الوقت المناسب لتعديل البرامج العلمية فى ضوء الاحتياجات المستقبلية. وهكذا نرى أن معظم المؤسسات التى تفشل فى استمرارية استخدام الكمبيوتر إنما تفتقر بالدرجة الأولى إلى التخطيط للمستقبل. ولعل العبء الأكبر فى التخطيط لهذا المستقبل يقع على الجامعات العربية، فهى المؤسسات الوحيدة القادرة على إعداد خريجين يمكنهم أن يتفهموا أبعاد هذه التقنية الحديثة والطرق المختلفة لتطبيقها. كما أن تزويدها الطلاب بكل هذه

المعلومات المطلوبة يساعدهم على التعامل مع الثورة القادمة فى عالم الكمبيوتر، وهى التى يطلق ليها ثورة «الصفائح المصغرة» أى الكمبيوتر البالغ الصغر.

أين نحن من كل ذلك ؟

فاتنا عصر البخار، وفاتنا عصر الذرة، فهل يفوتنا أيضا عصر المعلومات؟ الأقرب - واغفروا لى هذا التشاؤم - أنه قد فاتنا الكثير منه، وإذا كانت الأمثلة تدلل على ذلك، فلنضرب الأمثلة، فمعظم أمم الأرض لديها اليوم موسوعة، وأشهر هذه الموسوعات الموسوعة البريطانية والموسوعة الأمريكية. ونحن رغم ما توافر لدينا من مال وما لدينا من عقول وعديد من الجامعات ومؤسسات البحث العلمى، فإن الموسوعة العربية الشاملة لم تر النور بعد. لدينا موسوعات موجزة ومحدودة قامت على إنجازها مؤسسة خاصة ولكنها موجزة فقط، وظل مشروع الموسوعة حبيس أضابير البيروقراطية والعصبيات السياسية فى المنظمة العربية للثقافة والفنون (اليكسو) التابعة للجامعة العربية. يوجد فى الغرب مؤسسات متكاملة بعضها متخصص فى المشكلات التى تواجهنا وتدرس مجتمعاتنا وليس لدينا مؤسسات ندرس نحن من خلالها مجتمعاتنا. مازلنا نعتمد فى اتخاذ قراراتنا على ما يتوفر لدينا فى التو واللحظة من معلومات ناقصة.

واكتشف بعضنا أهمية المعلومات فبدأ فى مراكمتها، واهتمت بعض أجهزتنا بتكديس المعلومات وكأن الهدف الأساسى هو التكديس، فتراكمت معلومات صحيحة وأخرى خاطئة قادت بعضنا فى الغالب إلى اتخاذ قرارات عشوائية مميتة، ولم ينتبه أحد إلى أن تكدس المعلومات دون تدقيقها وغربلتها ومقارنتها أشبه بابتلاع الأكل فوق الأكل بين الوجبات.. يضر أكثر مما ينفع.

١٨

إريتريا من الثورة
إلى الدولة

مشكلات الماضي
وصعوبات المستقبل

إريتريا ليست مجرد دولة جديدة، تنهض فى مقدمة القرن الإفريقى المضطرب، ولكنها معضلة، تثير من الأسئلة أكثر مما تطرح من الإجابات. ويأتى الإعلان عن استقلالها فى الرابع والعشرين من مايو الماضى، ليطرح من جديد قضايا الهوية والأمن والتجانس بين الجماعات العرقية، والتعايش بين الأديان، كأنها تعيد طرح كل قضايا العالم الثالث الهاجعة، وتدفع ثمنا غاليا من الكفاح ضد القمع وحرب الإبادة التى مارستها إثيوبيا ضد شعبها على مدى ثلاثين عاما، من أجل أن تظفر أخيرا بعلم ونشيد ومقعد فى الأمم المتحدة.

إذا تأملنا حدودها على الخارطة، فإنها تشبه المطرقة، مطرقة ظلت تضرب عبر ثلاثة عقود رأس إثيوبيا، فأسقطت أولا إمبراطورية الأسد العجوز «هيلا سيلاسى» عام ١٩٧٤، ثم النظام الأحمر للعقيد منجستو هايلى ماريام عام ١٩٩١. ثم لم يجد النظام الإثيوبى الحالى بدا من الاعتراف بحقها فى الاستقلال وحرية تقرير المصير. ومازالت الدولة - المطرقة تضرب رأس الكثير من الأسئلة، عن هوية هذه الدولة: هل ستكون عربية أم لا؟ وعن تأثيرها: هل ستكون الدولة الأقوى أم الأضعف فى القرن الإفريقى؟. وعن استقرارها: هل ستلقى الفصائل المختلفة السلاح وتتجه للبناء أم تبقى على السلاح استعدادا لتصفية الحسابات القديمة؟ وعن توجهاتها: هل

تحول البحر الأحمر إلى بحيرة عربية حقا، أم أنها ستفتح فيه ثغرة هائلة تتسلل منها إسرائيل فتحول أسطورة الأمن إلى كابوس من المخاوف؟

جغرافية الدولة الجديدة تقودنا إلى جغرافيا التاريخ، ومحاولة فك تشابك خيوط القضية الإريترية المعقدة ربما تلقى الضوء على هذه الأسئلة، ولكن أخشى ما يخشاه المرء أن الوقت لم يحن بعد لإعطاء إجابات شافية.

ضريبة الموقع

تأخذ إريتريا اسمها من اسم لاتينى قديم اختارته لها روما، وهو مشتق من اسم إحدى الزهور التى تنمو على شواطئها الدافئة «ميرا إريتريوم» Mera Erythraeum ويبدو أن خيالات الإيطاليين الذين احتلوا إثيوبيا والمنطقة المحيطة بها عام ١٨٨٠ كانت تحاول إعادة تجسيد البعث الجديد للإمبراطورية الرومانية فى قلب إفريقيا السوداء.

لقد دفعت هذه البقعة من الأرض الثمن الذى فرضه عليها موقعها الاستراتيجى المهم. فقد كانت دائما عرضة للغزوات الخارجية، والتناحر الداخلى، وطمع الجيران المتواصل فى الاستحواذ عليها. وهى بالنسبة لإثيوبيا كانت منفذها الوحيد إلى البحر، لذلك فقد اتسم الصراع بينهما بقدر كبير من الضراوة

تقع إريتريا فى الشمال الشرقى من القارة الإفريقية على الشاطىء الغربى للبحر الأحمر وهى كما قلنا من قبل على مطرقة مثلثة، قاعدتها فى السودان من الشمال والغرب، وإثيوبيا فى الجنوب، وجيبوتى فى الجنوب الغربى. تبلغ مساحتها ١٤٢,٣٢٠ من الكيلومترات المربعة، وتملك ١٢٦ جزيرة تقع فى المدخل الجنوبى للبحر الأحمر وتتحكم مباشرة فى باب المندب.

ولا يوجد إحصاء سكانى دقيق لشعب إريتريا، فالأرقام الإيطالية والإنجليزية والإثيوبية متضاربة فى هذا الشأن، ولكنها تتعمد المغالطة والتشويه من أجل أغراضها السياسية غير أن المؤتمر الوطنى الأولى لجبهة التحرير سجل رقما تقريبيا هو أربعة ملايين مواطن، ويبدو أن الرقم الحقيقى يتراوح بين ٣ و ٤ ملايين.

وفى هذه البقعة تجمع العديد من الأجناس البشرية، جاءت إليها القبائل النيلية ذات الأصل الحامى، ثم جاء الزنوج من قلب إفريقيا. واكتسبت المنطقة طابعها الخاص عندما هاجرت إليها القبائل العربية فى الفترة من سنة ١٠٠٠ إلى ٧٠٠ قبل الميلاد. لقد تواصلت هذه الهجرات على مدى مئات السنين عبر باب المندب وجزيرة «دهلك» التى لا يفصلها عن الشواطىء اليمنية إلا أميال قليلة.

ولعل أقدم القبائل التى هاجرت إلى إريتريا هى «الأجاعز» و«حبشات» اللتان فقدتا ديارهما وأراضيهما بعد انهيار سد مأرب. وقد حملت هذه القبائل إلى إريتريا أولى مقومات الحضارة: المحراث الذى قادها إلى احتراف الزراعة والأبجدية الحميرية التى فتحت أمامها أبواب اللغة والكتابة. وهكذا نشأت فى الهضبة الإريترية مجتمعات زراعية مستقرة مما مهد فيما بعد لظهور مملكة «أكسوم» التى ظهرت فى إثيوبيا وامتدت إلى أجزاء من إريتريا . وبطريقة التفاعل نفسها التى تم بها انتقال الأجناس انتقل الدين الإسلامى من أرض الجزيرة ليجد فى إريتريا بيئة ثقافية ملائمة لتعاليمه. ولم ينتشر الإسلام عن طريق السيف ولكن عن طريق التجار المسلمين، وانبعثت بسبب ذلك العديد من الإمارات والسلطنات الإسلامية على الساحل، وارتبط أرخبيل «دهلك» و«مصوع» بالخلافة الأموية ثم الخلافة العباسية من بعدها

من الاستعمار الأوروبى.. إلى الاستعمار الإفريقى

عرفت أوروبا الحديثة طريقها إلى سواحل إريتريا فى مستهل القرن السادس عشر. فقد هبطت السفن البرتغالية بقيادة دييجو لوبيز وقضت على الممالك الصغيرة التى صادفتها ثم توغلت داخل البلاد. كان البرتغاليون يريدون موطىء قدم يحاصرون منه باب المندب ويؤمنون التجارة عن

طريق رأس الرجاء الصالح. وظلوا متشبثين بهذا الموقع حتى تقدم الأسطول التركى العثمانى ودمر الأسطول البرتغالى فى عام ١٥٥٧.

بعد ذلك بثلاثين عاما انتقلت السلطة إلى مصر الخديوية. وظهرت الطرابيش الحمراء فى ميناء «مصوع» وتقدمت القوات المصرية حتى أحاطت بالعاصمة أسمرة فأصيب حاكم الحبشة بالفزع واستنجد بالإنجليز الذين أمدوه بالسلاح والرجال حتى استطاع أن يرد المصريين ويبقيهم على الشواطىء. ثم ما لبثت أن اضطرت القوات المصرية للجلاء الكامل بعد قيام الثورة المهدية فى السودان .

دخلت إريتريا بعد ذلك فى منطقة النفوذ والصراع بين إنجلترا وفرنسا. ولما كانت الأولى غير راغبة فى أن تسبقها فرنسا إلى هذا الساحل فقد شجعت إيطاليا على التقدم. وبدأ الأمر بالصورة الاستعمارية التقليدية نفسها: جاء المبشر الإيطالى سابتينو يحمل الإنجيل، واشترى قطعة من الأرض يقيم عليها إرساليته، وتحولت قطعة الأرض إلى محطة تستخدمها السفن الإيطالية فى ميناء عصب، ثم جاء الجنود كى يحموا المبشر والإنجيل وليلتهموا بقية الأرض.

فى عام ١٨٩٠أصدر ملك إيطاليا مرسوما بتأسيس مستعمرة إريتريا بحدودها الحالية قبل أن تنشأ مملكة إثيوبيا

نفسها التى كانت تتنازعها العديد من الممالك الصغيرة. ونظر الإيطاليون إلى إريتريا باعتبارها المستعمرة النموذجية أو بالأحرى إيطاليا الإفريقية فى مقابل إيطاليا الأوروبية. وهكذا نشأت المدن الحديثة بما فيها من بنوك ومستشفيات وطرق، ودخلت السكك الحديدية إلى البلاد عام ١٩٠٩، بل إن أسمرة العاصمة ضمت داراً للأوبرا ومكتبة عامة والعديد من المطاعم الأوروبية الفاخرة.

ثم جاءت المرحلة الثالثة فى حلقة الاستعمار الأوروبى مع نهاية الحرب العالمية الثانية وهزيمة إيطاليا أمام جيوش الحلفاء ودخلت إريتريا بذلك فى ميراث الإمبراطورية البريطانية العجوز. كانت فترة الاحتلال البريطانى قصيرة نسبيا (١٩٤١ - ١٩٥٢) ولكنها استطاعت أن تحدث فيها تغيرات درامية كبيرة، وضعت فيها بذور ما أصبح يطلق عليه فيما بعد القضية الإريترية التى امتدت آثارها حتى الآن..

لقد أعادت بريطانيا الإمبراطور هيلاسيلاسى إلى عرش إثيوبيا بعد أن كان منفيا على أيدى الإيطاليين. ثم وضعوا خطة محددة لتقسيم إريتريا بين السودان وإثيوبيا، بدعوى أن الطائفتين الرئيسيتين فى البلاد - وهما المسلمون والمسيحيون - لن تستطيعا العيش معا فى دولة مستقلة. وبذلوا محاولات شتى لحمل السكان على قبول هذا المشروع، وإقناع الأمم

المتحدة بأن التقسيم هو الحل المثالى، ولما لم يستطيعوا إثبات ذلك بذلوا جهودهم للشقاق بين الطائفتين. ثم قدموا إريتريا على طبق من ذهب إلى الإمبراطور الحبشى كى يوسع بها حدود مملكته. ومثلما حدث فى فلسطين حين أعطت بريطانيا أرضا لا تملكها إلى من لا يستحقها، فعلت فى إريتريا حين أرغمت الإرادة الوطنية على القبول بالدخول فى اتحاد كونفدرالى مع إثيوبيا فى عام ١٩٥٢ مالبث أن تحول إلى نوع جديد من الاستعمار.. ولكنه استعمار إفريقى هذه المرة

ويعبر الإريتريون عن هذه المراحل الاستعمارية المختلفة فى سخرية مريرة حين يقولون: كان الإيطاليون يقولون لنا · كلوا واشربوا وتكلموا . ثم جاء البريطانيون ليقولوا : كلوا واشربوا ولكن لا تتكلموا. وأخير جاء الإثيوبيون ليقولوا: لا تأكلوا ولا تتكلموا.

ملحمة بحفنة مقاتلين وبضع بنادق

لعل بعض من عاصروا بدايات الستينيات فى مصر يتذكرون تلك الوجوه السمراء الرقيقة لهؤلاء الفتية الذين راحوا يظهرون فى أماكن تجمعات المثقفين. كانوا مجموعة صغيرة حالمة من الطلاب الإريتيريين الدارسين بالقاهرة. تراودهم أمانى أمه تجاهلت مشاعرها كل الأمم، وضاع وضوح حقها فى الاستقلال بين تقاطعات خطوط الصفقات

الدولية، والتوازنات الإقليمية، والأساطير التى تتناسج من جروح قارة منهوبة حتى النخاع.

من هذه الوجوه تكونت الملامح الأولى لملحمة تحرير يكاد من يعرف بداياتها لا يصدق أنها انتهت إلى ما انتهت إليه من انتصار، باتجاه هدفها الذى حددته من البداية وهو «الاستقلال الوطنى الكامل ووحدة شعب وتراب إريتريا»، وتدشين ميلاد دولة بدأت كفاحها بتنظيم صغير هو «جبهة التحرير الإريترية»، الذى أعلن عن تكوينه فى القاهرة عام ١٩٦٠.

وثمة من يؤرخ لحركة التحرير الإريترية بهذه البداية، لكن الأمر أعمق وأبعد من ذلك. فالملحمة تأخذ تاريخ بدايتها من بدايات المحنة التى بدأت بالزواج الباطل الذى عقد بالإكراه بين إثيوبيا وإريتريا، وباركته الأمم المتحدة، فكأنها باركت استبدال استعمار أبيض جثم على صدر هذا الجزء من القرن الإفريقى لأكثر من نصف قرن، باستعمار آخر له لون البشرة السوداء ذاتها وملامحه تقارب ملامح الإريتريين الرقيقة نفسها. فبعد ٥١ عاما من الاحتلال الإيطالى لإريتريا، ومع هزيمة إيطاليا فى الحرب العالمية الثانية، جاءت بريطانيا لتحل محلها ودخل الأسد البريطانى ملتفا بوشاح الحلفاء المنتصرين ليلتهم ما شاء من لحم الإريتريين النحاف. ولعل

الأسد البريطانى اكتفى بوجبة صغيرة ليفسح مجالا للنسر الأمريكى الذى بدأ الانقضاض بعد ارتفاعه فى سماء ما بعد الحرب العالمية الثانية. ففى واقع الأمر كان قرار الأمم المتحدة رقم ٣٩٠/أ/٥ الصادر فى ١٩٥٠/١٢/٢ والذى نص على أن «تصبح إريتريا وحدة سياسية تتمتع بالحكم الذاتى فى إطار اتحاد مع إثيوبيا تحت سيادة التاج الإثيوبى»، كان هذا القرار بداية صفقة دولية اكتملت أركانها بمعاهدة بين إثيوبيا والولايات المتحدة وقعت فى ١٩٥٣/٥/٢٢ لتستمر ربع قرن وبموجبها تمنح إثيوبيا قواعد عسكرية برية وجوية وبحرية للولايات المتحدة على الأرض الإريترية ثمنا للقرار الدولى سالف الذكر. وثمنا للسكوت على قرار هيلاسيلاسى فيما بعد بضم إريتريا إلى إثيوبيا فى ١٩٦٢/١١/١٥، حيث لم تحرك الأمم المتحدة ساكنا، ولم يصغ لشكوى الضحية أحد.

فماذا تتوقع من مظلوم تتجاهله العيون والأسماع غير أن ينتفض ثأرا لذاته؟ هذا ما كان، ومن هنا بدأ دوى الرصاصات الأولى الفقيرة لحركة التحرير الإريترية بين ذرى الجبال الصلدة والصعبة فى مواجهة الاستعمار الحبشى بداية لا تصدق، وتكاد تثير الشفقة، ولا توحى أبدا بمسار الملحمة وخاتمتها المنتصرة. ولعلنا نشير إلى الإرهاصات البكر قبل أن يأخذ مقاتلو جبهة التحرير الإريترية وضع

الهجوم فى بداية الستينيات. فقد بدأ الهجوم بالدفاع بين عامى ١٩٤٥ و١٩٥٠ عندما كان الإريترى حامد إدريس عوانى «الذى استشهد فيما بعد» يقود عمليات دفاع إريترية تلقائية فى مواجهة هجمات العصابات الإثيوبية المسلحة. ثم بدأ الهجوم برصاصات متناثرة لسبعة مقاتلين - نعم سبعة لا غير!! - بقيادة عوانى نفسه. وفى عام ١٩٦٢ اشتد ساعد الحركة بتسعة من ضباط الصف المستقلين من الجيش السودانى وعشر بنادق تم شراؤها بتبرعات بعض العمال الإريتريين العاملين فى المملكة العربية السعودية. وبعد عام واحد صار المقاتلون مائة وصار عدد البنادق ستين بعملية قنص بارعة. إذ تنكر المقاتلون الإريتريون فى هيئة سياح من السودان وباغتوا مركزا سريا إثيوبيا واستولوا على ٥١ بندقية. ووجدت حركة التحرير الإريترية فى نجاح هذه العملية تكتيكا مبتكرا لتزود نفسها بالسلاح، حتى تصير فى غنى عن عالم بدا وكأنه استغنى عنها ونفاها من ذاكرته. فالراصد لخطوط التماس مع المشكلة الإريترية يجد كومة من علامات التعجب تتناثر بوفرة عند تقاطعات هذه الخطوط، وتعلق بالدهشة على مواقف الأقارب والأباعد، الجيران وساكنى أقصى أطراف المعمورة!.. عربيا، وإفريقيا ودوليا، لم تنج القضية الإريترية من حكم الهوى واعتبارات المصالح الأنانية

والتخبطات المرتبكة.

لا وضوح عند القرن الإفريقى

رغم أن طبيعة الأرض الإريترية تجعل من مناخها ربيعا دائما بطول الفصول الأربعة نتيجة لتكونها من هضبة تشرئب فيها مرتفعات لا تقل عن ستة آلاف قدم فوق سطح البحر، إلا أن هذا الربيع الدائم لم يجد من يقدر صفاءه بصفاء مقابل.

فعلى المستوى العربى كان طبيعيا أن تكون السودان بحكم الجوار أول يد تمتد لدعم الثورة الإريترية. لكن هذا العون ظل محكوما بتقلبات الأحوال لموازنة الصراع حول قضية الجنوب فى السودان ذاته. أما مصر فقد أيدت الثورة ثم سحبت تأييدها لصالح فكرة إثيوبيا الموحدة ثم عادت إلى قبول فكرة الحكم الذاتى لدى الإريتريين. وبشكل عام كان العون العربى - رغم أنه ظل فى كثير من الأحيان العون الوحيد فى قضية لم تجد من يعينها غير ذاتها - كان العون العربى غير محكوم بمنطق علمى، يتخبط فى دائرة ردود الأفعال فى مواجهة الفعل الإسرائيلى، ويخضع لاعتبارات ما يدور بين الدول العربية ذاتها. كما أن هذا العون العربى، نتيجة لغياب المنطق الواضح والإعلام الجيد، ظل مثيراً للريبة وموضوعا للخلاف داخل حركة التحرير الإريترية وحركة التحرر الوطنى الإفريقى، حتى أن الفصيل الذى قاد المرحلة الأخيرة من

الثورة الإريترية - الجبهة الشعبية لتحرير إريتريا - رأى أن هذا العون العربى موجه لفصل بعينه داخل الحركة وبغية تأكيد التوجهات العروبية والإسلامية لإريتريا فى المستقبل.

ربما كانت إسرائيل غير بعيدة عن هذا الخلط، وربما أن الصورة تغيرت بعد أن كان العربى «سمير صنبر» ممثل الأمم المتحدة هو مراقب انتخابات تقرير المصير التى أسفرت عن إعلان استقلال إريتريا. لكن مما لا شك فيه أن غياب الوضوح العربى فى رؤية المسألة الإفريقية يظل المسئول عن كل هذه التخبطات.

وعلى المستوى الإفريقى كان عجيبا أن تقف إفريقيا السوداء طويلا فى خندق واحد مع التقسيم الاستعمارى لإفريقيا، ومن ثم إهدار الحق الإريترى فى تقرير المصير بدعوى أن «تمزيق إثيوبيا يتعارض مع فكرة الجامعة الإفريقية» و«توحيد القارة». وكان هذا الموقف البرجماتى يخفى وراءه تملقا لإثيوبيا - هيلاسيلاسى - التى بدت صاحبة دور رائد فى إفريقيا، بتبنيها لمنظمة الوحدة الإفريقية وجعل أديس أبابا مقرا لها، ولمعارضتها سياسة التفرقة العنصرية فى جنوب إفريقيا، والوقوف فى وجه التجارب النووية الفرنسية فى الصحراء الإفريقية. أما منجستو الذى خلف هيلاسيلاسى فإنه حصل على نتائج مشابهة برفعه لفزاعة

الطيور وتخويفه للأفارقة من «تجار الرقيق العرب» و«التوسع العربى فى إفريقيا » و«تحويل البحر الأحمر إلى بحيرة عربية» وغير ذلك من التصريحات التى هدف بها إلى الإيحاء بأن القضية الإريترية مجرد صناعة عربية.

لكن ديماجوجية الشعار السياسى وتجنى تصريحات منجستو، لم تكن وحدها مسئولة عن غرابة الموقف الإفريقى من الثورة الإريترية. فثمة بعد عجيب تخلل هذا الموقف، هو البعد الأسطورى فى قارة مازالت تعيش على الأساطير. فإثيوبيا المسيحية المستقلة ظلت مصدر إلهام سياسى ودينى لكثير من الأفارقة، وعلى حد تعبير السياسى النيجيرى «أزيكوى»: «إثيوبيا هى النظام الذى أسسه آباؤنا الأفارقة على هذه القارة». وبلغ البعد الأسطورى ذراه عندما قام قادة الكنيسة البانتوية·«نسبة إلي القبائل الإفريقية المتحدة بلغات البانتو» فى جنوب إفريقيا بتشكيل كنيستهم المفضلة فى صورة «الكنيسة الإثيوبية».

صار العرش الإثيوبى المسيحى رمزاً للقوة السوداء فى كثير من أركان القارة الإفريقية. فضاعت بين جحافل الأقدام السوداء المهرولة.على طريق الخلاص الإثيوبى قضية الشعب الإريترى الأسود، ولو إلى حين.

أما على المستوى الدولى فكانت إريتريا بحق، هى كبش

فداء لعبة الأمم، والكرة التى تتلقى الركلات كلما أراد هذا الطرف أو ذاك تسجيل هدف فى مرمى الفريق الآخر فى زمن القطبين على أيام الحرب الباردة. فحتى منتصف السبعينيات ظلت الثورة الإريترية تواجه نظاما إثيوبيا يضربها بأدوات الدعم الأمريكى والإسرائيلى. ومع استيلاء عسكر منجستو على السلطة عام ١٩٧٤ تغيرت المواقع وصارت الثورة الإريترية تتلقى الضربات مدعومة بأدوات حلفاء الأمس السوفييت الذين غيروا شعارهم إلى الحفاظ على السلامة الإقليمية لإفريقيا.

ومن المفارقات فى هذه اللعبة الدولية التى عصفت بالحق الإريترى عصفا من هنا وهناك، أن موسكو الشيوعية كانت تقوم بدور الوسيط بين جبهة التحرير الإريترية ذات التوجيهات العربية الإسلامية ونظام العسكر الإثيوبى. بينما كانت واشنطن تقوم بدور الوسيط بين الجبهة الشعبية لتحرير إريتريا - ذات التوجهات اليسارية - ونظام العسكر.

لكن لعبة القطبين لم تدم، فقد انهار الاتحاد السوفييتى، وسقط نظام منجستو، وكان طبيعيا أن تتحول الولايات المتحدة إلى جانب تأييد الاستقلال الإريترى، خاصة أن حركة التحرير الإريترية كانت قد قطعت على الأرض المحررة شوطا يصعب تجاهله أو الرجوع عنه. فلقد تحرر كامل التراب

الإريترى وصار الثوار جيشا أو شبه جيش، وكان الجيش لا يكتفى بالقتال، بل يزرع الأرض ويشق الطرق ويشارك فى مواسم الحصاد. صارت الثورة دولة، قبل الاستفتاء، وقبل الإعلان عن ميلاد الدولة الإريترية المستقلة. وهى مأثرة تستحق التأمل.

من : اضرب واهرب ، إلى: حرر وعمر

إزاء تلاعب العالم بقضية الشعب الإريترى ابتكر الثوار الإريتريون تكتيكات تضمن نجاحهم بالاعتماد على قواهم الذاتية.

فمن التبرعات ودعم الأهالى كان الثوار يجدون ثمن الرصاصات واللقمة التى تقيم الأود. ومن الهجمات يستولى الثوار على مزيد من السلاح من ثكنات أعدائهم. وبالسلاح يحررون أرضا . وعلى الأرض المحررة يتنامى جيش شبه نظامى وميليشيات منضبطة ومنظمات جماهيرية تنظم شئون الحياة وتغذى الجيش بما يطلب من جنود، صارت الثورة تستوعب شعبا والشعب يحتضن ثورة حتى تحرر كامل التراب الإريترى فى مايو ١٩٩١. وإذا كان تكتيك القتال الإريترى قد بدأ بشكل: «اضرب واهرب ثم اختف كالدخان»، فإنه غدا بعد عام ١٩٧٥ هجوميا يصل إلى أهدافه حتى داخل الأراضى الإثيوبية، أما على أرضه فقد سعى إلى التمركز

والسيطرة على مناطق شاسعة ثم تأكيد حمايتها.

كان التجنيد إجباريا والتدريب لا يتجاوز ستة أشهر. وكانت المرأة تلتحق بجيش الثورة شأنها شأن الرجل. وحتى لا يعوق الزواج مهام القتال، فقد منع الزواج في الجيش. وحتى لا يتفشى الفساد في هذا الجيش الذي عرف الاختلاط، فإن الزنا كانت عقوبته الإعدام للطرفين.

لم يكن هناك وقت للعبث، حتى في أوقات الفراغ من مهام القتال، فإن الجيش كان يزرع ويحصد ويشق الطرق ويصنع للأهالي أدوات منزلية من حطام الطائرات الإثيوبية التي أسقطها وبلغ عددها حتى مايو ١٩٧٧ اثنتين وثلاثين طائرة. أما قماش المظلات فقد كان نسيجا للقمصان وستائر لنوافذ البيوت المتواضعة!

ثلاثون عاما من الدأب أثمرت ميلاد دولة مستقلة، وقدمت للعالم حركة تحرير مميزة السمات تبدو وكأنها كائن حي لا يكف عن النمو. تحدث انشقاقات لكن الفصيل المنشق ما يلبث حتى يسيطر على الساحة ويذوب التنظيم الأصيل. وإن وجد تنظيم ذو طابع عرقي أو ديني محدد. فإنه لم يوصد أبوابه أمام الآخرين.

وثوار لم يلقوا سلاحهم لثلاثة عقود كاملة دون انتظار لاعتراف من أحد. ولم يكن هناك تنظيم يدعي أنه الممثل

الوحيد لحركة الشعب الإريترى.

بكل هذه المآثر كانت حركة التحرير الإريترى هى الحركة الإفريقية الوحيدة التى تمكنت من إسقاط عدوها مرتين: هيلاسيلاسى فى أول الأمر ثم منجستو من بعده. وكانت هى الحركة الوحيدة التى تمكنت من تحرير كامل ترابها قبل أن تبدأ التفاوض، وقبل أن يجرى استفتاء تقرير المصير الذى كان قد تقرر بالفعل على الأرض الإريترية المحررة.

هل يتحول الرفاق إلى إخوة أعداء؟

والآن بعد أن انتصرت الثورة على عدوها الواضح والأساسى «إثيوبيا» فإن الرفاق القدامى لم يلقوا السلاح. ويبدو أن الحساب الختامى لم يحسم بعد وربما دعم هذا من ظهور التناقضات التى كانت مؤجلة بين الفصائل المختلفة. لقد شهدت سنوات النضال الطويلة انقسام الجبهات إلى فصائل، والفصائل إلى مجموعات. وهذه هى أحد أمراض الكفاح المسلح فى العالم الثالث بشكل عام.

لقد تغير وجه الثورة التى أطلقت رصاصتها الأولى فى الستينيات، كانت قيادتها أولا فى أيدى العناصر المسلمة الأكثر فقرا والتى تحملت الاضطهاد الإثيوبى بصورة أساسية. وكانت امتداداً لتيار حزب الرابطة الإسلامية الذى كان يدعو إلى استقلال إريتريا وعروبتها معا. ثم دخلت الثورة

إلى السبعينيات وقد انقسمت إلى تنظيمين رئيسيين هما جبهة التحرير الإريترية، وقوات التحرير الشعبية. واستطاعت الأخيرة أن تجذب مسيحيي الهضبة وكذلك العناصر المصوعية والحضرية. ثم حدث انشقاق آخر بقيادة أسياسى أفورقى، وتحت قيادته بدأت الجبهة الشعبية تحقق انتصارات متوالية على النظام الإثيوبى المنهار، مستعينة على ذلك بالعناصر المسيحية التى كانت على درجة عالية من الثقافة، فى الوقت الذى أخذت فيه العناصر الإسلامية فى التراجع بعد أن سقطت فى هوة التناحر فيما بينها.

ومعضلة الجبهة الشعبية الآن بقيادة أفورقى أنها ترفض الاعتراف بمساهمة الأطراف الأخرى فى عملية التحرير، وتنظر إلى شخصيات الثورة الرئيسية من منظور تاريخى ورمزى أكثر منه واقعياً. وبذلك فهى تهيىء نفسها للانفراد بالسلطة دون أن تتيح الفرصة لبقية الأطراف (المسلمة).

ولعل صلة الرئيس الجديد بإسرائيل تلقى المزيد من الظلال على توجهاته. فقد ذهب إلى إسرائيل مرتين فى مدة وجيزة: الأولى للعلاج من الملاريا، والثانية للتفاهم حول مستقبل العلاقات الآخذة فى التنامى. وتتحدث الأنباء عن مساهمة إسرائيل فى المشروعات الزراعية والآبار الجوفية وبناء مطار حديث ووجود خبراء عسكريين من الموساد لتدريب الجيش

الإريتري، الذي أصبح واحدا من أقوى الجيوش في القرن الإفريقي.

بقية الفصائل المعارضة ساخطة لأنها لم تدع للاشتراك في الاستفتاء. وبدأت المشاكل بين الإخوة المتناحرين حين أدلى أفورقي بالتصريح العنيف ضد ما أسماه بالتدخل العربي في شئون إريتريا الداخلية. وردت عليه بقية التنظيمات الأخرى بأنها لم تنهض للكفاح إلا دفاعا عن تراثها الإسلامي ولغتها وثقافتها العربية. وتنتقد حركة الجهاد الإسلامي الرئيس أفورقي بعنف لأنه قرر الأحد عطلة رسمية بدلا من الجمعة وأقصى اللغة العربية عن الدواوين والمدارس وفرض اللغة التيغرية بدلا منها، كما أنه تجاهل قانون الأحوال الشخصية للمسلمين، إضافة إلى حملات الاعتقال والقمع.

وهكذا بدأت بوادر التحلل بين الفصائل التي قادت النضال وإذا استمر الأمر على هذا النحو، فربما أدى إلى الانفجار الداخلي الذي يعود بالبلاد إلى نقطة الصفر مرة أخرى.

الموقف الكويتي والعربي

إن أفورقي يدرك جيدا معنى وقوع إريتريا بين استقطابين رئيسيين: إثيوبيا المسيحية (العدو السابق) والسودان العربي (الحليف الدائم)، ومع التقسيمة الدينية في البلاد فإن الانحياز إلى أي جانب يمكن أن يؤثر بالسلب على الجانب

بأسلحتهم بعد.

والبعض الآخر يقول إنها سوف تكون الدولة الأقوى فى القرن الإفريقى. فهى تملك جيشا قويا متمرسا بفنون القتال، اكتسب هذه الخبرة على مدى ثلاثين عاما. كما أنها تحتل موقعا استراتيجيا مهما على البحر الأحمر يؤهلها لأن تكون بوابة إفريقيا المفتوحة على البلاد العربية من خلال ميناءى مصوع وعصب. كما أنها تعتبر أكثر الدول استقرارا فى القرن الإفريقى فلا توجد فيها الحروب الأهلية أو المجاعات التى تعصف بجاراتها إثيوبيا والسودان وجيبوتى.

إنها تطرح تجربة جديدة تقترح نظاما ديمقراطيا يقوم على تعدد الأحزاب، وقد وضعت فى وسط علمها الرسمى إشارة إلى غصن الزيتون تعبيرا عن رغبتها فى الحياة بسلام.. فهل تنجح فى ذلك، وهل تجتاز كل هذه العقبات؟!

هذا هو السؤال الذى يطرح نفسه على الثورة التى أصبحت الآن دولة..

د . محمد الرميحي

- دكتوراه في العلوم الاجتماعية من جامعة درهام بانجلترا عام ١٩٧٣
- مؤسس ورئيس تحرير مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية في الفترة من عام ١٩٧٤ ـ ١٩٧٨
- استاذ في قسم الاجتماع بجامعة الكويت في الفترة من ١٩٧٥ ـ ١٩٨٢
- رئيس تحرير مجلة العربي منذ عام ١٩٨٢

من الجوائز التي حصل عليها :

- الجائزة التقديرية لمؤسسة الكويت للتقدم العلمي في العلوم الاجتماعية والاقتصادية عام ١٩٨٠
- جائزة ابن سينا (جائزة الابداع الثقافي الدولي) موسكو عام ١٩٩٠
- جائزة العويس في العلوم الاجتماعية عام ١٩٩٦

من اهم الكتب التي اصدرها :

- الكويت قبل النفط – دار حوار عام ١٩٧٥
- البترول والتغيير الاجتماعي – دار الجديد الطبعة الرابعة عام ١٩٩٥
- معوقات التنمية الاقتصادية والاجتماعية في بلدان الخليج – دار الجديد الطبعة الثالثة بيروت عام ١٩٩٥
- البحرين مشكلات التغيير السياسي والاجتماعي – دار الجديد الطبعة الرابعة عام ١٩٩٥
- ألعرب في عالم متغير . الناشر الشركة الكويتية للابحاث / مطابع الاهرام عام ١٩٩١
- ازالة الحواجز – الناشر الشركة الكويتية للابحاث / مطابع الاهرام ١٩٩١
- هموم البيت العربي . الناشر الشركة الكويتية للابحاث / مطابع الاهرام ١٩٩١
- الجذور الاجتماعية للديموقراطية في مجتمعات الخليج العربي – دار الجديد بيروت . الطبعة الرابعة عام ١٩٩٥
- اصداء حرب الكويت ردود الفعل العربية . الناشر دار الساقي عام ١٩٩٤ – لندن .
- الكويت .. كلمات في زمن النكبة : الناشر الشركة الكويتية للابحاث / مطابع الاهرام عام ١٩٩١

فهرس